الجمـهورية الجـزائرية الديـمقراطيـة الشعبيـة
وزارة التـعليـم العالي والبـحث العلـمي
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم اللغة والأدب العربي

بحث مقدّم لنيل شهادة دكتوراه في اللغة العربية موسوم بـــ:

الاقتصاد اللغوي في القرآن الكريم

دراسة دلالية

إعداد الطالب:
غربي بكاي

إشراف:
أ.د. أحمد عرابي

السنة الجامعية:
1433/1432هـ ** 2011 / 2012 م

الجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية
وزارة التّعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس – مستغانم –
كلّية الأدب، اللّغات والفنون
قسم اللّغة العربية وآدابها

بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه العلوم في اللغة العربية موسوم بـ:

الاقتصاد اللّغوي في القرآن الكريم

– دراسة دلالية –

إعداد الطالب:
غربي بكاي

إشراف الأستاذ:
د/ عرابي أحمد

السنة الجامعية: 2011م/ 2012م.

بسْم اللهِ الرّحمن الرّحيم

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴾

(الرّحمن:4.3.2.1)

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمَا ﴾

(طه : 114)

المقدمة :

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين أمّا بعد :

فإنّ القرآن الكريم هو كتاب تشريع للأحكام والقوانين التي تُنظِّم حياة البشر، وترسم معالم الطريق وهو كتاب لغة ونحو؛ فيه من الألفاظ والمفردات والتراكيب مالا يستغني عنه أحد، وفيه الأسماء والأفعال والحروف والمبني والمعْرَب، بل وشواهد النحو والبلاغة والبيان وفيه من أخبار وقصص الأمم الغابرة وآثارهم ووقائعهم وأيامهم ومحاوراتهم ... وفيه الطب والحكمة والأمثال والهندسة والجبر، وفيه من أصول الصنائع وأسماء الآلات كالخياطة والنجارة والبناء والنسج والفلاحة والصيد والصياغة والملاحة والكتابة والبيع والشراء ....

ولقد كان الصحابة الكرام على علم ودراية بذلك، وها هو أبو بكر الصديق يقول: والله لو سألوني عِقَالَ بَعِيْرٍ لوجدْتُه في كتاب الله وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلّم –

فكان القرآن ولا يزال نبْعًا فيّاضا ينهل منه طلاّبُ العلم، فلا هم يرتوون ،ولا هو ينضب ولا يخلق عن كثرة الرّد، ولا تنقضي عجائبه،يزيدهم علما ويقينا كلّما زادوه نظرا وفكراً. ومن جوانب الإعجاز في التنزيل العزيز ما اشتمل عليه من تفنّن في أساليب البلاغة البيان وكثيرة هي المؤلفات التي تتحدّث عن جزالة لفظه ،ودقة معناه، وبراعة أسلوبه،وما احتواه من أصناف وألوان البلاغة والبيان ،وهناك جانب مهم من جوانب بلاغة القرآن الكريم وهو: الاقتصاد اللغوي ، لم أجد مَنْ كتب فيه أو خصّه بالتأليف وما ذُكر فيه نَزْرٌ يسير كان متناثراً في بطون أمهات كتب البلاغة والتفسير والنحو والصرف، فأحببت أن ألملم شتاته، وأسبر أغواره وأستنطق مكامنه ، وأوضّح مفهومه، وأُبيّن مظاهره وآلياته وفائدته

فجاء موضوع بحثي موسوما بـ: "الاقتصاد اللّغوي في القرآن الكريم– دراسة دلالية– والإشكالية التي طرحتها هي: ما معنى الاقتصاد اللغوي ؟ وما وظيفته ؟ وهل نقتصد في اللغة أم في الكلام؟ وهل يمكن لجميع أصناف البشر الاقتصاد في اللغة أم أنّه خاص بفئة معيّنة ؟ وما هي مظاهره وآلياته في القرآن الكريم؟ .

للإجابة عن هذه التساؤلات تتبّعت المنهج الوصفي التحليلي؛ وذلك لأنّ الموضوع يحتاج إلى التعريف ببعض مصطلحاته ومفاهيمه، وقد تتبّعت ما ورد في القرآن الكريم من آيات فيها اقتصاد لغوي نتيجة لعوامل صوتية أو صرفية أو نحوية أو بلاغية مستعينا بما تفرّق في كتب التفسير و البلاغة ،ثم وقفت على الشواهد بالتحليل والنقاش، ونظراً لقلّة الزّاد،و وعور الطريق، وعدم توفّر الدراسات في هذا الموضوع كنت لا

أتدخّل بالتحليل الكافي لبعض المسائل، وإنما أكتفي بما قاله علماء اللغة والتفسير خوفاً من الزلل في كتاب الله ، إنْ في تفسير آية، وإنْ في إطلاق حكم.

واقتضت طبيعة البحث ومادته أن يكون في مقدمة وتمهيد وبابين ،يحوي كل باب فصلين، وخاتمة ثم فهارس .

فتطرقت في **التمهيد** إلى مفهوم الاتصال وعناصره الأساسية كالمرسل والمرسل إليه وقناة الاتصال وغيرها، ثم الشروط التي ينبغي توفّرها في كل عنصر من هذه العناصر حتى يتم الاتصال بشكل جيد وواضح.

كما ذكرت أنّ الألسنة قد تختلف في التعبير عن الأفكار والمعاني ؛فمنها ما تميل إلى الإسهاب والتفصيل ومنها ما تفّضل الاقتصاد في الكلام، وتبتعد عما لا فائدة من ذكره أو ما لا يتطلبه مقام الحديث.

وخصصت **الفصل الأول** للتعريف بمصطلح الاقتصاد اللغوي عند العرب القدامى والمحدثين ثم المصطلحات المرادفة له، ومعناه عند علماء اللسانيات الغربيين، وبيّنت علاقته باللغة ، وعرضت نماذج منه، وما يلزمه من شروط وضوابط.

لِأَصل إلى اقتصاد اللغة واقتصاد الكلام، الذي يظهر من خلاله أنّ الكلام أكثر وأوسع اقتصادا من اللغة ؛باعتباره فرديا واللغة اجتماعية.

وخلُصت إلى أنّ الاقتصاد اللغوي يتغلغل إلى داخل نظام اللغة ويشمل كل مستوياتها الصوتي منها والصرفي والدلالي والنحوي.

وكان الحديث في **الفصل الثاني** عن الاقتصاد اللغوي على المستوى الصوتي، بدأت فيه بالاقتصاد اللغوي والمناسبة الصوتية، ثم مظاهر الانسجام الصوتي في القرآن الكريم والتي منها التماثل بين الحروف في الكلمات والتراكيب، مع التمثيل لها بآيات من الذكر الحكيم مبيِّنا أسباب التأثير والتأثر بين حروف المباني، ثم تحدّثت عن الهمزة وما يعتريها من تحقيق وتخفيف عند النحاة والقرّاء، وبيّنت مواطن التخفيف والتحقيق فيها، مستشهدا في كل ذلك بأقوال علماء العربية ، وببعض القراءات القرآنية .

وبعدها تطرّقت إلى جملة من مظاهر اقتصاد اللغة في القرآن الكريم منها :الإمالة والتنغيم والتنوين والإدغام والإقلاب والإخفاء والإتباع ، وبيّنت وظائفها الدلالية .

أما **الفصل الثالث** : فتحدثت فيه عن الاقتصاد اللغوي على المستوى الدلالي، وكانت البداية فيه مع التعدد الوظيفي للكلمات والصيغ التعبيرية، وما تحمله من دلالات مختلفة فهي قوالب جاهزة نبني بها عدة بنايات، وهناك عدة آليات يمكن استخدامها في تنويع الدلالة ، منها الوقف ، وتناوب الصيغ الصرفية ،وألفاظ العموم ، وتعميم الخاص أو تخصيص العام .

ثم انتقلت إلى الصيغ اللغوية وتفاوتها في الاستعمال ،فوجدت أنّ هناك كلمات يكثر ترددها ودورانها على الألسن ، وهناك كلمات يقل استعمالها ، وبدأت في هذا بالحركات ثم الحروف ثم الكلمات ، وفي النهاية بيّنت أنّ سبب ذلك هو: الخفة والثقل والسهولة والصعوبة ، فالحركات والحروف والألفاظ الخفيفة على اللسان تشيع أكثر من غيرها .

لِأَصل إلى عنصر الاقتصاد اللغوي في القراءات القرآنية ، فعرّفته ، وبيّنت الفائدة من تعدد القراءات ،وما ينبثق عن هذا التنوّع من تعدد معنى الآية الواحدة ،وما يستفاد منه من أحكام فقهية ،وختمت الفصل بالتصوير الفني في القرآن الكريم ، وطريقة عرضه للأحداث والوقائع المتحدث عنها .

أما **الفصل الرابع** فتناولت فيه الاقتصاد اللغوي على المستوى التركيبي ، وبدأت الحديث فيه عن دور حركات الإعراب في توضيح المعنى، ،وأنّها في الكلام بمثابة المفاتيح التي تفضّ الأقفال الموصدة ،والقواعد النحوية التي وضعها النحاة كلها تتوخّى التخفيف في النطق ، وتبتعد قدر الإمكان عن كل ما هو صعب أو شاق وثقيل على اللسان ،وإذا ما تعارضت القواعد العامة مع الذوق العربي ؛فإنّه يتم العدول عنها إلى غيرها ، ثم انتقلت إلى الحديث عن النسبة ،والحذف و أسبابه و شروطه **و** جماليته الفنية والبلاغية،ثم تطرّقت إلى الإيجاز وأنواعه: إيجاز قصر وإيجاز حذف.

لأختم الفصل بالإشارة والصمت ،مع بيان دورهما في توضيح المعنى وتجليته ،وتوفير الجهد والوقت .

أما الخاتمة فكانت حوصلة لأهم النتائج التي توصل إليها البحث .

وأخيرا يبقى الاعتراف بالفضل لأهل الفضل ،وردّ الجميل لأهله وذويه ،فأتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذنا الفاضل د/ أحمد عرابي الذي كان مربيا وموجها ومُعلِّما ونشكر كل أساتذتنا الكرام، وكل زملائنا، ومن ساهم من قريب أو من بعيد في إنجاز هذا البحث.

وفي الختام أقول لو أنِّي أستقبل من أمري ما استدبرت لغيّرتُ وبدّلت ،وحذفت وأضفت ، ولكنه القصور البشري الذي لا يفتأ يتطلّع إلى الكمال ولا يبلغه، فأدعو الله العظيم أن يتقبّل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن ينفع به ، ويجعله فاتحة خير لمواصلة البحث في هذا الموضوع ،والحمد لله ربِّ العالمين .

والله ولي التوفيق

مستغانم في: 2011/10/4م

غربي بكاي

المدخل

تمهيد:

تعتبر اللغة وسيلة ضرورية للتفاهم بين البشر، وأداة تواصل وتعبير عن أحاسيسهم ومشاعرهم وتبليغ أفكارهم إلى غيرهم من بني جنسهم.

وهذه الوظيفة اللغوية قديمة قدم الإنسان على وجه الأرض، ونظرا لاختلاف البشر في الطباع والأجناس والآراء والأهواء والميولات يصعب التواصل بينهم أحيانا، وربما يتعذر نهائيا، ومن ثمّ راح المفكّرون والفلاسفة يبحثون سُبل التواصل المثلى التي تُقرّب بين الباث والمتلّقي، وتُزيل الموانع والعقبات التي تُحيل بينهما، وذلك لم يتأتّ لهم (للمفكرين والفلاسفة) إلاّ بدراسة دقيقة ومعمّقة للعملية التواصلية والظروف التي تجري فيها.

وفي العصر الحديث- وكعادتهم- انبرى عدد لا يحصى من علماء اللغة والاتصال وعلماء النفس والاجتماع، وغيرهم في البحث عن كُنه هذه الميزة البشرية تعريفا ووصفا وتحليلا، وبيانا لأنواعها وخصائصها ووظائفها وعلاقتها بالعقل والشخصية والسلوك والوسط الاجتماعي،ومدّة اكتسابها، وذلك كلّه بغية الوصول إلى نتائج علمية موضوعية تمتاز بالدّقة والوضوح، ويمكن تعميمها على على عدد كبير من الأشخاص رغبة في تسهيل التواصل بينهم، خاصة وأنّ وسائل الاتصال لم تعد تقتصر على نوع واحد؛ بل تعدّدت أنواعها حتى أصبحت كما يقول ويليام شرام:<< تعني جميع الطرق التي يتم من خلالها التبادل والمشاركة في المعلومات والأفكار؛ وتشمل وسائل الاتصال الجماهيرية، ووسائل الاتصال بين الأفراد ؛وتضم اللّغة والرّموز، والإشارة، وتعبيرات الوجه والصور والمطبوعات والأفلام، وكلّ ما يتم به توصيل المعاني والقيم السلوكية من شخص لآخر>>[1].

إضافة إلى كلّ ذلك تعتبر اللغة أداة لبلّورة الخبرات البشرية وتجارب الأمم، وبها يتم تدوين التراث الثّقافي وتنقّله من جيل لآخر، كما أنّها وسيلة لتحليل الأفكار وتركيبها وهي تميّز الإنسان عن جميع الحيوانات بالقدرة على التعبير عن الأحاسيس والمشاعر بشكل جلي وواضح ،ووسيلة تواصل بين متكلّميها ، وهذه ميزة أو وظيفة غالبة عليها [2].

---

[1] - التكنولوجيا والتربية ، حسن حمدي الطويجي، دار القلم، الكويت، ط3 :(1983م) ص: 33.

[2] - ينظر: محاضرات في علم النفس اللغوي، حنفي بن عيسى،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،ط5(2003م) ص: 68 ، 69.

والاتصال من أهم وظائفها، والمقصود بالاتصال La communication

<< أنه تبادل كلامي بين المتكلم الذي ينتح ملفوظا أو قولا موجها نحو متكلم آخر intelocuteur يرغب في السماع ،أو إجابة واضحة أو ضمنية، وذلك تبعا لنموذج الملفوظ الذي أصدره المتكلم>>[1].

يتضح من هذا التعريف أنّ الاتّصال لا يقوم إلاّ بين طرفين أو أكثر؛ بحيث يتّم اتصال أحدهما بالآخر عن طريق قناة تواصل، والثاني يستجيب لمضمون الرسالة بعدما يتّم تحليلها وفهمها، وهذا ما يجعلنا نقول إنّ الرسالة اللغوية تتمّ عبر مراحل هي :[2].

1- المرحلة الأولى: وهي التي يتمّ فيها تكوين الرسالة وبعثها وهذا خاص بالمتكلم.

2- المرحلة الثانية: تنتقل فيها الأمواج الصوتية عبر الهواء إلى أن تدقّ طبلة الأذن عند المستمع ثم تنتقل إلى دماغه (وهذا في حالة الاتّصال الشفوي المباشر).

3- المرحلة الثالثة: هي التي يقوم فيها المستقبل بحلّ رموز تلك الرسالة والتوصّل إلى تركيبها الصوتي والصرفي والنحوي، ويستخلص منها المعنى المقصود من طرف المتكلّم وهي كالمرحلة الأولى من أعصى المراحل على التحليل والوصف لأنّها تتمّ داخل الدماغ.

ومهما اختلفت طرق الاتصال وتنوّعت من الشفوي إلى الكتابي إلى الرموز والإشارات فإنّها تقوم على أمور أساسية هي: [3].

أ- مصدر : Sourse

ب- مقصد : Destination

ج- مرسلة : Transmetteur

د- مسلك أو قناة: voicon canal

هـ- مستقبل : recepteur

---

[1] – اللغة والتواصل،(اقترابات لسانية للتواصلين : الشفهي والكتابي) د/ عبد الجليل مرتاض، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص: 78.

[2]– اللسانيات من خلال النص، جمع د/ عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر، (ط:1984م) ، ص: 29.

3- أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعليم عامّة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، محمود طاوس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر،(1988م)، ص: 40.

اختلاف الألسن أثناء التعبير: يختلف البشر في التعبير عن المعاني أثناء عملية التواصل من شخص لآخر حسب ظروفهم ونفسياتهم، وذلك أمر ملاحظ، سواء في اختيار الألفاظ والمفردات أو في التراكيب << بل إنّ الناس قد يختلفون في التعبير عن المعنى الواحد، وإن كانوا يتفقون في التعبير عن المعاني العلمية أو الرياضية مثل: (أ=ب) و (ب=ج)>> [1].

لكن إذا تعلق الأمر بالتعبير الأدبي فإنهم لن يتّفقوا إلا نادرا، والمعنى الذي يجول بالخاطر شبيه إلى حد كبير بمدينة أو بمكان معلوم لدى قاصديه إلاّ أنهم يختلفون في طريق الوصول إليه ؛فمنهم(من القاصدين) من يتلمّس أقرب الطرق فيوجز ويختصر قدر الإمكان ومنهم من يسلك طريقا بعيدا ظنا منه أنه أفضل ، أو أنه السبيل الوحيد الموصل إلى ذلك المكان ، وهنا نرى أنّ السُبل قد اختلفت والوجهة واحدة .

وإذا كنا نتساءل عن سبب هذا الاختلاف، وأيُّ التعابير أفضل ؟ فعلينا أن نعلم أن عملية الاتصال عملية معقدة تتدخل فيها عدة عوامل منها :الفروق الفردية بين أطراف العملية التواصلية، فمن المتخاطبين- سواء كان مرسلا أو مرسلا إليه- من يتمتّع بعطاء ممدود من الذكاء والفطنة، وسرعة الفهم، وجودة الاستعداد زيادة على ذلك << اتصاله الوثيق بأبويه وأفراد أسرته ثم بأهل محيطه، وأفراد مجتمعه بمختلف فئاتهم ومستوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية والثقافية، وعلى اختلاف أعمارهم وأجناسهم>> [2].

ومن (المتخاطبين) من هو على عكس ذلك بحيث لا يتوافر لديه دوافع وحوافز اكتساب مهارات اللغة بدرجة من توافر له ذلك.

وهناك عامل آخر ؛ وهو نسبة ذكاء الفرد << فكلّما ازداد ذكاؤه، واتسع فهمه ازدادت قدرته على إدراك العلاقات اللغوية وتصورها، وبالتالي يرتفع محصوله اللفظي والمعنوي>> [3].

ووفقا لهذه المهارات والاستعدادات يتمّ انتقاء الألفاظ والمفردات، ونسجها في تراكيب تعبّر عن فكرة أو موضوع ما، لأنّ الألفاظ هي الوسيلة لتحديد الأفكار وتمييز بعضها من بعض وإذا كانت المعاني

---

[1] – النقد الأدبي، أحمد أمين، تقديم: محمد الطاهر مدور، موفم للنشر، (1992 م) ، ص: .77

[2] – النمو النفسي، د: عبد المعجم المليجي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الخامسة، ص:.178

[3] – الحصيلة اللغوية (مصادرها، وسائل تنميتها)، د: أحمد محمد معتوق، عالم المعرفة، الكويت، طبعة: (1996م)، ص: 85.

كثيرة ومتنوعة، فمن اللاّزم أن تتنوّع الدّوال (الألفاظ) تبعًا لها << ولا شكَّ أنّ الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا، عموما وخصوصا جنسا ونوعا >> [1].

وحتى نتمكن من تكييف المباني وفق المعاني نلجأ في كثير من الأحيان إلى استخدام أساليب وطرق متنوعة كالمجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها من أجل التوسع في اللغة.

وقد التجأ أرباب البلاغة والفصاحة، وسدنة البيان إلى ابتداع فنون القول، وأصناف الكلام بأساليب بلغت الذّروة، وفاقت الحد في الأداء حتى يلبسوا هذه الجواهر واللآلئ حللاً زاهية ظاهرها كباطنها عملا بما تعارف عليه علماء العربية والناطقون بها، وهو أن << يجعل المعنى الشّريف في اللّفظ اللّطيف>> [2].

وهذا بطبيعة الحال لا يُحسنه الجمّ الغفير من المتكلمين وأصحاب الأقلام من الناطقين بالعربية أو غيرهما من اللغات، لأنه وكما هو معروف << عند علماء اللّسان أنّ أي متكلم عند قيامه بعملية أداء كلامية، فإنّه يعتمد على رصيده اللّغوي المتوفّر لديه والمكوّن من الألفاظ والأساليب>> [3].

وما يهمّنا في هذا المقام هو الأساليب التي فيها اقتصاد في القول ، والتي تقوم على المقابلة بين التقليل في اللفظ ، والتكثير في المعنى ، << وأن تُخرج من الندرةِ الكثرةَ ، وأن تكون قادرا على صياغة العبارة على الكثافة والتّعدد يتطلب عارضةً في البيان ، وخبرةً بمسالك الوصول إلى المعنى >>[4].

الاقتصاد واللغة:

الاقتصاد في العمل يعني :<< الاعتدال والاستقامة بلا إفراط ولا تقتير، والغاية منه التوفير>> [5].

وهو توسّط واعتدال في التصرّف ، لتجنُبِ الإفراط والتفريط ،و له مظاهر مختلفة في الحياة

---

[1] – الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة (بدون طبعة)، ص: 205.

[2] – مقدمة في صناعة النثر والنظم، شمس الدين التواجي، تحقيق : د: محمد بن عبد الكريم، منشورات دار الحكمة، بيروت، ص: 29.

[3]– النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، ين عكنون، الجزائر، طبعة (1994م)، ص: 259.

[4]- بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة ، نور الهدى باديس ،(مبحث في الإيجاز والإطناب) ط1،(2008م) تونس ، ص123.

[5]– الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، (2001م)، ص:9.

العملية من زراعة وصناعة وتجارة، وغيرها من ميادين الحياة المختلفة، ونلاحظه كذلك في الأحاديث والحوارات الجارية بين الناس في حياتهم اليومية، فالكثير منّا يُفضِّل من الكلام ما كان موافقا للمقام الذي

هو فيه من غير زيادة ولا نقصان، وينبذ كل ما كان زائدا من دون فائدة ،خاصة في بعض الظروف ؛كحالات التعب أو ضيق الوقت أو غيرها .

وما ينبغي أن نعلمه أولا أنّ اقتصاد اللغة ينتسب إلى الاقتصاد المادّي ، وهذا الأخير هو << العلم الذي يختص بدراسة الكيفيّة التي يختار بها الأفراد والمجتمع الطّريقة التي يستخدمون بها مواردهم الإنتاجية النادرة لإنتاج السلع المختلفة، على مدى الزمن، وكيفية توزيع هذه السلع لغرض الاستهلاك في زمن الحاضر والمستقبل على مختلف الأفراد والجماعات>>[1].

وهو يستمد أصل وُجوده من حقيقتين هامّتين، ترتبطان ببعضهما أوثق ارتباط وهما: << الحاجات والمتطلبات غير المحدودة، والموارد والأموال الأقل بكثير منها (من الحاجات) وغير القادرة على إشباعها >> [2].

والاقتصاد منهج سليم وطريق قويم لما فيه من الخير والنفع العاجل والآجل للفرد والمجتمع حثّ عليه المولى عزّ وجل فقال في محكم تنزيله: ﴿والّذينَ إذَا أنفَقُوا لَمْ يُسْرفُوا وَلمْ يُقْتِروا وَكَانَ بَيْنَ ذَلكَ قَوَامًا ﴾ [3].

مدح الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة عباده المنفقين بالقسط فابتعدوا عن الإسراف وعن التقتير الذي هو الشحّ والبخل.

كما نهى عن التبذير في النفقة بوجه عام فقال : ﴿ولاَ تُبَذّرْ تَبْذيراً إنّ المبَذّرِين كَانُوا إخْوَانَ الشّياطِين وَكَانَ الشّيْطَانُ لِرَبِّه كَفُوراً ﴾ [4].

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة ينهى عن التبذير وعن اقترافه، واعتبر المبذّرين إخوانا للشياطين وهي درجة لا يهبط إليها إلاّ من خسر عمله.

---

[1] – مبادئ في الاقتصاد الجزئي، د: السيد محمد أحمد السريتي، جامعة الإسكندرية، الدار الجامعية للنشر والتوزيع، ط1،(2000م) مصر، ص:.12

[2] – ينظر: تاريخ الفكر الاقتصادي، د: عادل أحمد مشيش، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ص: 28.

[3] – الفرقان، الآية: .67

[4] – الإسراء، الآية : 26، 27.

كما أوصى لقمان الحكيم ابنه بأن يقتصد في مشيه ؛بحيث لا يبطئ ولا يسرع وإنّما يمشي على مهل، ونظراً لما تحمله هذه الوصيّة من فائدة عظيمة لابن لقمان ولعامّة النّاس خلّدها الله سبحانه وتعالى في قرآنه العظيم؛ فقال تعالى: ﴿ واقْصِد في مَشيِك واغْضُضْ من صوْتِكَ ﴾[1].

وقال تعالى أيضا: ﴿ولاَ تَجْعَل يَدَكَ مَغْلُولة إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْهَا كُلّ البَسْطِ﴾[2].

وقوله :﴿ لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾"كناية عن الشحّ والبخل"، ﴿ولا تبسطها كلّ البسط﴾، أي لا تطلق عنانها حتى فوق المطلوب فتفسد وتبذّر.

والمتمعن في القرآن الكريم يجده يمدح الأنبياء والصالحين والشعوب الذين يقتصدون في أمور معاشهم ويذمّ كلّ بخيل ومسرف ومبذّر.

كما حثّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم - هو الآخر على هذه الصفة، ورغّب فيها، وجعلها في كثير من الأحيان أسلوبا ناجحا في مواجهة الأزمات الاقتصادية واعتبرها الحلّ المناسب في المحافظة على النفس البشرية من الضياع والهلاك، وممّا جاء في حثه على قوله :<< مَا عَالَ مَنِ اقتصَدَ >> [3].

يقول محمد بن عبد الله الشباني << المقصود بالعول في الحديث نفي على من اقتصد في نفقته فلم يبخل ولم يبذّر>>[4].

ويواصل الشباني قوله: ويُساند هذا الحديث قوله (صلى الله عليه وسلم) :<< مِنْ فِقْهِ الرّجُلِ رِفْقُهُ قي مَعِيشتِه>> [5].

والفقه المقصود في الحديث هو :<<جودة الفهم وحسن المعرفة، والرفق في المعيشة هو القصد في الإتقان من غير إسراف أو تبذير، وفي الحديث توجيه للأمة بمراعاة القصد في الإنفاق والحثّ على الادخار>> [6].

---

[1] – سورة لقمان، الآية: .19

[2] – سورة الإسراء ، الآية:.29

[3]– مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط:1،(1416 هـ/ 1996م)، ج7، رقم: 4269، ص: .302

[4]– مجلّة البيان الإلكترونية، المشكلة الاقتصادية وعلاجها من المنظور الإسلامي، د: محمد بن عبد الله الشباني، العدد 81، جمادي الأولى (1415هـ/ أكتوبر – نوفمبر 1994م)، ص: .37

[5] – مسند الإمام أحمد، ج:36، رقم: 21695، ص:.26

[6] – يُنظر: مجلة البيان الإلكترونية، د/ محمد بن عبد الله الشيباني، العدد 73، ص: 99.

وروى الإمام مسلم عنه (صلى الله عليه وسلم):<< أنه نَهى عن أكل لُحُوم الضَحايا بَعد ثلاثَة >> [1]. أي: بعد ثلاثة أيام ، وبيّن سبب النهي عن ذلك فقال:<< مَنْ ضَحّى مِنْكُمْ فَلَا يَبْقَينَّ بَعْدَ ثَلاَثَةٍ وَفِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ ،فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ قَالوا: يَا رَسُولَ اللهِ نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: كُلُوا وأَطْعِمُوا وَادّخِرُوا فَإِنّ ذَلِكَ العَام كَانَ بالناس جهدٌ فأردت أن تُعينوا فيها>> [2].

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :
<< إنّ الأشْعَريين إذا أرْمَلُوا أو قَلّ طَعامُ عِيَالِهِم بالمدينة جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُم في ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمّ اِقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُم فِي إنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسّوِيةِ فَهُم مِنِّي وَأَنَا مِنْهُم >>[3].

يقول الشيباني: بدراسة هذه الأحاديث نجد أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) عالج النقص السلعي في المدينة بأسلوب توجيهي للأمة ليقتدي به قادة الأمّة الإسلامية حيث وضع- عليه الصلاة والسلام- تطبيقا ينبغي اتباعه عند حدوث النقص في السلع التي يحتاج إليها النّاس خلال فترة النقص ، ويتمثل هذا المنهج في التدخل بالمعالجة الوقتية وِفْقَ هذا التوجيه النبوي القائم على مواجهة الظروف.

فمعالجة الرسول (صلى الله عليه وسلم) للمجاعة عندما وفدت أعداد من الأعراب إلى المدينة في عيد الأضحى أنّه نهى (صلى الله عليه وسلم) عن الاحتفاظ بلحوم الضحايا لأكثر من ثلاث أيام، وعندما انتهت الأزمة سمح بالادخار"[4].

وفي مجال الكلام ثبت عنه (صلى الله عليه وسلم) أنه << نَهَى عَنْ قِيْلٍ وَقَالَ وَكَثْرَةِ السُّؤَالِ وَإِضَاعَةِ المال >> [5].

---

[1]- صحيح مسلم (ت621ه) بشرح الإمام النووي (ت677ه)، ضبطه وخرج أحاديثه : محمد فؤاد عبد الباقي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، (1421ه- 2000م) ، ج7 ، ص: 111.

[2] - صحيح مسلم، ج7، ص: .112

[3]- صحيح مسلم، ج16، ص: 51.

[4]- مجلة البيان، العدد 73، ص: 101.

[5]- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، (ت 538ه) تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم دار المعرفة، لبنان، ط:02، ج3، ص231، كما ذكره الإمام مسلم في صحيحه، ج12، ص: 12.

وقيل وقال أي: نهى عن فضول ما يتحدث به المتجالسون من قيل كذا، وقال فلان كذا، وكثرة السؤال عمّا لا فائدة فيه، وإضاعة المال: تبذيره أو إنفاقه في حرام، أو جعله في يد مَنْ لا يحسن التصرف فيه كالسفهاء.

كما حثّ على هذه الخصلة النبيلة الحكماء وتواصّى بها المتواصّون ،وقد التزمت كثير من الأمم والشعوب بهذا المبدأ الإنساني في جميع أمور حياتها، ودعوا إليه عرفانا منهم بما فيه من الخير والفلاح والآجل والعاجل لهم ولغيرهم، فمدحوا أصحابه، واعتبروه صفة حميدة ينبغي الالتزام بها ونبذ كل ما فيه بخل أو إسراف.

الفصـل الأول: مفهوم الاقتصـاد اللغوي

- مفهوم الاقتصاد اللغوي
- عند العرب
- المصطلحات العربية المرادفة لمفهوم الاقتصاد اللغوي
- الاقتصاد اللغوي عند الغرب
- علاقة الاقتصاد باللغة
- نماذج من الاقتصاد اللغوي
- شروط وضوابط الاقتصاد
- العملية التواصلية والاقتصاد اللغوي
- أصالة الاقتصاد اللغوي
- الاقتصاد الذهني
- الاقتصاد الإعلامي
- اقتصاد لغة أم اقتصاد كلام ؟
- العلاقة بين الاقتصاد والكفاية اللغوية
- اقتصاد الأصوات واقتصاد الكتابة
- الاقتصاد والنظام اللغوي

مفهوم الاقتصاد اللغوي: – عند العرب:

لمصطلح الاقتصاد اللغوي عدة تعاريف اتفقت في مضامينها واختلفت في ظاهرها فابن الأثير الجزري خصص بابا في المثل السائر سمّاه: << في الاقتصاد والتفريط والإفراط>> يقول فيه: اعلم أن هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد في كل شيء من علم وصناعة وخُلق، ولابد لنا من ذكر حقيقتها في أصل اللغة>> [1].

وحتى يفرّق بين المفاهيم الثلاثة ذهب إلى تعريفها، فالتفريط –كما يقول –هو: << التقصير والتضييع ، والإفراط هو الإسراف وتجاوز الحد، يقال أفرط في الشيء إذا أسرف وتجاوز الحد، ثم عرّف الاقتصاد على أنه من القصد الذي هو الوقوف على الوسط الذي لا يميل إلى أحد الطرفين >>[2].

ويقصد بالطرفين هنا الإفراط والتفريط، وقد انطلق في تعريفه هذا من قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم ظَالِمٌ لِنَفْسِه وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُم سَابِقٌ بِالخَيْرَاتِ بِإِذْنِ الله﴾ [3].

وفي تعليقه عن الآية يقول: ظلم النفس والسبق بالخيرات طرفان، والاقتصاد وسط بينهما ويرى أن هذه المعاني نقلت إلى علم البيان، وعلى ذلك فاقتصاد اللغة هو<< أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب ما يقتضيه المعبّر عنه في منزلته >>[4].

ويقصد بالمعنى المضمر في العبارة: القول أو الكلام يكون موافقا للمقام الذي هو فيه في منزلته أي بحسبه من غير زيادة ولا نقصان.

كما يرى أن التفريط في المعاني الخطابية قبيح لا يجوز استعماله بوجه من الوجوه، والإفراط يجوز استعماله فمنه الحسن ومنه دون ذلك، ومما جاء في التفريط قول الأعشى[5].

وَمَا مَزبَدُ مِنْ خَلِيجِ الفُرَاتِ *** جُونُ غَوَارِبُهُ تَلْتَطِمُ

بِأَجْوَدَ مِنْهُ بِمَاعُونِهِ *** إِذَا سَمَاؤُهُم لَمْ تَغَم

فإنه مدح ملكا بالجود بمعاونه، والماعون:كل ما يستعار من قدوم أو قصعة أو قدر أو ما أشبه ذلك،ومدح الملوك به عيب وذم فاحش، ومن أمثلة التفريط قول الفرزدق[6]:

---

[1]– المثل السائر في آداب الكاتب والسائر، ابن الأثير (ت637هـ)، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ج2، ص: 298.

[2]– المصدر نفسه، ج2، ص: 299.

[3]– سورة فاطر، الآية: 32.

[4]– المثل السائر، ج2، ص: 299.

[5] – ديوان الأعشى ،شرح وتقديم :مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط2 ، (1993م) ص170.

[6]– ديوان الفرزدق، دار بيروت للطباعة، ج2، (1980م)، ص: 37.

أَلَا لَيْتَنَا كُنَّا بَعِيْرَيْنِ لَا نَرِد ** عَلى حَاضِرٍإلّا نُشَلُّ وَنُقْذَفُ

كِلاَنَا عَرٌّ يَخَافُ قِرَافَهُ ** عَلى النَّاسِ مَطْلِيُّ المِسَاعِرِ أَخْشَفُ

هذا رجل ذهب عقله حين نظم هذين البيتين، فإن مراده منها التغزل بمحبوبه، وقد قصر تمنيه على أن يكون هو ومحبوبه كبعيرين أجربين لا يقربهما أحد، ولا يقربان أحدا إلا طردهما، وهذا من الأماني السخيفة [7].

والأمثلة كثيرة لا تحصى ،إذ كل ما خرج عن الطرفين من الإفراط والتفريط فهو اقتصاد ،ومن أحسنه- حسب رأي ابن الأثير- أن يجعل الإفراط مثلا ثم يستثني فيه بلو، أو بكاد وما جرى مجراهما، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ البَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم ﴾ [8].

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ لمِاّ قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدَا﴾[9]. ومما ورد في الاقتصاد شعرا قول الفرزدق[10].

يَكَادُ يُمْسِكُهُ عِرْفَانَ رَاحَتِهِ *** رُكْنُ الحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

ويمكن تمثيل ما ذهب إليه ابن الأثير بالجدول التالي:

التفريط	الاقتصاد	الإفراط
هو التقصير والتضييع في المعنى المعبّر دون ما تقتضيه منزلة المعبر عنه، والدّلالة مبهمة الوضوح وناقصة، وهو غير جائز.	في الكلام ودلالته الوسطية والاعتدال من خلال موافقة المعنى المضمر في العبارة لمقام الحال، والدّلالة صريحة واضحة.	وهو الإسراف وتجاوز الحد في المعنى المعبّر عنه فوق ما تقتضيه منزلة المعبّر عنه (الحال) والدّلالة غامضة وغير صريحة، وهو جائز.

وسار على دربه واقتفى خطاه ابن القيم الجوزية[*] في فهمه لمعنى الاقتصاد اللغوي .

---

[7]- المثل السائر، ج2، ص: 300.

[8]- سورة البقرة، الآية، 20.

[9]- سورة الجن، الآية :19

[10]- ديوان الفرزدق، ص: 57.

[*]- أشار ابن القيم الجوزية في كتابه (إني مهاجر إلى ربي)، إلى مفهوم الاقتصاد، وهو يتحدث عن الآية 32 من سورة فاطر "فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات"؛ قال: أما المقتصدون فأدوا وظيفة يومهم وليلتهم، ولم يزيدوا، ولا نقصوا منها، فلا حصلوا على أرباح التجار، ولا خسروا الحق

ويرى يحي بن حمزة العلوي أنّ الاقتصاد اللغوي معناه:<< أن يكون المعنى المندرج تحت العبارة على حسب ما يقتضيه المعبر عنه مساويا له، من غير زيادة فيكون إفراطا ولا نقصانا فيكون تفريطا>>[11].

ويرى ابن حمزة العلوي أنّ القرآن وارد على طريقة الاعتدال والتوسط في المدح ومن أمثلته على هذا قوله تعالى:﴿ قَدْ أَفْلَحَ المؤْمِنُونَ*الّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِم خَاشِعُونَ* وَالّذِينَ هُم عَن اللّغْوِ مُعْرِضُونَ *وَالّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾[12].

قال تعالى في صدر سورة البقرة في صفة المتقين: ﴿هدىً لِلْمُتّقِينَ*الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَمِمّا رَزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ*وَالّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُم يُوقِنُونَ أُوْلَئِكَ عَلى هُدَىً مِن رَّبِّهِم وَأُوْلَئِكَ هُمْ المفْلِحُونَ﴾ ([13]).

فهذه الأوصاف على نهاية الاقتصاد والتوسط من غير إفراط ولا تفريط([14]).

وما ورد في الذم قوله تعالى في سورة نون يخاطب به الوليد بن المغيرة المخزومي وقيل الأخنس بن شُريق، وقيل الأسود بن عبد يغوث :﴿ ولا تُطعْ كلَّ حلاَّف مهينٍ همّازٍ مشّاءٍ بنميمٍ منَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيْم﴾([15]).

فهذه أوصاف دالة على الذم، صادقة عمّا هم عليه من هذه السّمات جارية على جهة الاعتدال والتوسط من غير إفراط ولا تفريط، وهكذا القول في جميع القرآن وأصوله من الأوامر والنواهي والوعد والوعيد والقصص والأمثال فإنها جارية على جهة التوسط والاعتدال لا تخرج على حدٍّ فيما تناولته من مدحٍ ولا ذمٍ كما يكون الخروج في غيره([16]).

وقول المصطفى- ص-:<< ألا أحدثكم بأحبكم إليّ وأقربكم منّي مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون، ألا أحدثكم بأبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجالس يوم القيامة الثرثارون المتفيهقون>>[17].

الذي عليهم، والتجار هم السابقون بالخيرات، والذين بخسوا الحق الذي عليهم هم الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون هم بين هاتين الفئتين، وهذا المفهوم عنده ينحصر بين الإفراط والتفريط في كل شيء ينفقه الإنسان بما في ذلك الكلام، "إني مهاجر إلى ربي، شمس الدين أبي عبد الله بن قيم الجوزية، دار الشهاب باتنة، الجزائر، دون طبعة، ص: 82.

[11]- كتاب الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ،يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، مج 2، مكتبة المعارف الرياض ، ص301 .

[12]- سورة المؤمنون، الآيات: 1، 2، 3، 4.

[13] - سورة البقرة ، الآيات: 2،3،4،5

[14]- ينظر :كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ، يحي بن حمزة العلوي ، مج2. ص301، 302.

[15] - سورة القلم ، الآيات: 10،11،12،13

[16] -كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز ، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني ، مج2. ص301،302

[17]- مسند الإمام الأحمد: تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط1، (1416هـ، 1996م)، ج11، ص: 49.

يقول ابن حمزة العلوي بعدما ذكر هذا الحديث النبوي<< فانظر إلى حبّه ما أعدله وإلى بغضه فما أقومه،فأعطى المحبّ ما يليق به، وأعطى المحّبّ ما يستحقه من غير إفراط في الجانبين ولا تفريط في حقهما>>.

ومن ذلك قوله- ص-:<< البخيل بعيد من الله بعيد من الناس، قريب من النَّار والسَّخيُّ قريبٌ من الله، قريب من الناس بعيد من النار>>، وقال عليه السلام:<< إنَّ مع العِزّ ذُلاً وإنَّ مع الحياة موتاً، وإنَّ مع الدنيا آخرة، وإنَّ لكل شيء حسيباً وإنّ على كل شيء رقيباً، وإنَّ لكل أحدٍ كتاباً ولكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئة عقاباً>>.

وقوله عليه الصلاة والسلام:<< اغتنم خمساً قبل خمسٍ: شبابك قبل هرمك ،وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك،وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك>>.

وقوله عليه السلام:<< إنَّه من خاف البيات أدلج، ومن أدلج في المسير وصل، وإنما تعرفون عواقب أعمالكم، لو طويت صحائف آجالكم، أيُّها الناس : إنَّ نيَّة المؤمن خير من عمله ونيَّة الفاسق شرّ من عمله>>، فليأمل المتأمل في كلامه عليه السلام ما فيه من الاقتصاد في الوعظ وفي وصف المحبة والبغض وغير ذلك فإنّه لا مِرْية فيكون سالكاً فيها طريق القصد وناهجا منهج العدل ،لا يغلو، فيُفْرط ، ولا يحيفُ فيفَرِّط ([18]).

ويرى ميشال زكريا أن مفهوم الاقتصاد اللغوي:<< لا يعني في المجال الألسني تقليل المصاريف وإنما مفاده التنظيم الاقتصادي للمصاريف في الطاقة اللازمة لإتمام عملية التواصل>>[(19)].

كما يعرّف مبارك المبارك الاقتصاد اللغوي بأنه:<< ميل اللغة إلى توفير الجهد عن طريق الاختصار أو الحذف أو التعديل في مخارج الحروف، ومن ذلك إسقاط علامات الإعراب>>[(20)]، والاقتصاد اللغوي له آليات كثيرة منها الحذف بأنواعه والاختصار والتعديل و...الخ.

ويرى عبد الرحمن الحاج صالح أننا:<<نعني بالاقتصاد ما كان يعنيه العلماء العرب قديماً من كلمة الاستخفاف وهي عبارة عن نزعة المتكلم الطبيعية إلى التقليل من المجهود العضلي أو الذاكري عند إحداثه لعباراته في حالة الاستئناس وعدم الانقباض ،فلما كان المقام مقام أنس كان المتكلم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أكثر ارتياحاً، وهذا هو بالذات ما يمنح للغة حيويتها >>([21]).

---

[18] - ينظر: الطراز ج2، ص303، 304

[19] - الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط2: (1982م)، ص: 58.

20- معجم المصطلحات الألسنية، مبارك المبارك، فرنسي- عربي-إنجليزي، ص: 92.

[21] - بحوث ودراسات في اللسانيات العربية د/عبد الرحمان الحاج صالح ،ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية ، الجزائر

والعرب كثيرا ما كانت تميل إلى التخفيف وتستعمل العبارات والتراكيب التي تخف على اللسان، ويفرون مما هو ثقيل أو صعب النطق به، وهم ينزعون بذلك إلى الاقتصاد
في الجهد العضلي أو الذاكري.

ويذهب عبد الرحمن الحاج صالح مرة أخرى إلى أن الاقتصاد اللغوي<< عني به ذلك التوازن الذي ينتج بين قوتين متدافعتين، ميل المتكلم بطبعه إلى الاقتصاد في تأديته العفوية لكلامه واحتياج المخاطب إلى البيان أي: أن يكون الخطاب الموّجه إليه واضحا ويحصل التوازن حين يكون مردود الكلام مساويا للمجهود الفزيولوجي المبذول لتحقيقه>>[22].

وحتى نعرف كيف ينطبق هذا المبدأ (الاقتصاد) على اللغة العربية يرى الحاج صالح أنّه لا بد من الرجوع إلى ما قاله علماؤنا في شأن الأصوات والحروف، وتنافرها ثم الاعتماد على التجارب العلمية في المخابر الصوتية الحديثة.

و يرى ابن عزوز زبدة أن مفهوم الاقتصاد اللغوي هو<< ألا يبذل المتكلم مجهودا عضليا أو ذهنيا يزيد على كمية الفائدة التي من أجلها تصاغ المادة الأصلية حتى يتحقق التوازن بين المجهود والمردود>>[23]، فالمرسلة اللغوية ينبغي أن تكون وفق ما يتطلبه الموقف فلا تزيد عليه فيكون إسرافا، ولا تنقص فتحدث إخلالا بالمعنى المراد توصيله .

و يرى عبد السلام المسدي:<< أنّ اللّغة قائمة على أساس ما يعرف بقانون الاقتصاد الأدائي، وهو الذي يدفع بكل مستعمل للسان الطبيعي إلى أن يركِّب كلامه بما يسمح له بإبلاغ أكبر كمِّية ممكنة من المعلومات بأقل ما يمكن من المجهود الأدائي في استخدام جهاز التصويت، وبناء على هذا القانون تحدد استعمال الإنسان للغة بما يعرف بنزعة المجهود الأدنى، وتأتي سلطة العلامة من حيث هي تجسم الشكل الأوفى للضغط على عامل الزمن باستثمار المجهود الأدنى في تحقيق المردود الأقصى >> ([24]).

(2007م)، ص68.

[3] – الندوة الدولية حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية، اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات، عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، (2001م)، الجزائر، أيام (10-12 شعبان 1421هـ الموافق لـ 8/6 نوفمبر 2000م)، ص:.31،30

[1]– ينظر: دراسة المشتقات العربية وآثارها البلاغية في المعلقات العشر الجاهلية – دراسة إفرادية تحليلية – ابن عزوز زبدة ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1989م)، ص: 36.

قال أبو العباس الناشئ الأكبر وهو أديب وشاعر معتزلي (ت293هـ) في شرح معنى القصد:

القصد شيء كلّ ما دونه *** نقص وما جاوره فضلُ

وكلُّ ضدين رأيناهما *** جوراً وما بينهما عدْلُ

(البصائر والذخائر : للتوحيدي،2/ 268.)

[2]– ما وراء اللغة - بحث في الخلفيات المعرفية ، د/ عبد السلام المسدي ، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع ، تونس ص 54، .55

فمن خلال هذه التعاريف مجتمعة، يتضح أنّ مفهوم الاقتصاد في اللغة هو ما تساوت ألفاظه مع معانيه، من غير زيادة ولا نقصان، وهدفه هو توفير الجهد لوقت لاحق، فإذا كانت بحوزتنا سبع معان فإننا بحاجة إلى سبع ألفاظ أو أقل، وهذا ما يسمى في البلاغة العربية "بالمساواة وإيجاز التقدير" [25].

والمتمعن في هذه التعاريف يجدها مستوحاة من المعنى اللغوي للفظة القصد، جاء في لسان العرب لابن منظور: <<القصد في الشيء خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير، والقصد في المعيشة ألا يسرف ولا يقتر...>>[26].

وللاقتصاد دور في تنظيم السلوك اللغوي للمرسل أو للمخاطب، بحيث أن ما نوفّره من طاقة وجهد في مكان معيَّن نستغله في زمن آخر، وذلك لأنّ <<اللغة الإنسانية في كل لحظة من الزمن لا توفر إلا الطاقة التعبيرية اللازمة للوفاء بالاحتياجات الاتصالية لجماعتها اللغوية>>[27].

المصطلحات العربية المرادفة لمفهوم الاقتصاد اللغوي: من خلال التعريفات السابقة لمفهوم الاقتصاد اللغوي نجده يحمل نفس المعنى مع البلاغة وإيجاز التقدير والمساواة، فالبلاغة هي:<< الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل>>(2)، فإذا أوجز المتكلم ولم يكن ذلك عن عجز منه، وأطنب في موضع آخر ولم يزد عن المطلوب، فهو بليغ مادام أنه بلّغ رسالته وجارى بكلامه المقامات، وسُئل بعض البلغاء ما البلاغة ؟ فقال: معانٍ كثيرة في ألفاظ قليلة >>([3])، وإيجاز التقدير:"هو ما ساوى لفظه معناه " [4].

ومن الأمثلة التي ساقها ابن الأثير حول هذا الضرب من الأساليب قول علي بن جبلة :

وَمَا لِامْرِىءٍ حَاوَلْتُهُ عَنْكَ مَهْرَبُ **** وَلَو حَمَلْتُهُ فِي السّمَاءِ المِطَالِع

بَلَى هَارِبُ مَا يَهْتَدِي لِمَكَانِه ظَلَامُ **** وَلَا ضَوءُ فِي الصَّبْحِ سَاطِع

---

[3] – الإمام القزويني في إيضاح البلاغة، يسمى الأسلوب الذي تساوت ألفاظه مع معانيه بالمساواة، ص: 281، وابن الأثير في المثل السائر يسميه بإيجاز التقدير.

4– لسان العرب ، ابن منظور، دار صادر بيروت، ط1، (2000م)، ج12، مادة: قصد، ص: .113

1– اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة، طبعة: (2000م)، ص: 279.

2– الصناعتين الكتابة والشعر، أبو هلال العسكري، تح: محمد علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت لبنان،ط: (1406هـ/ 1986م)، ص: 190.

3– العمدة ، ابن رشيق القيرواني ، ص203 .

4– المثل السائر ،ابن الأثير ،ج2 ،ص:74.

[5]– خزانة الأدب،مج2، ص:491، وصبح الأعشى في صناعة الانشا، ج2، ص: 361.

[6]– سورة الرحمن، الآية: 72.

فهذا الكلام ألفاظه مساوية لمعانيه، و قد اشتمل على مدح رجل بشمول ملكه وعموم سلطانه، وأنه لا مهرب عنه لمن يحاوله وإن صعد السماء، ثم ذكر جميع المهارب في المشارق والمغارب، وأشار إلى أنه يبلغ الظلام والضياء، وذلك ما لم تزد عبارته عن المعنى المندرج تحته ولا قصرت عنه، **والمساواة**:<< هي أن يكون اللفظ مساويا للمعنى بحيث لا يزيد عليه ولا ينقص عنه بحذف أو اختصار، وهذا من البلاغة التي وصف بها الوصّاف بعض البلغاء فقال: كأنّ ألفاظه قوالب لمعانيه>>[5]، ومعظم آيات الكتاب العزيز كذلك. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى مخبرا عن نساء الجنة: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الخِيَام ﴾[6].

وقول زهير بن أبي سلمى[28]:

وَمَهْمَا تَكُنْ لِامْرِئٍ مِنْ خَلِيْقَةٍ *** وَإِنْ ۘخَالَهَا تُخْفَى عَلَى النّاسِ تُعْلَمِ

وقول طرفة بن العبد[29]:

سَتُبْدِي لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *** وِيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَا لَمْ تُزَوّدِ

فهذا الشعر لا يزيد لفظه على معناه ، ولا معناه على لفظه .

فمن خلال هذه التعاريف والأمثلة لإيجاز التقدير والمساواة يتضح أنّ مفهوم الاقتصاد اللغوي كان موجودا في البلاغة العربية بالأسماء المذكورة سابقا، إلا أنه لم يكن متداولا وما يبيّن ذلك هو أننا لم نعثر في كتب البلاغة العربية على هذا المصطلح إلا عند فئة قليلة من العلماء أمثال ابن الأثير الجزري في "المثل السائر"، ويحي بن حمزة العلوي في كتابه "الطراز" والجاحظ في" البيان والتبيين".

وعدم تداوله لا يدل على أنه لم يكن معروفا، بل كان حاضرا في أذهان علماء العربية<< وكان العربي في التواصل والخطاب على وعي للمرامي الاقتصادية ينزع إليها ويدرك وظائفها الواقعية وخدمتها لتخفيف الجهد والمعاناة لاسيما التراكيب التي يكثر استعمالها في التعبير>>[30].

وكثيرا ما كانوا يرددون عبارة خير الكلام ما قلّ ودلّ ولم يمل، والمتمعن في البلاغة العربية يجد وبشكل واضح ما يبين سبل الاتصال، وما يحث على الاقتصاد في اللغة قدر الإمكان، وهو ما يدل على فكر ثاقب ووعي تام بأحوال الكلام وظروف الاتصال ويتضح ذلك جيدا من صحيفة بشر بن المعتمر لما مرّ بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب، وهو يعلّم فتيانهم الخطابة فقال:<< فكن في ثلاث منازل فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا، وفخما سهلا، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا، إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإمّا عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون

---

[28]- شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري تحقيق، فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 28.

[29]- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: (1987م)، ص: 29.

[30]- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، (2001م)، ص: 40.

من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من مقال>>[31].

يمثل هذا النص التفاتة طيبة من بشر، وصيحة فريدة من نوعها في تاريخ البلاغة العربية تُنم عن وعي تام وإدراك عميق منه بالاتصال وظروفه وأطرافه، فبعد أن بيّن ما يجب أن يكون عليه اللفظ من رشاقة وعذوبة وفخامة، وكيف يكون المعنى واضحا معروفا والطريق الذي يسلكه المرسل في حال اختلاف الظروف بين الخاصة والعامة، بيّن أن المعنى لا يكتب له الشرف باعتباره من معاني الخاصة، ولا يكون وضيعا إذا كان من معاني العامة، وإنما مدار الشرف، الذي تقوم من أجله العملية التواصلية هو صواب الخطاب وإفادته للسامعين، وموافقته للحال، وإعطاء كل مقام ما يناسبه من مقال.

والكلام إذا كان صوابا ونافعا مناسبا للظرف الذي هو فيه أدى مقصوده بأقل ما يكون من جهد، والمقام هو المؤشر أي هو من يحدد كيفية المقال، فمن المقامات ما يحتاج إلى إشارة ومنه ما نكتفي فيه بالجملة والجملتين، ومنه ما هو دون ذلك أو أكثر.

وتكييف المقال بحسب المقام هو الاقتصاد بعينه، وهل للاقتصاد معنى غير الترتيب والتنظيم الجيد للمصاريف وفق الظروف، وإعطاء كل مقام حقه من المقال دون زيادة أو نقصان.

الاقتصاد اللغوي عند الغرب:

يرى جورج مونان أنّ مفهوم الاقتصاد<< لا يمكن أن نقصره على معنى الاختصار فكلمة اقتصاد تشمل كل شيء: إلغاء الفروق غير المفيدة، ظهور فروق جديدة ،والمحافظة على الأمر الواقع، والاقتصاد اللغوي هو مجموع القوى الحاضرة>>[32].

كما يرى فلوريال كولماس[*] أنّ:<<علم الاقتصاد هو البحث عن مؤشرات أمثلية الكفاءة لعلاقات الوسائل– الغايات في أداء المهام"[1].

ومبدأ الاقتصاد<< هو في الحقيقة تطبيق لقانون الجهد الأقل، ففي تطور واستعمال اللغة بحث دائم في التوازن بين الاحتياجات الشرطية والاحتياجات التواصلية من جهة، والتذكر الذهني والجهد العضلي من جهة أخرى>>[2].

---

[31]– البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 135، 136.

[32]– علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة: د/ نجيب غزاوي، سلسلة الكتب العلمية، مطابع مؤسسة الوحدة (1982م) ص: 169.

[*]– فلوريال كولماس أستاذ علم اللغة العام بجامعة دوسل دورف، وعمل أستاذا لعلم اللغة التطبيقي بجامعة تشو بطوكيو، وأستاذا زائرا لعلم اللغة بجامعة جورج تاون، من مؤلفاته المهمة موسوعة أنظمة الكتابة.

وأشمل محاولة لشرح الاقتصاد الذاتي للغة ولربطه بالنظرية العامة للسلوك الإنساني هي كتاب زيف (السلوك الإنساني ومبدأ الجهد الأقل)، إذ يرى كل من "زيف ومارتيني"

<< أنّ كل سلوك صحيح للفرد يحكمه مبدأ الجهد الأقل بسبب ميل الطبيعة البشرية إلى الكسل والبلادة>>[3].

وما يجب أن نذكر به في هذا المقام أن صاحب فكرة الجهد الأقل هو"زيف" في كتابه المذكور، ثم اقتفى أثره أندري مارتيني في دراسته الفنولوجية وهما لا يعنيان بمبدأ الجهد الأقل أن المتكلم يبذل أقل جهد ممكن في كل لحظة، وإنما يكون ذلك عل المدى الطويل << أي أن معدل متوسط بذل جهد الشخص طوال الوقت يقلل لحده الأدنى>>[4].

الاقتصاد عند زيف:

ذكر أندري مارتيني أنّ "زيف"يعمل حسابا لبُعد النظر، والقدرة على بذل الجهد الأقل من توفير الجهد لوقت قادم، وهذا مع اعترافه بإمكان الخطأ في التقدير،كأن يتم بذل طاقة وجهد لا يتوازيان مع توفير الطاقة المنتظرة [5].

ومثال ذلك كأن يتم التواصل بين مرسل وآخر وبإمكان هذا الباث أن ينطق بكلمتين فقط في سبيل إفهام الطرف الثاني، إلا أنه يبذل جهدا أكبر فيستخدم أربع كلمات أو أكثر، أو العكس، أي يبذل جهدا أقل من المطلوب.

ووفقا لمبدأ الجهد الأقل يكون لزاما على المرسل النطق والتواصل بالمقدار الذي يفي بالغرض، شريطة أن تكون المرسلة اللغوية واضحة، ومفهومة لدى الطرف الثاني وذلك

---

[1]- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 279.

[2] - Dictionnaire de didactique des langues R/ galisson et D/eost p/174.

[3]- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 323.

[4]- ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 155، واللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 295.

5- ينظر : مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 155.

<<لأننا عندما نتحدث بغرض التفهيم فإننا لا نبذل جهدا إلا بالقدر الذي يبدو فيه أن ما نقوله قد وصل>>[33].

---

[33]- مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 155.

ومع اعتراف زيف بالخطأ في التقدير أثناء العملية التواصلية، إلا أنه يرى أن مبدأ الجهد الأقل مبدأ فعال في عملية التطور التكييفي.

التطور التكييفي:

يرى فلوريال كولماس أنّ التطور التكييفي هو مصطلح استعمله "زيف"، ويعني به <<تكييف وتطوير وتحسين أدائية الوسائل بحيث تنسجم مع الأهداف المتوخاة، وذلك بتسهيل الوصول إليها (الأهداف) بطريقة تقلل الجهد اللازم للتعامل معها>>[34].

ولتوضيح هذا المبدأ الفعال في العملية التواصلية، والذي يمثل مظهرا من مظاهر الجهد الأقل يشير "زيف" إلى المثال المحسوس للأدوات على طاولة النجار، فالعمل بالأدوات لا يتطلب استعمالها فقط، بل صيانتها أيضا، والتعديل فيها بالنسبة لكل نجار معين وبالنسبة للنجارة كحرفة، ومبدأ الجهد الأقل ستكون له نتيجة مؤداها:أ- أن الأداة الأكثر استعمالا هي من ستكون عرضة للتغييرات، والتعديلات أكثر في شكلها العام حتى تصبح أصغر وأخف وأسهل استعمالا، ومنه نقلل من الجهد الذي كنا نبذله سابقا مع الحفاظ على نفس الوظيفة التي كانت تؤديها قبل أن يطرأ عليها التعديل والتحسين.

والهدف الثاني: هو أن هذه الوسيلة ستكون أقرب الأدوات إلى يد النجار، لأن المسافة من يد النجار ترتبط ارتباطا عكسيا بتكرار الأدوات على حسب الحاجة، فالأداة التي يقل استعمالها يكون مكانها أبعد من الأداة الكثيرة الاستعمال بالنسبة إلى يده.

وهنا يظهر أن النجار سيميل بشكل كبير إلى استعمال تلك الأداة التي تكون أقرب إليه ما دام جهد الوصول إليها هو الجزء المستهلك من طاقة مجمل جهد الاستعمال[35].

واستعمال أدوات مختلفة، ومتعددة وفقا لمبدأ الجهد الأقل يراعي الجهد المبذول عند استخدام أداة معينة.

فتحريكها من مكانها على طاولة العمل إلى يد النجار، وإرجاعها إلى مكانها يستغرق وقتا، ويحتاج إلى جهد يتوافق ووزنها، فالجهد (ج) إذن يساوي حاصل كتلة (ك) الأداة مضروبا في المسافة بين مكان الأداة على الطاولة ويد النجار (م)، وعليه يكون: ج = ك×م.

إضافة إلى هذا معدل تكرار استعمال كل أداة (ت) في فترة زمنية محددة (ز)، ومنه فإن مجمل جهد استعمال هذه الأداة لتلك المدة الزمنية (ج ز) يكون مساويا لحاصل (ت) و(ك) و(م) الخاصة بها.

وهذا ما يسميه "زيف" "**بمعادلة الترتيب الصغرى**" أي ج ز = ت×ك×م

---

[34]- ينظر: اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 296.

[35]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 296.

ولتحقيق مبدأ الجهد الأقل؛ فإن مجموع حواصل:

ت×ك×م لكل واحدة (ع) عدد الأدوات، يجب أن يقلل إلى الحد الأدنى.

أما فيما يخص اقتصاد (ت) تكرار الاستعمال، فالأداة المستعملة بنسبة تكرار أعلى يمكن أن تعدل بحيث تقوم بوظائف لأدوات ووسائل أخرى.

وهذه العلاقة هي ما يسميها "زيف" بـ "**قانون الاختزال**"[36] الذي يعني به أنّ" (ك) و(م) و(ج) يرتبط بعضها ببعض إيجابا، وترتبط سلبا بـ: (ت) تكرار؛ أي: إنه حين ترتب الأدوات على الطاولة تزيد كتلة الأدوات وحجمها، ومسافتها من يد العامل مع تناقض معدّل استعمالها.

وهناك نتيجة أخرى لتطبيق مبدأ الجهد الأقل على العمل بالأدوات، يسميها زيف بـ: "**قانون تناقص غلة الأدوات**"(2): وهو ما يتعلق بالعدد الإجمالي للأدوات فوق الطاولة ،وبما أنّ عدد الأدوات يرتبط بالمسافة، فإنّ كلّ أداة إضافية ستدفع بالأداة الأبعد بعيدًا رغم أنّها (أي الأداة الجديدة) لها وظائف مفيدة إلا أنها تؤثر سلبا في اقتصاد عمل الورشة.

ولتحقيق اقتصاد العمل ينبغي التقليل من عدد الوسائل، وذلك بزيادة وظيفة الأدوات بحيث تقوم أداة متخصصة بوظائف أدوات أخرى.

وهو ما يطلق عليه: "**التبديل الاقتصادي للأدوات**"(1) وهو يرتبط بالمسافة التي تعني أن الأدوات القريبة من يد النجار يتبدل كثيرا، بحيث تميل إلى الخفة، ويكون ذلك بتصغير حجمها، وضم وظائف الأدوات الأبعد إليها.

ومثاله في اللغة زيادة حرف أو حركة ،أو تغيير الحركات للصيغ اللغوية نحصل على معاني جديدة كزيادة "حرف واحد أو أكثر على لفظ تحوّل صيغته إلى نمط جديد وتضيف إليه معنى يمثل ذلك النمط، فإذا هو يتضمن معاني مركبة تغني عن ألفاظ أو تراكيب في اللغات الأعجمية، فتضعيف العين في" فعّل "يكثر استعمالها في ثمانية معان منها(2): التعدية مثل :نوّمته قعّدته أو التكثير مثل: طوّف أي أكثر الطواف، وقد تفيد التوجّه مثل: غرّب وشرّق أي توجه غربا أو شرقا، أو الإزالة نحو: قشّرت الفاكهة، أي أزلت قشرتها ،وقد تفيد اختصار الحكاية مثل : هلّل وسبّح ولبّى ،

و إذا أضفت للفعل الثلاثي " فَعَلَ " همزة في أوله فإنه سيحمل عدة دلالات (3)

---

[36]- ينظر: اللغة والاقتصاد، ص: 296، 297.

2- ينظر : المرجع نفسه ، ص 297.

منها التعدية مثل: نزل وخرج، يصبح متعدياً إلى مفعول أنزل الله المطر، أخرج الماء ... ويدلّ على الدخول في الزمان أو المكان مثل: أصبح (دخل في الصباح) و أشتى (دخل في الشتاء) وأربع (دخل الربيع)، وأعرق (دخل العراق) وأشأم (دخل الشام)، وقد يدلّ على التعريض نحو : أرهنت المتاع وأبعته ، أي عرّضته للرهن وللبيع ،و قد يدل كذلك على التعبير عن السلب والإزالة نحو: أشكيت الرجل أي أزلت شكواه

و أعجمت الكتاب : أزلت عجمته ،كما قد يدل على استحقاق الشيء لشيء آخر نحو قولنا: أحصدّ الزرع أي استحق الحصا، و أزوجت الفتاة أي :استحقت الزواج ،كما نعبِّر بها عن الصيرورة مثل:أثمر الشجر، صار ذا ثمر ،و أخمس العدد صار خمسة .

ونعبر بها عن الكثرة فنقول: أشجر المكان إذا صار ذا شجر كثير، وأسبع المكان إذا كثرت سباعه، وعليه تكون الهمزة الأداة المفضلة لأنها تقوم بوظائف أدوات أخرى.

1- ينظر: اللغة والاقتصاد، ص: 298 .

2- شذا العرف في فن الصرف ، أحمد الحملاوي ، ص .50

3- شذا العرف في فن الصرف ، أحمد الحملاوي ص48.

و إذا جعلت الفعل على صيغة "تفاعل" فقد تكسبه معنى المشاركة، أي: أنّ الفعل وقع من طرفين متقابلين، وذلك قولك: تجادل وتقابل وتواعد وترامى.

أما إذا صار على وزن: استفعل، فهو يكتسب معنى الطلب أو التحوّل أو المطاوعة أو المبالغة مثل: استفهم، استحجر، استقام، واستقرّ [37].

---

[37]- الاقتصاد اللغوي، فخر الدين قباوة ص: 93.

وإذا غـيّرت حركـة الفعـل: صـنعتَ، صـنعتُ مـن الفتحـة إلى الضـمة إلى الكسـرة، فـالمعنى يتغير فيدّل في الأول على المخاطب والثاني على المتكلم، وبالكسر على المؤنثة المخاطبة.

وهـذا بطبيعـة الحـال أمـر نسـبي، أي أنـه ليسـت كـل الأدوات سـتقبل التبـديل والتغيـير مـع بقـاء حجمهـا صـغيرا، وإذا مـا تمّ ذلـك، أي تبـديل الأدوات وزيـادة وظائفهـا فـإنّ ذلـك يعـني أنّـه مـن الممكـن الإبقـاء علـى أداة واحـدة في الورشـة متعـددة الخدمات والوظائف، وبالمقابل فإنّه من غير المرجح أنّه من أجل الإبقاء على (ع) قليلا ؛ فإن عدد وتركيب وتبديلات أداة معينة، يمكن زيادتها بشكل غير محدود، وهذان الجانبان أي: عدد الوظائف التي يمكن أن تقوم بها أداة معينة، والتبديلات التي تدخل فيها مع أدوات أخرى للقيام بوظائف إضافية، هو ما يسمى بـ: "**الحمل الوظيفي للأداة**" (*).

وقانون الجهد الأقلّ يفرض على كل أداة ألا تقوم بوظائف متعددة من أجل الزيادة في مجمل الجهد العام، الذي يبذل في ورشة العمل.

فإذا ما حصل أن أدّت أداة متعددة الوظائف إلى الزيادة في الجهد العام فإن النجّار سيضطر إلى استعمال أداة جديدة لوظيفة معينة، لأنّ ذلك يكلّفه أقلّ من إعادة تصميم وسيلة هي موجودة وتستهلك طاقة أكبر [38].

ومبدأ الجهد الأقل في حالات كهذه يقتضي أن يوازن بين الميل إلى التقليل من عدد الأدوات، وضرورة الحفاظ على الحمل الوظيفي لكل أداة مستعملة، فأيهم يُقلل من الجهد العام المبذول خلال العمل، سيكون هو المطلوب والمفضّل.

وما يقابل "مبدأ الحمل الوظيفي للأداة" في اللغة هو تلك الألفاظ والعبارات الخفيفة النطق والتي تحمل دلالات كثيرة ومتنوعة مثل<< ما يشتق من الأسماء يتضمن تعبيرا مركبا يغني عن عدة ألفاظ، أو عن توليد لفظ آخر، فاسم الفاعل تجد في مضمونه الدلالة على إنسان يقوم بوظيفة العلم، ومبالغة اسم الفاعل: عليم تعطيك صفة من تناهى في مراتب الإحاطة بالعلوم، واسم المفعول: معلوم يتضمن معاني الشيء الذي جرى فيه العلم، واسم التفضيل، "أعلم" يدل على من هو أكثر علما من غيره، وصيغة: مَعْلَمُ، تقدم لك المكان والزمان الذي يكون فيه العلم >>[39].

---

* – الحمل الوظيفي للأداة: هو مجموع الأعمال والوظائف التي يمكن الأداة تقديمها.

38 – ينظر: اللغة والاقتصاد، ص: 299.

39 – الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، ص: 92.

وهذا شائع منتشر في الأنماط الصرفية العربية، وكذلك المشترك اللفظي الذي تكون فيه الكلمة أو العبارة تحمل عدة دلالات، فالعين هي حاسة البصر، وهي مورد الماء الجاري للشرب وهي ذات الشخص ؛ في قولنا جاء فلان بعينه أي حضر بذاته، فهذه المفردة واحدة نستطيع أن نوظفها في مقاصد متعددة، والسياق هو المبين لمعناها في كل حال.

كما أننا نجد بعض الأدوات تحمل أكثر من معنى<< فالهمزة قد تكون للاستفهام مع الإنكار التوبيخي نحو: أتظن الناس أغبياء؟ وتَرِد لتسوية بين أمرين وذلك بعد كلمة "سواء" أو"سيان">> نحو قوله تعالى:﴿ سَواءٌ عَلَيهِم أَأَنْذَرْتَهُم أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُم لَا يُؤْمِنُون﴾ [40]، وتَرِد لنداء القريب نحو:" أخالد أسرع" وتكون أي للنداء مثل: أي محمد اجتهد وتستخدم لتفسير المفردات والجمل مثل: شاهدت هيثما أي: أسدا، وتكون للاستفهام مثل: أيُّ كتابِ أمَامَكَ؟.

كما توظّف أيّان وأين للاستفهام والشرط، والفاء ترد للترتيب والتعقيب والسببية كقولك: لا تظلم فتظلم، وإذا ترد للفجأة نحو: خرجت فإذا المطر ينزل، وتدل على الشرط الظرفي الزماني المتوقع في المستقبل كالذي في قولنا: إذا عُرف السبب بطل العجب"[41].

فهذه الوظائف الصرفية للصيغة الواحدة تخفّف من الجهد العام أثناء العملية التواصلية وهي تبيِّن الاستغناء عن الكثير من المواد والأشكال لما تضمه من معاني لغوية، فهي شبيهة << بالجهاز الضخم الذي يضم في جنباته، مذياعا وتلفازا ومسجلة وساعة، ومحددا لليوم والتاريخ والحرارة والضغط والاتجاه>>[42].

وما يكمّل نظرية "زيف" هنا هو أندريه مارتيني الذي اقتفى أثره في نظريته الوظيفية حيث يرى فيها أنّ التطور اللساني<< محكوم بالتناقص الدائم بين الحاجات التبليغية للإنسان وميله إلى تقليص نشاطه الذهني والجسدي للحد الأدنى>>[43].

مارتيني والاقتصاد اللغوي:

في ظل الصراع القائم بين حاجات التواصل التي تميل إلى الحركة والتطور، هناك نزعة عند الإنسان ترغب في التقليل من نشاطه العقلي والفيزيائي، وإذا كان هذا الاختلاف حاصلا بين الحركة والسكون كيف يمكن التوفيق بينهما؟

---

[40]- سورة البقرة: الآية: 6.

[41]- ينظر: معجم الإعراب، إميل بديع يعقوب، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان، بدون طبعة، ص: 8، 75 والاقتصاد اللغوي، ص: 94.

[42]- الاقتصاد الغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، ص: 99.

[43]- مبادئ في للسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 51.

وللجواب عن هذا السؤال يقول مارتيني(*):<<وفي هذا المجال يخضع سلوك الإنسان إلى قانون أضعف الجهد الذي لا يجهد الفرد نفسه وفقه إلا بالقدر الذي يمكن أن يبلغ فيه الأهداف التي ارتسمها لنفسه>>[44].

ولكي يتحقق الاقتصاد في لغة التواصل حسب رأيه يجب<< تقليص كل تمييز غير مفيد>> [45]، لأن عملية التكلم والنطق ليست بالسهولة التي يعتقدها البعض، فمتكلم أي لغة وفي مطلق الأحوال عند قيامه بالتلفظ فإنه يبذل جهدا معينا إلا أن هذا الأخير يبدو لصاحبه غير ذي بال، أي وكأنه لم يبذل شيئا، ولكي يظهر مقدار هذا المجهود وقيمته أثناء عملية تواصل ما نكتفي بالإشارة إلى مدى الصعوبة التي يعانيها الإنسان في النطق عندما يكون متعبا جدا، وهذا ما يكشف حتى لأكثر الناس ثرثرة أن اختيار اللفظ الصحيح والمناسب يضاعف الإحساس بالتعب بكيفية جد ملحوظة[46].

وهناك مفهوم آخر عند مارتيني له أهمية في اللغة واقتصادها، وهو ما يسميه بالتقطيع المزدوج double artuculation .

أثر التقطيع المزدوج في اقتصاد اللغة:

يعتبر مارتيني أن وظيفة اللغة الأساسية هي التواصل في إطار المجتمع الذي تنتمي إليه وهذه الوظيفة خاصة بمختلف اللغات البشرية على اختلافها بالرغم من تباينها في البنى والتراكيب.

واللغة مؤسسة إنسانية واقتصادية، وهي الوسيلة التي تتيح للإنسان بصورة أساسية القيام بعملية التواصل بينه وبين أفراد مجتمعه، كما أن التقطيع المزدوج يوجد في جميع اللغات البشرية باعتباره التقطيع الذي يتفق وحاجات الإنسان، وهو ينقسم إلى مستويين: تقطيع أولي، وتقطيع ثانوي.

1-التقطيع الأول للغة:

(*)- ولد مارتيني سنة (1908م) في مقاطعة السافو في فرنسا، تخصّص في اللغة الألمانية، شغل منصب مدير الدراسات الألسنية في معهد الدروس العليا في باريس كما درّس بصفة أستاذ في السوربون منذ سنة (1960م)، شارك في أعمال (نادي براغ الألسني) قبل أن يدرّس في جامعة الدانمارك وبعدها في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة وهو منذ سنة 1948 أحد مديري المجلة الألسنية الينوركية (الكلمة) وله مؤلفات عديدة في علم الفونولوجيا وفي الألسنية العامة، الألسنية (علم اللغة الحديث المبادئ والأعلام) ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط: 02، (1983م/1403ه) ، ص: 252.

[44]- ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، مارتيني، ص: 154.

[45]- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ص: 155.

[46]- ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 151.

هو الذي يقوم على أن كل ظاهرة من ظواهر التجربة البشرية نريد تبليغها أو كل حاجة من حوائجنا نوّد تعريف غيرنا بها تحلل إلى متوالية من الوحدات لكل منها صورة صوتية ومعنى [47].

فلو أن إنسانا شهد بالكذب نقول: هذه شهادة زور، فكل وحدة من هذه الوحدات يمكنها أن توجد في سياق آخر مغاير لتبليغ ظواهر أخرى من التجربة البشرية

<< فالشهادة: خبر قطع، وأشهد بكذا: أي أحلف، والمشاهدة: المعاينة، وشهد الحادث: حضره واستشهده: سأله أن يشهد، والشهيد: القتيل في سبيل الله، والشهد: العسل>>[48].

نفهم من هذا أن الألفاظ تنتمي إلى قائمة مفتوحة من السياقات، فاللفظ واحد لكن يتغير معناه إذا ما وضعناه في سياق آخر، وأضفنا له حرفا أو غيّرنا حركاته.

وهذا التقطيع يعطينا زيادة في الاقتصاد، وذلك لأنه يجعل صيغة الدال مستقلة عن قيمة المدلول المقابل له، مما يوفر للصيغة اللغوية قدرا أكبر من الاستقرار، كما أن آلاف الوحدات مثل كلمات: شهد، والزور<< قابلة لسعة التأليف فباستخدامها في سياقات مختلفة نتمكن من تبليغ عدد من المعاني أكبر مما تمكننا منه ملايين الصرخات المختلفة وغير القابلة للتقطيع>> [49].

أما التقطيع الثاني:

ففيه يمكن للوحدات أن تنقطع بدورها في مستوى ثان إلى سلسلة من الوحدات الدنيا[*] المتتابعة والمجردة من كل دلالة، إلا أنها مميزة وتسمى هذه الوحدات بـ:

. Les phonèmes

فلو أتينا بهذه الصورة الصوتية: رأس مثلا هي قابلة للتحليل إلى متوالية من الوحدات ر/،/ أ /، /س، وتساهم كل وحد في تمييز رأس عن وحدات أخرى ك: فاس، ناس ساس...الخ.

ويكمن الاقتصاد اللغوي في التقطيع الثاني في أنه يمكن للألسن أن تكتفي ببضع عشرات من إنتاجات صوتية متميزة ' نؤلّف بينها في علاقات تركيبية syntagmatique لنحصل على صور صوتية لوحدات التقطيع الأول كما أنه بإمكاننا توظيفها في علاقات استبدالية paradigmatique .

---

[47]- مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 18.

[48]- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت666هـ) مادة شهد، ص: 311.

[49]- مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 18.

[*]- وحدة دنيا = حرف.

لأنه<< لو اعتمدت اللغة صوتا لغويا خاصا بكل وحدة صوتية ذات دلالة معينة لوجب عليها احتواء آلاف الأصوات المتمايزة ؛وهذا ما لا يتوافق لا مع القدرات النطقية ولا مع حاسة السمع للكائنات البشرية>>[51].

وجدير بالذكر أن هذه الخاصية التي يسميها مارتيني بالتقطيع المزدوج خاصة بالكلام البشري دون غيره من لغات الكائنات الحية، كما يشير أيضا إلى أن هذه الميزة قد فرضت نفسها على المجموعات البشرية كونها تتوافق وحاجات الإنسان وإمكاناته.

ولولا الاقتصاد اللغوي الذي يُوفّر لنا التقطيعين لما كان بالإمكان الحصول على أداة للتفاهم قابلة للاستعمال العام، وقادرة على إيصال قدر كبير من المعلومات.

كما يرى مارتيني أنّ مبدأ الاقتصاد اللغوي يتم على مستوى التقطيع الثاني بشكل أكثر وضوحا الاقتصاد اللغوي يتم أكثر وضوحا، إذ يقول:<< الميزة الواضحة للبناء الثاني هي الاقتصاد>>[52].

فمن خلال كل هذا يبدو حقيقة أن مبدأ التقطيع المزدوج هو مبد اقتصادي بحيث يجعل العملية التواصلية تتم بواسطة عدد محدود من الفونيمات، والمونيمات، والتي تتحدد فيما بينها مشكلة لنا عددا لا نهائيا من العبارات والجمل.

وهذا ما تحدث عنه ابن جني قبل قرون، إلا أنه لم يستخدم هذه المصطلحات اللسانية الحديثة، وإنما أشار إلى أنه يمكن الحصول على عدد كبير من الكلمات عن طريق التقليبات الستة لحروف الكلمة الواحدة مثل الفعل: لَكَمَ بتقليب أصوله نحصل على :(ك ل م)، (ك م ل)،(ل ك م) (م ك ل) ، (م ل ك) ([53]) .

علاقة الاقتصاد باللغة:

من خلال التقطيع المزدوج للغة بشقيه الأول والثاني يمكن القول أن مبدأ الاقتصاد << يقوم في بنية اللغة على أساس العلاقة بين بنية اللغة (وهي عبارة عن وحدات محدودة) ووظيفة اللغة (وهي مجال واسع لا حدود له والمراد به التعبير عمّا تتطلّبه حياة البشر من تجارب وحاجات متجددة لا حصر لها) من جانب ثان >> [54]، وهو ما يمكن تمثيله بالمخطط التالي:

---

[51]– مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 19.

[52] - اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 308.

[53] - الخصائص ، ابن جني ، ج1 ،14 .

[54]– مبادئ في اللسانيات البنيوية– دراسة تحليلية ابستمولوجية، الطيب دبه، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين، ص: 108.

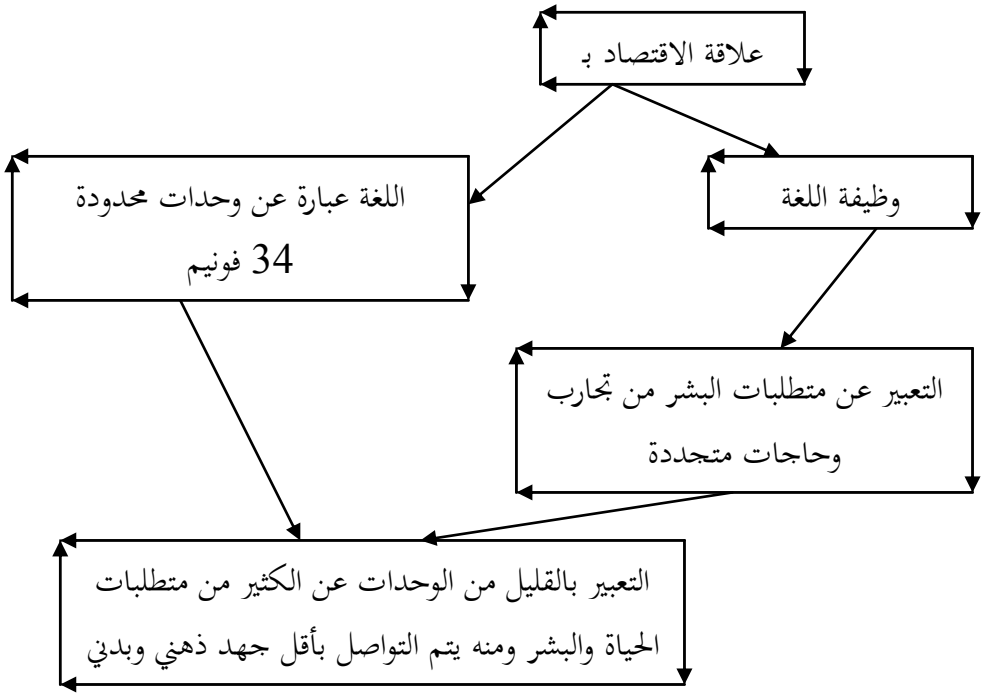

نماذج من الاقتصاد اللغوي:

يعتقد أولمان كولماس أن ظاهرة الاقتصاد اللغوي لم تحظ بالاهتمام والتقدير إلا بنسبة قليلة جدا، ومع ذلك فقد عرض نماذج لأنواع منه فميز بين ثلاثة منها: [55].

1- الميل إلى استخدام الوسائل اللغوية باقتصاد:

والمقصود بالوسائل اللغوية كل وحدة من وحدات اللغة سواء كان حرفا أو كلمة أو جملة أو غيرها، وبالتالي التقليل من الجهد الجسدي والذهني اللازمين لإنتاج الكلام

ويدخل في هذا النطاق أيضا تطوير وضبط تلك النتائج التعبيرية، ومثال ذلك الحذف لبعض الصيغ غير الضرورية، أو المعروفة كأن يسأل سائل: من فعل هذا؟ أو من جاء؟ نجيب مباشرة زيد أو محمد أو... دون أن نعيد الفعل مرة ثانية، أو كأن يسألك سائل أأنت فعلت هذا؟ فتجيب مباشرة بنعم أو لا، دون تكرار الفعل والفاعل.

2- بذل الجهد لتحسين كفاءة الوسائل اللغوية:

---

[55]- اللغة والاقتصاد، ص: 292.

وهذا النوع هو الذي تحدث عنه"زيف" في الحمل الوظيفي للأداة بحيث تخضع للتطوير، والتعديل لتصبح متعددة الخدمات، وفي مجال اللغة الوسائل هي الكفاية والأداء اللغوي، وذلك حتى يتم انتقاء اللفظة المواتية والمناسبة والأقل كلفة، وتنويع الأساليب وفق متطلبات الظروف.

3- الميل نحو إزالة اختلافات الأنماط الاجتماعية:

من أجل الاستجابة بشكل أفضل للاحتياجات الاتصالية، ويقصد به التوسيع الاقتصادي في مجال اللغة الموحّدة، وإلغاء الأساليب والطرق المكلّفة وذلك استجابة لاحتياجات الاتصالات المتعددة والمتنوعة، كالتعبير عن بعض المسميات الطويلة بأسماء مختصرة كأسماء الأدوية أو الشركات أو غيرها، ولاقتصاد اللغة شروط وضوابط متى تحققت في أي عملية تواصلية، فقد تم توفير الجهد في ذلك الوضع لوقت قادم، وهي مرتبطة ببعضها البعض بشكل وثيق ومتلازم.

شروط وضوابط الاقتصاد:

تمثل هذه الضوابط الركيزة الأساسية في أي عملية تواصلية لغوية متى تحققت نقول عن الكلام أو الخطاب قد اقتصد فيه والعكس صحيح، وهذه الضوابط أشار إليها أولمان كولماس في قوله:<< في الممارسة يجب إقامة الموازنة بين توفير الوقت والجهد والحفاظ على الوضوح>> [56].

ومن خلال هذا القول نستخلص ثلاثة شروط لاقتصاد اللغة نتطرق إليها بقليل من الشرح والتفصيل.

1- تقليل الجهد:

ويقصد به الجهد الفيزيولوجي والذهني، بحيث يرسل المرسل خطابه أو حواره، بحيث لا يجهد نفسه كثيرا إلا بالقدر الذي يؤدي به غرضه المطلوب، ويفهم السامع مقصوده و<< في كلّ موقف يجب أن تصاغ أشكال التعبير دون أن تحتوي على أكثر مما يحتاج إليه فهمها من قبل السامع>>[57].

2- توفير الوقت: ومعناه أن الفائدة التي نجنيها من الاقتصاد بالإضافة إلى الجهد الذهني والفيزيولوجي هي ربح الوقت، وذلك لاستعماله في عمل أو وظيفة أخرى لاحقة.

والاقتصاد في التكاليف (المصاريف) فيما يتعلق بالمرسلات البريدية التي تراعي الوقت وعدد الكلمات المشكلة للرسالة.

3- الحفاظ على الوضوح:

---

[56]- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 320.

[57]- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس ، ص: 291.

ففي أي عملية تواصلية ينبغي أن تكون المرسلة اللغوية مفهومة وواضحة لدى المرسل إليه، سواء كان الخطاب شفويا أم كتابيا، وفي حالة ما إذا حصل وأن تعارض الاقتصاد في الخطاب مع وضوح المرسلة وإفهام المخاطب فالأولى الوضوح، والإفهام حتى وإن تطلب الأمر بذل جهد ووقت إضافيين.

الاقتصاد اللغوي وأمن اللبس :

بعد أن بيّنا ضوابط الاقتصاد في العملية التواصلية ينبغي الإجابة عن السؤال التالي: كيف يمكن لنا أن نوصل أفكارنا، أو ما يجول بخواطرنا إلى غيرنا كما هي وبكل وضوح وبأقل جهد وتكلفة؟ مع العلم أن أطراف العملية التواصلية (المرسل، المرسل إليه) يختلف بعضهم عن بعض في الجنس والسن والمستوى الثقافي والاجتماعي والمزاج و...الخ. وللإجابة عن هذا السؤال لابدّ لنا أن نعلم أنَّ هذه القضية التي هي الاقتصاد في الكلام ترتبط بصفة مباشرة بالألفاظ والمعاني وبنظم ونسج الكلام أثناء عملية التواصل، وحتى تنجح العملية التواصلية وفقا لشروط الاقتصاد ينبغي مراعاة ما يلي:

1- أن يكون اللفظ المختار مطابقا للمعنى المقصود:

هذا العنصر له أهميته البالغة في وضوح الرسالة بين الباث والمتلقي لذلك نجد كثيراً من البلاغيين يُنَوِّهون بأهميته، منهم: الجاحظ الذي يرفض كل ما من شأنه أن يُعكِّر صفو الألفاظ في دلالتها على المعاني، وربما يجعل المعنى غامضا، خاصة عند أرباب الفصاحة والبيان حيث يقول:<< وقد يستخِفُّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحقُّ بذلك منها : ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاَّ في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة>>[58].

وكذلك ذِكْر المطر لأنّك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث... والجاري على أفواه العامة غير ذلك لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال [59] .

والمتكلم إذا انتقى الألفاظ والعبارات المناسبة للمعاني كان كلامه بليغاً، والكلام-كما يرى الجاحظ- لا يستحق اسم البلاغة حتى يُسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظُه إلى سمعك أسبَق من معناه إلى قلبك .

---

[58] - البيان والتبيين ، الجاحظ ، ج1، ص:18

[59] - البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 172.

وهذا أرقى ما تسعى إليه أطراف عملية الاتصال، حيث يصير الكلام عذبا زلالا واضحا لا غموض فيه ولا تعقيد، وكأن القائل يرى المعاني وهي في خلده فيصورها كما هي، وبالتالي تؤدي وظيفتها التواصلية على أحسن وجه، زيادة على الحفاوة والإعجاب الذي تلقاه من طرف المستمعين.

وفي هذا يقول "الجاحظ" فيما رواه عن أحد الربانيين في بعض مواعضه:<< أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظا حسنا وأعاره البليغ مخرجا سهلا و... صار في قلبك أحلى ولصدرك أملا، والمعاني إذا اكتسيت الألفاظ الكريمة... تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربت عن حقائق أقدارها>> [60].

والجاحظ في مقولته هذه زاد لحسن اختيار الألفاظ عاملا آخر، وهو سهولة المخرج الذي يعني به عدم اشتمال الكلام على حروف متقاربة المخارج فيصعب نطقها فتمجها الآذان ولا تستصيغها الأفهام.

وحسن اختيار الألفاظ ووضعها في مواضعها اللائقة بها مطلب بلاغي لأنها تفصح عن المعنى إفصاحا، وتبعده عن الغموض لذلك<< يقولون في إصابة عين المعنى بالكلام الموجز فلان يفلّ المحز، ويصيب المفصل[*]>> [62].

ولما تحدث عن جماع البلاغة ذكر في ذلك<< حسن الموقع، العلم والمعرفة بموضع الفرصة، والمعرفة بساعات القول وقلة الحرف بما التبس من المعاني أو غمض، وبما شرد عليك من اللفظ أو تعذَّر ... وإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً من الاستكراه، ومنزّهاً عن الاختلال مصوناً عن التكلُّف صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة >>([63]) .

فكل ما عدَّه الجاحظ هي خصائص فنية مفضية إلى الوضوح في الدلالة.

وكما شدّد على هذه الخصائص الفنية وحبَّذ وجودها في الكلام حذَّر من صفات أخرى مثل التعقّيد فنقل ما جاء في صحيفة بشر بن المعتم<< وإيَّاك و التوعّر فإنَّ التوعّر يُسْلمُك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراد معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإنَّ حق المعنى الشريف اللفظ الشريف>>([64]).

---

[*] – أصاب المفصل: أصابه إصابة محكمة فأبان العضو من العضو، وهذا المثل أخذوه من صفة الجزار الحاذق وجعلوه مثلا للمصيب الموجز.

[61] – المصدر، نفسه، ج1، ص: 67.

[62] – البيان والتبيين ،ج1، ص:47.

[63] – المصدر نفسه ، ص:69.

[64] – المصدر نفسه ،ص: 70.

فالمعاني هي التي تستدعي الألفاظ وحسب الأولى تكون الثانية، وإذا حدث و وجدت << لفظة لم تقع موقعها ولم تَصِر إلى قرارِها وإلى حقِّها من أماكنها المقسومة لها... فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها >>([65])، لأنَّ لكلِّ لفظ مكاناً كما لكل مقام مقالاً.

ودأب اللاحقون على المناداة بوضوح الدلالة في الكلام بخلّوه من استخدام المشترك والتعقيد نذكر منهم ابن رشيق في العمدة، والفخر الرازي في نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز، والسكاكي في مفتاح العلوم.

ومن خصائص كلام العرب أنه يتميز بالعذوبة والبيان والاختصار، قال الرافعي:

<< ومن يتتبع تراكيب هذه اللغة، ويتدبّر أثر الأسباب اللسانية فيها لا يجد كلاما يعدل كلام العرب في العذوبة والبيان، وفي الاختصار ونهج التأليف بين حروف الكلمة الواحدة حتى إنهم يراعون مواضع الحروف مع معانيها فيجعلون الحرف الضعيف فيها والألين و الأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخفى عملاً وصوتاً، ويجعلون الحرف الأقوى والأشد والأظهر و الأجهر لما هو أقوى عملاً وأعظم حِسَّاً>>([66]).

ووصف أعرابي أعرابيا بالإيجاز والإصابة فقال: كان والله يضع الهناء[*]، مواضع النقب[**].

وإصابة عين المعنى باللفظ الوجيز أشبه ما تكون بإصابة الطبيب الداء في المريض واكتشافه للدواء الذي يأتي بالشفاء، كما أن ثمة عامل آخر له أهميته في إصابة عين المعاني، وهو الفروق اللغوية بين المفردة ومرادفاتها.

فهناك من السياقات ما تصلح فيه كلمة دون أخرى لأنه ما دامت المدلولات (المعاني) متنوعة فمن اللازم أن يتنوع الدوال (الألفاظ) تبعا لها، ولا شك أن الأفكار متفاوتة معنى ومدلولا ،عموما وخصوصا، جنسا ونوعا"[(67)].

واللغة العربية تكاد<< تنفرد عن اللغات الحية بميزة جديرة بالتنويه، ربما خفيت زمانا على كثير من الناس شرقيين وغربيين وهذه الميزة تتمثل في وفرة الألفاظ المناسبة لكل الأحوال فالظمأ والصدى والأوام والهيام كلها دالة على العطش، إلا أن كل منها يصور درجة من درجاته>>[(68)].

فالشخص وفقا لهذا الرأي يعطش إذا أحسّ بحاجته إلى الماء، ثم يشتد به العطش فيظمأ ويشتد به الظمأ فيصدى، ثم يشتد به الصدى فيؤوم؛ وبعدها يشتد به الأوام فيهيم.

---

4 – تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي ج1،ص91.

[*] – الهناء: نوع من القطران تطلى به الإبل.

** – النقب: أول ما يبدو من الجرب، البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 67.

[67] – ينظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، ص: 05.

[68] – الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 22.

وهكذا مع مجموعة كبيرة من المفردات كالعشق والغرام والولع والوله والتيم كلها صوّر ودرجات لعاطفة الحب، فالشخص يحب ويغرم ثم يولع ويصيبه الوله والتيم؛ فهذه حالات نفسية تختلف درجاتها من الأولى إلى الثانية إلى...الخ.

ومن هذا المنطلق الذي لا يعترف بوجود ترادف تام، وإنما هناك تفاوت ودرجات لكل فعل أو حدث، وبالتالي نخصص مفردة لكل درجة من هذه الدرجات، حيث تستقل به وتتميز به عن غيرها، ومنه تكون لهذه الخاصية اللغوية قيمتها التعبيرية الدقيقة في تمثيل وترجمة المعاني، بحيث يغنينا اللفظ الواحد عن عبارة مطولة نحدّد بها المعنى المقصود.

وتجعلنا نقول للمشرف على الموت إنه هائم، فعند سماع لفظة هائم يتبادر إلى ذهن كل عارف ومدرك لمعاني المفردات العربية، أن هذا الشخص اشتدّ به العطش، حتى كاد أن يهلك، أما قلنا إنه عطشان أو ظمآن يتبين أنه بحاجة إلى نصيب من الماء، إلا أنه لم يقارب الموت أو الهلاك.

وما يدعّم هذا الرأي هو تفسير المبّرد لقوله تعالى:﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجَا﴾[69].

قال: عطف منهاجا على شرعة، لأنّ الشِّرعة لأوّل الشيء والمنهاج لمعظمه ومتسعه واستشهد على ما ذهب إليه بقول العرب: تقول: شرع فلان في كذا، إذا ابتدأه وأنهج البلى في الثوب إذا اتسع فيه، قال: ويعطف الشيء على الشيء وإن كان يرجعان إلى شيء واحد"[70].

والإحاطة بمعاني المفردات والتراكيب، ومجالات استعمالها تسهِّل عملية التواصل من جهة، وتتفق مع مبدأ الجهد الأقل الذي تحدّثنا عنه سابقا ؛والذي تغني فيه الكلمة الواحدة عن العبارة.

ومن الأمثلة أيضا على اختلاف المترادفات في المعنى، التلاوة والقراءة، فالتلاوة يقول عنها أبو هلال العسكري، إنها لا تكون في الكلمة الواحدة، والقراءة تكون فيها << تقول قرأ فلان اسمه، ولا نقول: تلا اسمه، وذلك أنّ أصل التلاوة من قوله: تلا الشيء يتلوه إذا أتبعه>> [71].

وهكذا مع الاستفهام والسؤال، والشوق والحنين، والسياسة والتدبير، والجوف والبطن[*]، والجوف جمعه أجواف، "والجائفة الطعنة التي تبلغ الجوف"[72] واللفظتان مستعملتان في القرآن الكريم في موضعين

---

[69]- سورة المائدة، الآية: 48.

[70]- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص: 27.

[71]- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري ،ص: 27.

[*]- البطن ضد الظهر وهو مذكر، وبطانة الجنة وسطها (مختار الصحاح، مادة بطن، ص: 56).

مختلفين<< وقد دار حولهما نسيج رائع من المعاني يعجز بني البشر عن الإتيان بمثل ذلك>> [73]، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِه ﴾ [74].

وقال في موضع آخر:﴿ إِذْ قَالَتْ اِمْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّيَ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيم ﴾[75].

فالله تبارك وتعالى استعمل الجوف في الأولى، والبطن في الثانية، ولم يستعمل الجوف موضع البطن، ولا البطن موضع الجوف، وهذا لا يدركه إلا من دق فهمه وجل نظره"[76] فاللفظ له قيمة أدائية يحددها موضع الكلام.

وهذا يعني أن عملية الاستبدال التي يقوم بها قارئ أو مستمع بين المترادفات في النص فإنها تؤدي إلى فساد المعنى << فإن إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتزلّ عن مكان لا تزلّ عنه اللفظة الأخرى، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى لو وُضعت موضعها في محلّ نفار ومرمى شراد ونابية استقرار>>[77].

ومن هذه المقارنة نتبين أن المفردة الواحدة قد تحسن في موضع، ولا تحسن هي نفسها في موضع آخر، وهذا الأمر يخطأ فيه الناس كثيرا، ويستعملون ألفاظا في غير مواضعها. وحسن انتقاء الألفاظ واستعمالها في أماكنها المناسبة، واللائقة بها لا تخدم العملية التواصلية فحسب، وإنما تجعل الكلام في حد ذاته يكسب مكانة عالية في البلاغة وربما زاد على ذلك، واتصف بصفة الإعجاز الذي لا يستطيع أحد أن يأتي بمثله.
وهذا ما عبّر عنه الجرجاني في بيانه لإعجاز القرآن بقوله:<< وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة... فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح أو أشبه>>[78].

وإذا كنا نتحدث عن نسج الكلام فلا بدّ لنا من مراعاة أحوال وظروف ومستوى من يدور بينهم الحوار، أو من يجري بينهم التواصل فإذا كان المرسل متبحّرا في علوم اللغة عارفا بخباياها، والمرسل إليه أقلّ

---

[72]- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي (ت666هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: 1979، مادة جوف، ص:117.

[73]- إعجاز القرآن الكريم (محاضرة لـ: د-لخضر حداد)، دار الإمام ، المحمدية، الجزائر، من 19/17 ماي 2004م.

[74]- سورة الأحزاب، الآية: 04.

[75]- سورة آل عمران، الآية،: 35.

[76]- المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص: 150.

[77]- في إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، 1977م، ص: 184.

[78]- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، طبعة: 1991، ص: 54.

درجة من ذلك، فعليه مخاطبته بمصطلحاته ومفاهيمه التي يعرفها، من أجل إفهامه، لأنّ مدار الشرف كما يقول بشر ابن المعتمر في صحيفته البلاغية << على الصواب وإحراز المنفعة وموافقة الحال وما يجب لكل مقام من مقال>> [79].

2- ملاءمة الألفاظ لبعضها البعض :

كثيرا ما تتلاءم الألفاظ و تنسجم مع بعضها، ولا تتلاءم مع ألفاظ أخرى قال الجاحظ:<< من ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر، وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشدُ إنشادها إلاَّ ببعض الاستكراه >>،ومن ذلك قول الشاعر(2).

وقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانِ قَفْرِ **** وليسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

وكل من يمعن النظر في هذا البيت يرى أنَّ سبب تنافر هذه الكلمات هو تكرار حروف بعينها في كلمات متعاقبة، وبتكرارها يشعر المتكلم بثقلها وبصعوبة النطق بها خاصَّة إذا كان يَسرع أو يكررها عدّة مرّات .

ويُشبِّه الجاحظ الشعر الذي تنافرت كلماته بـ" أولاد العَلاّت" حيث يقول:<< إذا كان الشعر مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلاّت(*)، وإذا كانت الكلمة ليس موقعُها إلى حيث أُختها مرضياً موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة>>(3)، أي صعوبة ومشقة، وما قال به الجاحظ هو نفس ما تكلم به خلف الأحمر نظماً حيث قال:

وبَعضُ قريض القوم أولادُ عِلَّةٍ *** يَكدُّ لسانَ الناطقِ المتحفِّظِ.

وتنافر الألفاظ والحروف يكد اللسان ويتعبه ويثقل عليه التلفظ به، وأنشد أبو البيداء الرياحي: وشعْرٍ كَبعْرِ الكَبْشِ فَرَّقَ بينه *** لسانُ دَعِي في القريضِ دخيل.

ويُعلِّق الجاحظ على هذا البيت فيقول:وأمَّا قوله"كبعر الكبش"<< فإنما ذهب إلى أنَّ بعر الكبش يقع متفرِّقاً غير غير مؤتلف ولا متجاور،وكذلك حروف الكلام وأجزاء الشعر من البيت تراها متفقةً مُلْساً وليِّنةَ المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة،ومتنافرة مستكرهة تشقُّ على اللسان وتكُدُّه، والأخرى تراها سهلةً لينةً ورطبة مواتية، سلسة النظام خفيفة على اللسان، حتى أنَّ البيت بأسره كلمة واحدة وحتى كأنَّ الكلمة بأسرها حرف واحد>>(1).

79- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 95.

2- البيان والتبيين ،65/1 .

(*)- أولاد العَلات : الإخوة من أب وأمهاتهم شتى .

3- البيان والتبيين ، ج1، 38،39 .

ويذهب أبو الحسن علي بن عيسى الرماني(ت 386هـ) إلى اعتبار صفة "التلاؤم" في الكلام من أقسام البلاغة التي هي إحدى جهات الإعجاز في القرآن حيث يقول:<< وجوه الإعجاز تظهر في سبع جهات منها: البلاغة، والبلاغة على عشرة أقسام منها:الإيجاز والتشبيه والاستعارة و التلاؤم، وهذا االأخير هو نقيض التنافر وهو تعديل الحروف في التأليف... فكلما كان أعدل كان أشد تلاؤماً>> (2).

ومعنى تعديل الحروف حسب رأيه أنَّه التوسط بين القرب الشديد والبعد الشديد في مخارج الأصوات، لأنَّ هذين الطرفين- البعد الشديد والقرب الشديد- هما سبب التنافر، فإذا كان السبب في التلاؤم تعديل الحروف في التأليف فإن السّبب في التنافر ما ذكره الخليل من البعد الشديد أو القرب الشديد، وذلك انَّه إذا بَعُدَ البعد الشديد كان بمنزلة الظفر، وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيّد، لأنّه بمنزلة رفع اللسان وردِّه إلى مكانه، وكلاهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال، ولذلك وقع في الكلم الإدغام والإبدال" (3).

ويرى أنّ التلاؤم على ثلاثة أوجه: متنافر، ومتلائم في الطبقة الوسطى، ومتلائم في الطبقة العليا، والمتلائم في الطبقة العليا القرآن كُلّه، وذلك بيِّن لمن تأمله .

وبعد ذلك يبيّن فائدة التلاؤم فيقول:"والفائدة في التلاؤم حسن الكلام في السّمع وسهولته في اللفظ، وتقبُّل المعنى له في النفس لما يرد عليها من حسن الصورة وطريق الدلالة " (4)

1- البيان والتبيين ،ج1،ص: 39 .

2- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطّابي وعبد القاهر الجرجاني في الدراسات القرآنية والنقد الأدبين حققها وعلَّق عليها: محمد خلف الله احمد ود/ محمد زغلول سلام، دار المعارف،ط5، 2008م، ص: 95/94.

3 - ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،ص: 96 .

4- ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن،ص: 96 .

وذهب ابن سنان في سر الفصاحة إلى أنّ القرب الشديد وحده هو سبب التنافر، وفي ذلك يقول: << ولا أرى التنافر في بُعد مابين مخارج الحروف، وإنّما هو في القُرب، ويدلُّ

على صحة ذلك الاعتبار، فإنَّ هذه الكلمة (ألم) غير متنافرة وهي مع ذلك مبنية من حروف متباعدة المخارج لأنَّ الهمزة من أقصى الحلق، والميم من الشفتين، واللام متوسطة بينهما، وعلى مذهبه (أي مذهب الرماني)كان يجب أن يكون هذا التأليف متنافراً،لأنه على غاية ما يمكن من البعد ... ومتى اعتبرتَ جميع الأمثلة لم تر للبُعد الشديد وجهاً في التنافر على ما ذكره ، فأمّا الإدغام والإبدال فشاهدان على أنَّ التنافر

في قرب الحروف دون بعدها لأنهما لا يكادان يردان في الكلام إلاَّ فراراً من تقارب الحروف وهذا الذي يجب عندي اعتمادُه، لأنَّ التتبع والتأمل قاضيان بصحته>> ([1]).

فابن سنان يرى بأن التنافر سببه قرب مخارج الحروف، وليس البُعد ،ويُبرهن على صحة ما ذهب إليه بالتأمّل والاعتبار في الأمثلة التالية : ألم، و أو، وأم، فرغم أنَّ مخارج حروفها متباعدة إلاَّ أنَّها ليست متنافرة ولا ثقيلة على اللسان ،ويرد على علي بن عيسى الرّماني الذي قال: إنَّ التنافر سببه القرب الشديد والبُعد الشديد ،وأتى بالأمثلة السابقة ليبرهن على صحّة ما يدَّعيه، واعتبر الإدغام والإبدال خير شاهدين على ذلك، فالإدغام يحدث بين المتقاربين في المخرج أو الصفة والإبدال كذلك.

والعملية التواصلية لا تتم بمثل هذه التراكيب والجمل فقط، وإنما تتطلب أن يكون هناك تناسق ونسيج تنتظم داخله المفردات لتشكّل الجمل حسب المعاني الموجودة في الأذهان والنفوس "وهكذا تظهر فيها الفائدة الإخبارية"[(2)].

والألفاظ لما تنسج مع بعضها البعض داخل الجمل والتراكيب، ينبغي أن تكون موضوعة الوضع الذي يقتضيه علم النحو، لأن الكلام كما يرى الجرجاني:<< لا يكون صحيحا مستقيما إلا إذا وضع الموضع الذي يقتضيه علم النحو وله الفضل (علم النحو) في فتح الألفاظ على معانيها، وهو المعيار الذي يتبين به نقصان الكلام ورجحانه، وهو المقياس الذي يعرف به الصحيح من السقيم>>[(3)].

1- سر الفصاحة ، ابن سنان الخفاجي، ص:.120،119

2- خصائص العربية والإعجاز القرآني، أحمد شامية، ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة: (1995م)، ص: 117.

3- ينظر: دلائل الإعجاز للجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، ص: 43.

والألفاظ لما تنسج مع بعضها البعض داخل الجمل والتراكيب، ينبغي أن تكون موضوعة الوضع الذي يقتضيه علم النحو، لأن الكلام كما يرى الجرجاني:<< لا يكون صحيحا مستقيما إلا إذا وضع الموضع الذي يقتضيه علم النحو وله الفضل (علم النحو) في فتح الألفاظ على معانيها، وهو المعيار الذي يتبين به نقصان الكلام ورجحانه، وهو المقياس الذي يعرف به الصحيح من السقيم>>[(80)].

80- ينظر: دلائل الإعجاز للجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، ص: 43.

واختيار الكلمات ووضعها الموضع الذي يقتضيه علم النحو لوحده غير كاف لنظم الكلام وتأليفه، بل يجب أن ترتبط مع بعضها البعض من ناحية وقعها الموسيقى ويكون معناها موافقا لمعنى التي تليها وهذا حتى يصل المعنى إلى قلب السامع حال وصول اللفظ إلى سمعه.

وتوافق العبارات والجمل من ناحية وقعها الموسيقي له كبير الأثر على أذن المتلقي <<وذلك لأن للألفاظ أطيافا وظلالا، وأصداء في النفس، كما أن لجرسها إيقاعا في الأذن والكلمات في التعبير كالألوان في الرسوم، وكالأنغام في الموسيقى>>[81].

والألوان قد تتناسق مع بعضها البعض في الشكل الواحد، وقد تكون على عكس ذلك <<وكذلك الشأن بالنسبة للكلمات، فقد تأتلف كلمة مع كلمة، ولا تأتلف مع أخرى وتفعل كلمة في إيثار العواطف ما لا تفعلها مرادفاتها>>[82].

ومن الأمثلة التي أوردها " أحمد أمين" في هذا السياق قوله تعالى:﴿ تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيْزَى﴾[83]، يقول:<< قد تكون كلمة ظالمة أو جائرة أحلى، ولكن ضيزى في موضعها أجمل لأنّ السورة كلها وهي:﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ظَلَّ صَاحِبُكُم وَمَا غَوَى﴾ (5) مختومة بالألف ولا يتسنى ذلك إلا في موضع ضيزى.

كما أن اللفظة الواحدة قد تحسن في موضع ولا تحسن في موضع آخر ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِيْنَ لِحَدِيْثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيّ فَيَسْتَحِي مِنْكُم﴾[84]، وقول المتنبي[85]:

تَلِذُّ لَهُ المرُوءَةُ وِهي تُؤْذِي *** وَمَنْ يَعْشَقْ يَلِذُّ لَهُ الغَرَامُ.

ويواصل أحمد أمين تعليقه على الآية والبيت الشعري فيقول: إنّ لفظة "تؤذي" في الآية أجمل من "تؤذي" في بيت المتنبي، والحكم في ذلك الأذن الموسيقية.

وقد تكون كلمة في جملة جميلةً، ولكن ينقصها الجمال الكلي، كالوجه ترى فيه كل عضو جميلا من جبهة وأنف، وعين ثم لا تراه كله جميلا، وكذلك الألفاظ،كما يرى أنّ تناسق الألفاظ يمكن أن نرجعه إلى

---

[81]- سيكولوجية القصة، الحوار في قصص القرآن، د/ نقرة التهامي، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر الشركة التونسية للتوزيع، ص:495.

[82]- النقد الأدبي، أحمد أمين، ص: 76.

[83]- سورة النجم، الآية: 22.

5- النجم : 01 .

[84]- سورة الأحزاب، الآية: 53.

[85]- ديوان المتنبي أبي الطيب، شرح: أبي البقاء العكبري، ضبط: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، (1997م) ج4، ص: 76.

طبيعة الحروف المشكِّلة للكلمات ،فبعض الحروف يدل على القوة "كالقاف"وبعضها يدل على الرقة "كالسين"[86].

و يتضح من هذا أنّ للتأليف الدور البارز في جذب المتلقي نحو الفهم والإبداع. يقول الجرجاني عن الكلام المرتب والموزون هو:<< ما كان معناه إلى قلبك أسبق من لفظه إلى سمعك>>[87].

3- مطابقة الكلام للمقام:

تزخر اللغة بطاقات أسلوبية وثروة مفرداتية هائلة تتيح للأديب أو الخطيب قسطا وافرا من الحرية للتعبير عن الأحاسيس والأفكار المختلفة بمرونة تتلاءم والمعنى المراد، فإذا عرف المتكلم كيف يوظِّف هذه الطاقات الأسلوبية والثروة المفرداتية أعطى عمله قيمة فنية أكبر

والمقصود بهذا أن يكون المتكلم على علم ودراية بمن يخاطبه حتى يتمكن من التواصل معه مراعيا لظروفه ومستواه الثقافي أو الاجتماعي، وحتى بعض طباعه إن أمكن ذلك، فحال الباث والمتلقي أشبه بحال الفلاح مع التربة التي يريد أن يزرعها، فكلما تعرف على خصائصها ومميزاتها ومكوناتها و... كلما تيسّر عليه معرفة نوعية البذور التي تصلح لها، وكيف ومتى وبماذا سيحرثها.

والنفس البشرية أصعب بكثير من الإحاطة بجميع جوانبها لأنها ليست مثل الأجسام المادية يسهل التجريب عليها، وتعميم النتائج المتوصل إليها على بقية أو جميع الأجسام المماثلة لها، فالإنسان كل مركب جسم وعقل وروح، وما يمكن تطبيقه على شخص معين لا يمكن بالضرورة تطبيقه على آخر، وما يفهم به هذا من الممكن أن لا يفهم به ذاك.

ولا يفهم من هذا أنه إذا أردنا الاتصال بشخص أننا نبقى لزمن طويل ندرس شخصيته ونحللها ونتعرف على كل كبيرة وصغيرة فيه، وإنما نحاول قدر الإمكان أن نأخذ عنه نظرة ولو بسيطة من خلال مظهره وسلوكاته وحديثه، لكي يتمكن المرسل أن يجاري بكلامه المواقف والمقامات، ويعرف كيف يتواصل مع غيره، وما هي الوسيلة المناسبة لإيصال رسالته؛ فربّ مقام تغني فيه الإشارة، وآخر تناسبه العبارة، وآخر تواتيه الأفعال ولا تجدي فيه الأقوال.

فالسنة في النكاح مثلا أن يطيل الخاطب ويُقصِّر المجيب ، وأمَّا الخطب فتكون بين السَّماطين وإصلاح ذات البين ([88]).

---

[86]- ينظر: النقد الأدبي، أحمد أمين، ص: 76.

[87]- أسرار البلاغة، الجرجاني، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثانية: (2001م)، ص: 109.

[88] - البيان والتبيين ص:61.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو كيف يمكن للمتكلم أن يعرف هل وفّى المقام حقه أم لا ؟والجواب عن هذا نجده عند ابن القفع ، فقد سُئل ابن المقفع فإنَّ ملَّ المستمع الإطالة التي ذكرت أنَّها حق ذلك الموقف؟ قال: إذا أعطيت كل مقام حقه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتمّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنّه لا يرضيهما شيء، وأمَّا الجاهل فلست منه وليس منك ([89]).

ومن المقامات التي يصلح لها الفعل ولا يفيد فيها القول ، ما قام به رسول الله- صلى الله عليه وسلّم- يوم صلح الحديبية حينما قابله عروة بن مسعود الثقفي، وحاول أن يقلل من شأن المسلمين فقال: إني أرى حولك أوباشا جديرون أن يتركوك ويفرّوا، فرد عليه أبو بكر الصديق بكلام ما كان قد نطق به قبل ذلك ولا بعد قط، بينما رسول الله- ص- فضّل الجواب بالفعل لا بالقول ، فأمر أبا بكر الصديق، والمغيرة بن أخي عروة أن يكشفا عن وجهيهما، وكانا بجنب الرسول ملثمّين، ثم شرع في الوضوء والصحابة حوله يقتتلون على وضوئه، ولا يدعون قطرة ماء إلا وتدافعوا عليها هذا يمسح بها وجهه، وذاك يدلك بها جلده تبركا به عليه الصلاة والسلام .

فلما رأى عروة تعظيم الصحابة لنبيهم رجع إلى قومه وصاح فيهم: أي قوم، لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي(*)، والله ما رأيت ملكا يعظمّه أصحابه ما يعظّم أصحاب محمد محمدا، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كفّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم و... وقد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها[1].

فالرسول- ص- أراد أن ينقل رسالة فعلية لا قولية لهذا المشرك الذي بدأ بالاستهزاء بالصحابة الكرام، وأراد أن يقلل من شأنهم، يبين له فيها أن صحابته على عكس ما يظن بهم، فرجع إلى قومه متعجبا مما رآه، وترسّخ في ذهنه أن الصحابة ليسوا أوباشا بل من أسياد العرب وأشرافهم، وأنهم أشدّ حرصا وطاعة لرسولهم، ونصح قومه أن يقبلوا بخطته الرشيدة.

---

89 - البيان والتبيين ص: 61.

*- كسرى: لقب ملك الفرس، وقيصر لقب ملك الرومان، والنجاشي لقب ملك الحبشة .

1- ينظر: روضة الانوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط1، 240، 241.

ولو أن الرسول- ص- حاول أن يبين بالقول مدى طاعة الصحابة له وأنهم لن يتخلوا عنه، ما كان لهذا المشرك أن يصدِّق ذلك، وربما كثر الجدال والنقاش بلا فائدة، والظرف لا يستدعي ذلك، فلجأ إلى الفعل الذي هو أصدق من القول فوصلت رسالته الصامتة حاملة أقوى المعاني والدلالات إلى عقل وقلب عروة وفي أسرع وقت، وأصبحت عنده يقين شاهدها بأم عينه، وحقق الرسول الكريم عدة مكاسب: منها رفع الروح المعنوية لصحابته، ولم يخرجه عروة بحديثه عن الموضوع الذي جاء من أجله، ونقل رسالة إلى قريش على لسان زعيم من زعمائها في منتهى البلاغة والقوة بأقل ما يكون من جهد ووقت.

وما كان ليتحقق ذلك لولا علم رسول الله بمتطلبات المقام، وطبيعة الشخصية المشركة وفي هذا يقول بشر بن المعتمر في صحيفته البلاغية:<< ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما>>[91].

ويمكن تمثيل ما تطرق إليه بشر بالمخطط التالي:

المتكلم ← الرسالة ← المخاطب

مراعاة المقام	أن يكون ألفاظها	أن يتلقى الرسالة ويحاول
والظروف التي	مطابقة للمعاني	فكّ رموزها وفهمها دون تأويل
تحيط بالمرسل إليه.	المعبر عنها.	إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

والموازنة بين أقدار المعاني والمقامات هو ما عبّر عنه البلاغيون بعد بشر بن المعتمر بالمقولة المأثورة: "لكل مقام مقال" [92].

والكلام إذا كان لفظه مطابقا لمعناه، وفي مستوى المستمع مع مراعاته لمقتضى الحال أدّى- وبدون شكّ- وظيفته، وأحز المنفعة التي هي غاية المتكلم، ويعلو شأنه كلّما كان وجيزا مبينا مقصوده إلى أن يسمى بلاغة أو بيانا[*].

فهذا عمر بن عبد العزيز يقول لرجل أحسن في طلب حاجة له، وتأتى لها بكلام وجيز ومنطق حسن:"هذا والله السحر الحلال"، وقال رسول الله-ص- " إن من البيان لسحرا"[93].

أصالة الاقتصاد اللغوي:

1- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، ص: 109.

92- في تاريخ البلاغة العربية، عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص: 30.

*- البيان هو: إخراج المعنى في أحسن الصور الموضحة له وإيصاله إلى فهم المخاطب بأقرب الطرق وأسهلها، فإنه عين البلاغة (المعجم المفصل في البلاغة، ص: 535.

93- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 173.

يعد الاقتصاد في اللغة العربية سمة أصيلة وقديمة لدى العربي، فقد كانوا يختزلون ويحذفون ويدغمون و يختلسون ويميلون بالفتحة جهة الكسرة، ويُفَضِّلون ما قلَّ ودلَّ وما خفَّ على اللسان نطقه، وكثيرا ما كانوا يُخفِّفون ويحذفون من التراكيب التي يكثر
استعمالها فقد جاء عنهم "أيشٍ " اختصاراً لقولهم أي شيء ؟ (1)، والقسم بـ" إي والله" صار عندهم " إيوَ" (2) .

ونقل السيوطي أنَّ أبا العباس المبرّد قال: سمعت عمارة بن عقيل بن بلال بن جرير يقرأ "ولا الليلُ سابقُ النّهار" فقلت له: ما تريد؟ قال: أردت"سابقٌ النّهارَ" فقلت: فهلا قلته فقال" لو قلته لكان أوزن أي أثقل وأقوى (3).

والقراءة بتنوين لفظ "سابقٌ" فيه مشقة وثقل على اللسان لأنه ينتهي بالنون ويبدأ بها .

وذكر ابن جني أنَّه سأل غلاماً فصيحاً من آل المهيا: عن لفظة من كلامه كيف يؤدّيها؟ فقال بالنصب لأنّه أخفُّ (4) .

وهذا الوعي بأهمية الاقتصاد ومراميه كان حاضراً في أذهان النحاة خاصّة لما وقفوا على الثروة اللغوية بالتتبع والاستقراء لألفاظها وتراكيبها، وكثيراً ما كانوا يعبِّرون عن ذلك بالتخفيف والاستغناء و الملاءمة والهروب من الثقل، وهذا يظهر جلياً في تعليلاتهم للحذف والإعلال والإبدال والإمالة والإدغام والتنوين والإضمار والتقاء الساكنين والهمزتين.

وروى السيوطي في رواية نسبها إلى الخليل بن أحمد<< أنَّ أثقل الحركات الضمة ثم الكسرة ثم الفتحة من أجل ذلك قلّت المرفوعات في اللغة وكثرت المنصوبات...>> (5). وذكر الخليل أنّ العرب إذا طال كلامهم بالرفع نصبوا ثم رجعوا إلى الرفع (6) وقال الخليل:<< هوكائن أخيك على الاستخفاف والمعنى كائن أخاك، وذكر أيضاً أنّه يمكن جر المفعول وتحويله إلى مضاف لضرب من التخفيف مثل قولهم: هذا ضاربُ زيداً بخفض زيداً بإضافة ضارب إليه>>(7).

والحركات من فتحة وضمة وكسرة وسكون، ليست سواء في نسبة ورودها، فالنصب

-

—

1- الخصائص، ج1، ص: 25

2- الكشاف ، الزمخشري ، ج2،ص: .352

3- الإقتراح في أصول النحو ، عبد الرحمن السيوطي ص:

4- الخصائص ج1، ص: .78

5- الأشباه والنظائر في النحو ، مراجعة وتقديم د/ فائز ترحيني ،مطبعة دار الكتاب ، ط1، (1984م)، ج2، ص: 60،

6- كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد، دراسة تحليلية،د/ محمد إبراهيم عبادة منشأة المعارف بالإسكندرية ص:23.

7- الجمل في النحو ، ص: 40.

هو الغالب لخفته حسب تعليل النحاة، قال الخليل<< والنصب خزانة النحو... أي مُعوّلهم عليه أكثر من سائره>> (1).

وهذه الظاهرة الاقتصادية والاستخفافية نزعة أصيلة عند كل العرب وسمة ظاهرة في جميع كلامهم ومخاطباتهم لذلك كانوا لا يجمعون بين حرفين متقاربين أو متماثلين في كلمة واحدة، وإذا وقع ذلك غيَّروا ما يمكن تغييره لتنسجم الحروف وتخف على اللِّسان.

وذكر السيوطي أنّ الخليل قال: سمعنا كلمة "شنعاء الهعخع " فأنكرنا تأليفها(2)، وقال ابن سنان في سر الفصاحة- بعد أن ذكر رواية الخليل-<< وحروف الحلق خاصة مما قلّ تأليفهم لها من غير فصل يقع بينها، كلّ ذلك اعتمادا للخفة وتجنبا للثقل في النطق>>(3).

وكثر في كلامهم الثلاثي وقلَّ الثنائي والرباعي والخماسي والسدّاسي، وهذه الدلائل تبين مدى رغبة العربي وميله للاقتصاد والتخفيف والابتعاد عن الثقل والاستكراه في ألفاظه وتراكيبه.

كما اشترطوا في فصاحة المفردة أن تتباعد مخارج حروفها ، فقد نقل السيوطي عن ابن دريد قوله في الجمهرة << اعلم أنّ الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت لأنك إذا استعملت اللسان في حروف الحلق [الألف، الهمزة، الهاء، العين، الحاء، الغين، الخاء] دون حروف الذلاقة، كلفته جرساً واحداً وحركات مختلفة، ألا ترى أنك لو ألّفت بين الهمزة والهاء والحاء فأمكن لوجدت الهمزة تتحول هاء في بعض اللغات لقربها منها، نحو قولهم: في أم والله هم والله، وكما قالوا: في أراق هراق، ولوجدت الحاء في بعض الألسنة تتحوّل هاء وإذا تباعدت مخارج الحروف حسن وجه التأليف (4).

وقال ابن جني :<<والعدول عن المستثقل هو أصل الأصول في الحديث >>(5).

—

1- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح: د/ عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد، (1967م)، ج1 ،ص:209 .

2- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، شرح وتعليق محمد جاد المولى بك ، محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي ج1، ط (1408هـ/ 1987م)، المكتبة العصرية بيروت ، ص: 193.

3- سر الفصاحة، تأليف: ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)، قدّم له واعتنى به إبراهيم شمس الدين كتاب ناشرون، بيروت لبنان ط1، (2010م)، ص 80 .

4- المزهر للسيوطي ،ص:192.

5- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 162.

الاقتصاد الذهني:

يشكل الاقتصاد الذهني في اللغة بصفة عامة وفي التنزيل العزيز بصفة خاصة ميزة واضحة وذلك لأنه يستخدم في بناء كلماته لبنات هي غاية في الجمال من ناحية المعنى ، فحروفه ذات قيمة تعبيرية متميزة وكذلك ألفاظه وتراكيبه.

فالله جلّت قدرته العالم بكل شيء أنزل كتابه وفق الذوق العربي الذي يعبّر بكل حرف عن دلالة خاصة << فالغين تتضمن ما يدلُّ على الاستتار والخفاء إذا كانت فاءً في المفردات المصوغة من الحروف المختلفة نحو: غبر، وما يكون بدلاً من الراء نحو غرب وغاص و غطس >> (1).

والعرب كثيرا ما تحاكي الطبيعة وتعبِّر عن المعاني بالألفاظ المشابهة للأصوات، قال ابن جني:<< وأمَّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها فباب عظيم واسع ونهج مُتْلئِبٌ عند عارفيه ، وذلك أنّهم كثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر بها عنها .. من ذلك قولهم: خَضِم، وقَضِم، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء، والقضم للصُلب اليابس، قضمت الدابة شعيرها فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب ،والقاف لصلابتها لليابس حَذْواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث، ومن ذلك قولهم: النضح للماء والنضخ أقوى من النضح .

قال تعالى:﴿ فيهما عينان نضّاختان ﴾(2)، فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف والخاء لغلظتها لما هو أقوى منه >> (3).

ومن ذلك القَدُّ طولاً والقطُّ عرضاً، وذلك أنَّ الطاء أحصر للصوت وأسرع قطعا له من الدال، قال تعالى:﴿وقدّت قميصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى البَّاب﴾(4)، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض لقربه وسرعته، والدال المماطلة لما له من الأثر وهو قطعه طولاً" فمتى سمعت "قدّ" تعلم مباشرة أنَّ التمزيق قد حدث طولاً، ومتى سمعت "قطَّ" علمت أنّه كان

—

1- الاقتصاد اللغوي ص: 36. 2

2- الرحمن 66 .

3- الخصائص ج2، ص: 159. 160 .

4- يوسف :25 .

عرْضاً، وهذا دليل على براءة يوسف الصِّديق- عليه السلام- وهروبه منها، وإذا كان ذلك كذلك فالقرآن العظيم قد حاز المرتبة الأولى والدرجات العلى في هذا .

قال ابن جني:<<وذلك أنَّهم قد يضيفون إلى اختبار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبّر عنها .. تقديم ما يضاهي أوَّل الحدث وتأخير ما يضاهي آخره وتوسيط ما يضاهي أوسطه سوقاً للحرف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب>> (1).

وقال عباس حسن وهو يتحدّث عن خصائص حرف الغين:" بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثرت على أربعة وستين مصدراً جذراً تنتهي بالغين كان منها خمسة عشر مصدراً تدل معانيها على الاهتزاز والبعثرة

والتخليط، بما يتوافق مع خصائص الغين الإيمائية في الاهتزاز والبعثرة منها، مع بيان الرابطة بين معاني بعضها وبين خصائص الغين الإيمائية(2).

وفي حديثه عن حرف الزاي قال: فحدَّة صوته توحي بالشدة والفعالية، وهذه الحدَّة التي تحاكي صوت حزِّ الحديد على الحديد، تؤهِّله للتعبير عن الأصوات المماثلة في الطبيعة

ولما كان صوت هذا الحرف يستمد حدَّته من ذبذباته الصوتية العالية، فهو إذا لُفِظَ بشيء من الشدَّة أوحى بالاضطراب والتحرّك والاهتزاز، أما إذا لُفِظَ مخفّفا بعض الشيء، فهو يوحي بالبعثرة والانزلاق وذلك حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث.

وذكر أيضا أنه بالرجوع إلى المعجم الوسيط عثر على مئة وثلاثة وثمانين مصدراً تبدأ بحرف الزاي، كان منها سبعة عشر مصدرا تدل معانيها على أصوات منها :زأر الأسد. زحر (أخرج صوته بأنين من عمل أو شِدَّة).

وكان منها ستة وستون مصدراً تدل معانيها على الشدة والفعالية منها:زأب (شرب شديدا) ، زبره بالحجارة (رماه بها). الزوبعة (الإعصار)، زعُم زعامة (ساد ورأس) ازمهرّت عيناه (احمرتا من الغضب).

وكان منها أربعون مصدراً تدل معانيها على الاضطراب والاهتزاز والتحرُّك والتدحرج والانزلاق بما يحاكي ذبذبة صوته: منها: زأزأ الشيء (حركه وزعزعه) ، زحن

1- الخصائص ج2، ص: 164.

2- خصائص الحروف العربية ومعانيها – دراسة – عباس حسن ، منشورات اتحاد كتاب العرب (1998م)، ص :128،129 .

عن مكانه (تحرك)، زعزعه (حرَّكه بشدة). زاغ زوغاً وزيغاً (مال عن القصد).

وهكذا بلغت نسبة المصادر التي تأثرت معانيها بالخصائص الصوتية لحرف الزاي (73%) مما يؤكد صحة انتمائه إلى زمرة الحروف القوية"(1).

وكما فعلوا مع الحروف فعلوا مع الأفعال، فقد وضع ابن جني بابا في الخصائص سمّاه باب في امساس الألفاظ أشباه المعاني نقل فيه عن الخليل قوله: كأنَّهم توّهموا في صوت الجندب استطالة ومدّ، فقالوا :صرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرْصرَ(2).

ومن ذلك أنهم جعلوا "استفعل" في أكثر الأمر للطلب نحو: استسقى، استطعم استوهب استمع، استقدم فرتّبت الحروف على ترتيب الأفعال.

ومن ذلك أنّهم جعلوا تكرير العين في المثال دليلاً على تكرير الفعل فقالوا كسَّر، وقطَّع وفتَّح وغلَّف ، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به

اللفظ قوّة الفعل، والعين أقوى من الفاء واللام ،وذلك لها واسطة لهما ومكتوفة بهما فصار كأنهما سياج لها ،ولذلك تجد الإعلال بالحذف فيهما دونها (3).

ولما كانت الأفعال دليل المعاني كرروا أقواها وجعلوه دليلاً على قوّة المعنى المحدّث به وهو تكرير الفعل كما جعلوا تقطيعه في نحو: صرصر وحقحق دليلاً على تقطيعه .

قال ابن الأثير في المثل السائر:<< إذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني لأنّ الألفاظ أدلة على المعاني، ومثاله قَدَر واقتدر فمعنى اقتدر أقوى من معنى قدر.

قال تعالى: ﴿كذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّها فَأَخَذْنَاهُم أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾(4)، فمقتدر هنا أبلغ من قادر وإنَّما عدل إليه للدلالة على تفخيم الأمر وشدّة الأخذ الذي لا يصدر إلاَّ عن قوّة الغضب ومقتدر اسم فاعل من اقتدر وقادر اسم فاعل من قدر، ولا شك أنَّ افتعل أبلغ من فَعل (5).

—

1- ينظر :خصائص الحروف العربية ومعانيها ، عباس حسن ص139/ 140 .

2- الخصائص ،ج2،ص: .154

3- المصدر نفسه ، ص: .157

4- القمر : 42 .

5 – المثل السائر ، ابن الأثير، ج2،ص: 56. 57 .

وقوله تعالى على لسان نوح عليه السلام:﴿ فَقُلْتُ اِسْتَغْفِرُوا رَبَّكُم إِنّهُ كَانَ غَفَّارا﴾([94])، فصيغة " غفَّار" أبلغ في المغفرة من غافر لأنَّ فعَّالاً يدلُّ على كثرة صدور الفعل وفاعلاً لا يدل على الكثرة.

وقوله تعالى:﴿ إِنَّهُ هُوَ التَوَّابُ الرَّحِيْم ﴾، فالتوّاب هو الذي تتكرر منه التوبة مرَّة بعد مرَّة وهو فعَّال أبلغ من التائب ؛لأنَّ التائب صدرت منه التوبة مرّة واحدة ،وتوَّاب صدور التوبة منه مراراً كثيرة([95]).

الاقتصاد الإعلامي:

[94] – نوح : 10.

[95] – المثل السائر ، ابن الأثير، ج2،ص: 56. 57 .

مما لا شكّ فيه أنَّ تكرار بعض العناصر بصورة غير ملائمة بالنسبة إلى عملية التواصل يزيد من كلفة هذه العملية، ومن هذا المنطلق وجد مهند سو المواصلات السلكية واللاسلكية الوسيلة لحساب الكلمات الإخبارية المنقولة، بعد تحديد وحدات النظام و احتمالات ورود كل واحدة منها.

وفي سعيهم لتخفيض مصاريف نقل الخطابات، قدّروا تكلفة الإخبار وفقا لنظام الأدلة المستعمل: مثل أبجدية "مورس"، والأبجدية العادية (26 وحدة)، والأعداد (10 وحدات) والنظام الثنائي (وحدتان)"[96].

وعلى هذا يتم قياس كلفة كل وحدة بحسب عدد الرموز التي يحتوي عليها شكلها المكتوب، و حسب عدد الأصوات المنطوق بها، وما دام أن هذه الوحدات تختلف الواحدة عن الأخرى، من حيث الجهد المبذول في نطقها أو كتابتها، فإن كلفة كل واحدة أيضا تختلف بحسب الطول والقصر، ومنه يكون كل حرف زائد يتطلب جهدا إضافيا.

فمثلا تسمية سكة حديدية حضرية chemin de fer métropolitain المتكونة من ثمانية عشر صوتا متتاليا أكثر كلفة من تسمية مترو "métro" التي تحمل نفس المعنى وتتكون من خمسة صوتيات فقط.

ومن هذا المنطلق الذي تهتم فيه النظرية التواصلية باختصار التكاليف المادية فمن باب أولى يكون تحديد العناصر المتكررة والفارغة من المضمون الإعلامي عبر القنوات، وإزالتها نهائيا لأنها مكلّفة، ولا تعود بأي منفعة على عملية التواصل.

<<وعملية نقل الأشياء الفارغة عبر الخطوط التلغرافية شبيهة بنقل صناديق فارغة في سيارة شحن ذهابا وإيابا مسافة مئات الكيلومترات>>[97].

ونقل وتكرار مثل هذه العناصر لا يتوافق مع مبدأ الجهد الأقل الذي لا يكلف الإنسان نفسه وفقه إلا بالقدر الذي يحقق له منفعة.

وتحقيقا لمبدأ الجهد الأقل في العملية التواصلية فإننا نجد في ظل هذا الزخم الهائل من المصطلحات العلمية والتكنولوجية وغيرها أن اختصارها أولى وأفضل، فاللغات الأوربية تعتمد بكثرة استخدام المختصرات مثل: "central processing uni " = pu الدالة على وحدة المعالجة المركزية في الحاسوب.

ومن تلك المختصرات ما يتحوّل إلى كلمة قائمة بذاتها مثل "radar" وقد تشتق منها كلمات جديدة"[98].

3- ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، أندري مارتيني، ص: 157.

[97]- ينظر: الألسنية، ميشال زكريا، ص: 59.

[98]- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية، عماد صابوني، منهج مقترح لوضع المصطلح، المجلد 75، دمشق، ص: 610.

ونفس الأمر ينطبق على أسماء المنظمات والاتحادات العالمية مثل: "unicef" المنظمة العالمية للطفولة و"الفاو" المنظمة العالمية للتغذية، ومنظمة الأمم المتحدة

"o n u = organisation des nations unies"

ومنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم الثقافية = "unesco"

organisation des nations unies de la science et la culture

ونظرا لأهمية هذه الاختصارات في تسهيل عملية التواصل كون هذه الأسماء طويلة وكثيرة الاستعمال والتداول، اتجهت كثير من دول العالم هذا الاتجاه ونحت هذا المنحى ومنها الدول العربية التي أصبحت هي الأخرى تطلق أسماء مختصرة، ومكونة من الحرف الأول لكل كلمة من تلك الأسماء الطويلة مثل: (م و ص ك م) المؤسسة الوطنية للصناعة الكهرومنزلية و(ب و ج) البنك الوطني الجزائري و(ص و ت) الصندوق الوطني للتوفير والاحتياط.

ومنها اختصار أسماء بعض الأمراض، والأدوية والمؤسسات العلمية مثل: "الأليسكو" (تعريب مختصر الاسم الأجنبي المقابل للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم)، وأكساد (المركز العربي لدراسة المناطق القاحلة والجافة)، وإيدز (متلازمة نقص المناعة المكتسب)"[99].

ومنها أيضا اختصار لأسماء فرق أو أندية رياضية، ومؤسسات اقتصادية واجتماعية وغيرها، وهذا النوع من الترميز ما دام دالا على معناه الأصلي فهو أكثر اقتصادا بحيث يمكن تداولها بسرعة وأكثر يسرا، وبتكلفة زهيدة من جهتي النطق والمصاريف إضافة إلى الاستفادة من ذلك في ربح الوقت.

وهذا النوع من الاقتصاد كان قد دعا إليه علماء البلاغة العربية القدامى بقرون قبل علماء اللسانيات الحديثة، وما دعوة جعفر بن يحي كتّابه<< إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا>>[100] إلا دليلا على ذلك.

وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدل على علمهم الدقيق بما في الاقتصاد اللغوي من فوائد وأنه مطلب إعلامي بحيث متى قامت عملية الاتصال بين باث ومتلقّ – سواء كان فردا أو جماعة– وأمن اللبس والغموض يفضل الاقتصاد.

اقتصاد لغة أم اقتصاد كلام:

ما دمنا قد فهمنا معنى الاقتصاد في اللغة وعلاقته بها، بقي لنا أن نعرف ما إذا كان يكون في الكلام أم أنه مرتبط باللغة فقط، وللإجابة لابدّ من التفريق بين اللغة والكلام

---

[99]– ينظر : محمد الدالي، مجلة مجمع اللغة العربية، في الطريق إلى مصطلح علمي، المجلّد 75، دمشق، ص: 740.

[100]– الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 173.

<< فالكلام عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة>>.

<< والكلام يحس بالسمع نطقا والبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل في الكلام، فالذي نقوله أو نكتبه كلام، والذي نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة، فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب، واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعاجم، والكلام قد يحدث أن يكون فرديا ولكن اللغة لا تكون إلا اجتماعية>> [101].

نستشف من خلال هذا التفريق بين اللغة والكلام أن الكلام يمارس بحرية وطلاقة لأنه فردي واللغة اجتماعية، وكثيرا ما يميل المتكلم إلى الاقتصاد في حديثه كأن يختصره أو يستخدم إشارة تبين مراده أو غير ذلك من الوسائل والسبل غير المجهدة.

ويفعل ذلك رغبة منه في بذل أقل جهد ممكن، لأنّ تحقّق فونيم معين يحتاج إلى الطّاقة أقلّ أو أكثر من فونيم آخر<< ومن الواضح أنّ الفونيم ذا الملمح الإضافي ينتج بتكلفة أكبر>>[102].

وعليه يميل المتحدث إلى أقل الفونيمات تكلفة، ومنه يمكن القول إنّ << اقتصاد اللغة هو نتيجة للحاجة إلى الاقتصاد في الكلام، لأنّ الطريقة التي يستعمل بها كل شخص الكلام وهي بالضرورة على نحو اقتصادي، تنتقل إلى الخصائص النظامية للغة، أي إلى اقتصادها الداخلي>> [103].

وهو الأمر الذي نفهم منه أنّ مبدأ الاقتصاد يتغلغل في نظام اللغة ككل، ويشمل كل مستوياتها، ولكي نتبين ذلك لابد أن نعرج أولا على مفهوم النظام اللغوي، وما هي مستوياته، ثم نبين أين يكمن عنصر الاقتصاد في كل مستوى.

العلاقة بين الاقتصاد والكفاية اللغوية:

الكفاية اللغوية مصطلح أطلقه عالم اللسانيات الأمريكي نوام تشومسكي في إطار نظريته التوليدية والتحويلية ويقصد بها:<< المعرفة الضمنية باللغة، في حين أنّ الأداء الكلامي هو الاستعمال الآني للغة ضمن سياق معيّن>>[104].

---

[101]- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: 32.

[102]- اللغة والاقتصاد، ص: 306.

[103]- المرجع نفسه، ص: 323.

[104]- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1: (1403هـ/ 1983م)، ص: 7.

وعليه يكون العنصر الحاسم والمهم عند المتكلمين كامنا في الإنتاجية والإبداعية اللسانية إضافة إلى القدرة على الفهم لعدد غير متناه من الجمل التي لم يسبق للمتكلم أن تلفّظ بها أو سمعها.

والفرق بين الكفاية compétence، والأداء performance يمكن ملاحظته عند <<إنتاج عد من الجمل الطويلة، فالإنسان ذو قدرة على إنتاج جمل لا نهاية لطولها (نظريا) ولكن عندما يحاول استعمال هذا الاستعداد اللغوي واقعيا فإنه لأسباب عديدة يتقيد بعدد معين من الصفات والأحوال والظروف في كل جملة من الجمل التي يؤديها>>[105].

وعنصر الكفاية والأداء لهما أهمية كبيرة بالنسبة للعملية التواصلية، وذلك أنّ من يجري بينهم التخاطب، أو يقوم بينهم التواصل يتخذون من الألفاظ والمصطلحات وسيلة فاعلة لتبليغ أفكارهم، ورؤاهم وتطلعاتهم، وعلى قدر كفاية الشخص اللغوية، ومهارته في الأداء، يكون التواصل أفضل.

<< وغير المتمكن الذي نقصت كفايته البيانية مهدد دائما بأن يقع في المحظور وغير المرغوب فيه، ويتحول كلامه إلى تطويل لا فائدة ترجى منه، فتنقلب الأمور من الضد إلى الضد، من القدرة على أداء المعنى مع زيادة الفائدة إلى التطويل الذي لا فائدة فيه ...فيصبح الكلام في عداد مالا قيمة له >> (2)، ومن الأمثلة الملموسة التي تبين ذلك أكثر، الحوارات الجارية بين مختلف أفراد المجتمع يوميا

وأثناء العمليات التعليمية في المدارس أو المعاهد، فإننا كثيرا ما نرى البعض منّا يستعمل مفردة، أو مصطلحا في شرح فكرة ما، في حين أن هذا المصطلح لا يعبّر بدقة عن المعنى المراد، وسبب ذلك إمّا أنّ الفكرة لم تتبلور في ذهنه "المتكلم" بعد، أو أنّ الألفاظ لم تسعفه، فيضطر إلى الإعادة طالبا العفو لتبيّنها وتوضيحها، مستهلا حديثه و(بمعنى آخر) والحقيقة أنّ يقول بلفظ آخر لا بمعنى آخر، لأنه يعيد شرح نفس الفكرة بلفظ مناسب وموافق للمعنى المقصود.

في حين نجد بعض المتكلّمين أو الخطباء ممن أسعفهم الحظ، وامتلكوا ناصية اللغة يصولون ويجولون في أرجاء الفكر، ورحباته معبّرين تعبيرا دقيقا شافيا عن أفكارهم وعواطفهم كأنما يرون المعاني داخل نفوسهم، وأذهانهم فيتخيرون ما يلائمها من الكلمات، فيجيء حديثهم عذبا زلالا، ويتم التواصل بأعلى مستوياته،

---

[105]- ينظر: معجم اللسانيات الحديثة، عربي- انجليزي، د/سامي عيّاد حنا، ود/كريم زكي حسام الدين، ود/ نجيب جريس، مكتبة لبنان، ص: 100.

2- بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة ، نور الهدى باديس ، ص 124.

ويحصل الفهم الجيد بعيدا عن كل غموض أو لبس، وليس هذا فحسب بل قد يؤثر في قرائه أو سامعيه أيّما تأثير، فيعجبون به وينال تقديرهم له.

ومن خلال هذا تبرز وبشكل جلي قيمة الكفاية اللغوية والأداء في حقل الاتصال والتواصل اللغوي، ومنه يمكن القول إنّ عنصر الاقتصاد يرتبط بهذين العنصرين، فكلما زادت كفاية الفرد اللغوية، وكان متمرسا في توصيل أفكاره إلى غيره، استطاع أن يقتصد من جهده الذهني والفزيولوجي.

اقتصاد الأصوات واقتصاد الكتابة:

ذكرت فيما مضى أنّ اقتصاد الكلام يفوق اقتصاد اللغة لعدة اعتبارات: منها أنّ الكلام يصدر شفويا عن طريق الأصوات المنطوقة وبعدها يتمّ تسجيله، وبما أنّ الكلام بنوعيه المنطوق والمكتوب هما وجهان لعملة واحدة، فهل هذا يعني أن كلّ اقتصاد في الأصوات هو نفسه اقتصاد في الكتابة؟

أو بمعنى آخر هل اقتصاد الكتابة هو صورة طبق الأصل لاقتصاد الأصوات؟ أم أنّ هناك جانبا يكون فيه الاقتصاد بنسبة أكبر أو أقل من الآخر؟ وما موقف اللسانيات الحديثة من ذلك؟

تعتبر اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين البشر على اختلاف ألوانهم، وتنوع أجناسهم وهذه الوسيلة هي :<<أصوات في حروف، وحروف في كلمات، وكلمات في جمل اسنادية، وجُمل في نحو ونحو في بيان >>[106].

وخلال عملية تركيب الأصوات ونطقها يختلف الأمر من الشفهي إلى الكتابي فالخطاب غالبا ما يصدر شفويا من آليات إلى المستقبل عن طريق قناة التواصل ثمّ يتحوّل بعدها إلى خط مكتوب.

اللسانيات الحديثة وموقفها من اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة:

لكي نتعرّف عمّا إذا كان هناك تفاوت في نسبة الاقتصاد بين شقّي اللّغة المنطوق والمكتوب، لا بد أن نتطرّق إلى معنى كلّ منهما أولا، ثمّ موقف اللسانيين من ذلك.

التلفظ والكتابة: prononciation et écriture

تتجسد اللغة في شكل أصوات شفوية أوّل الأمر، وسرعان ما تنتقل إلى حروف ورموز مدوّنة إذا ما أردنا حفظها أو نقلها لغيرنا.

واللسانيات الحديثة أولت هذه الظاهرة الإنسانية بشقيها المنطوق والمكتوب أهمية بالغة وقدّمت المنطوق منها على المكتوب<< فليس لكلا الشكلين قيمة متساوية، فاللغة في الأساس أصوات وليست صورة مكتوبة، فكل إنسان عادي فسيولوجيا غير

---

[106] – الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، ص: 252.

أصمّ يقابل اللغة في طفولته ابتداءا في صورتها المنطوقة، ويتكلم محاكيا الأصوات ولا يتعلم الكتابة إلا في مرحلة متأخرة حين تتوفر له الشروط الثقافية (الكتابة) والاجتماعية (المدرسة)>> [107].

كما أنّ << الثقافات المكتوبة المبكّرة تكشف عن عدد من العناصر المشتركة، فقد ظهرت (الكتابة) في أحواض أنهار خصبة- في الفرات والنيل والنهر الأصفر- وكلما ظهرت الملكية ظهرت الرغبة في تسجيلها بشكل صحيح>> [108]، أي أنّ البشر كانوا يتكلمون لغاتهم شفهيا، ولم يسجّلوا منها شيئا إلاّ بعد رغبتهم في التملّك.

وذهب إلى هذا<< علماء اللسانيات الأمريكيون سابير وهوكت وبلومفيلد، حتى أنّ بلومفيلد قال: الشكل المكتوب ليس لغة، ولكنّه طريقة لتسجيل اللغة بوساطة إشارات ورموز مرئية>> [109].

ويعود السبب في تركيزهم على الجانب المنطوق أكثر من المكتوب للفروق الجوهرية الموجود بينهما، والتي تمثّل في:

1- الإرسال المنطوق إرسال متواتر يتميز بالتتابع الزمني والاستمرار، أما الإرسال المكتوب فيتميز بالتتابع المكاني، وهو قابل للإرجاع والاستدبار، بينما التتابع الصوتي غير قابل للإرجاع والاستدبار،<< ذلك أن الصوت لا يوجد إلا عندما يكون في طريقه إلى انعدام الوجود، فهو سريع الزوال، ويتم الإحساس بهذه الصفة عندما ألفظ كلمة "غيداء" قد اختفى، ولابد له أن يختفي، ليس ثم طريقة لإيقاف الصوت وتثبيته>> [110].

2- تفترض التبادلات المنطوقة وجود الآخر، في حين تتوجه التبادلات المكتوبة إلى شخص غائب، وبالتالي تفقد المرسلة المكتوبة ثلاث عناصر مهمة هي[111]:

أ- السياق الخارجي:

القول المنطوق يصدر من شخص حقيقي إلى شخص أو أشخاص آخرين في لحظة زمنية معينة، في موقف حقيقي يتضمن دائما ما يتجاوز مجرد الكلمات، وحين يحول هذا المنطوق إلى كلام مكتوب فإنه

---

[107]- المدخل إلى علم الغة، كارل ديتر بوتبخ، ترجمة وتعليق: د/ سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، (2003م) ص: 58، 59.

[108]- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، ص: 258.

[109]- ينظر: دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، ط1، دمشق، ص: 77.

[110]- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، (2001م)، ص: 63.

[111]- ينظر: المرجع نفسه، ص: 67.

يفقد هذا السياق أو الخطاب المستقل، ولهذا كثيرا المرسل هنا أن يعوّض هذا النقص بأن يذكر – قبل سرد النص– سياقه أو بعض مفرداته تحت عنوان جوّ النص.

ب– الأداء الصوتي:

الكلمة المنطوقة لها حتما أداء صوتي، من علو وانخفاض ونبر وتنغيم وغير ذلك وحينما تدوّن هذه الكلمة فإنها تفقد هذا الأداء الذي يحاول الكاتب أن يعوضه أو يدل عليه، باستخدامه علامات الترقيم، والتدخل في ثنايا النص بذكر عبارة دالة على هذا الأداء الصوتي (مثل بصوت حزين أو بنبرة حماسية...)<< لكن مثل هذه المحاولة لن يمكنها تعويض الأداء الصوتي تعويضا كاملا>> [112].

وإنما: << يمكن أن تشير علامات الترقيم في النص بدرجة أقلّ إلى نغمة الصوت فعلامة الاستفهام أو الفاصلة على سبيل المثال تدعو إلى رفع درجة الصوت قليلا... لكنها ليست أدلة كاملة>>[113].

ج– العلامة غير اللغوية:

هناك علامة أو علامات غير لغوية تستخدم في الاتصال الشفهي، تتمثل فيما يصاحب الصوت من هزّ الرأس، وتحريك اليد وملامح الوجه وغيرها، واستخدام هذه العلامات الجسدية إضافة إلى العلامة الصوتية يجعل المرسلة مخاطبة حاستي السمع والبصر،<< وهذا يتيح للاتصال الشفهي إمكانية أكبر وأفضل لإحداث تفاعل أشد، وتأثير أعمق، ولن تفلح الكتابة في تعويض هذه العلامة إلا بدرجة محدودة>> [114].

وبعد هذه المقارنة بين شقي اللغة المكتوب والمنطوق يتضح سبب اعتماد علماء اللسانيات الجانب المنطوق في الدراسة اللسانية واستبعاد الجانب المكتوب[*] منها.

كما نلاحظ أيضا أن الملفوظ من اللغة يتم به التواصل بشكل أفضل من المكتوب، وذلك أن التواصل يكون وجها لوجه بين المرسل والمستقبل، وهو ما يساعد على الفهم أكثر بحيث يكون الكلام مرفوقا بالإشارات، والرموز وملامح الوجه، ونبرة الصوت فلايذهب المستقبِل إلى التأويلات، أو المعاني البعيدة التي ربما لا يقصدها الباث نهائيا، كما أنه<< من اليسير أن تنجز اتصالا قويا عن طريق الاتصال الشفهي،

---

[112]– البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، ص: 68.

[113]– الشفاهية والكتابة، والترج أونج، تر: د/حسن البنا، عالم المعرفة، عدد (182) الكويت، (1994م)، ص: 90.

[114]– ينظر: البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، ص: 69.

[*]– يرى دي سوسير أن شهادة الكتابة يمكن أن تكون لها قيمة في الدرس اللساني، ولكن في حالة واحدة فحسب وهي لما تكون مفسرة، وشرط ذلك أن تكون قادرة على تمثل الأصوات المنطوقة تماما، وإلغاء إبهام فيها، وتكون ذات شكل واحد، يتبناه اللسانيون في كافة اللغات، وتسمى حينئذ كتابة صوتية، مبادئ في اللسانيات البنيوية، الطيب دبه، ص: 76.

حيث تحدث تغذية راجعة(**) من المستمع، فهو يستفسر عن كلمة أو فكرة أو عبارة لم يحسن فهمها، فيشرحها المتكلم وبالتالي تتضح الرسالة>>[115].

وإذا كان ذلك كذلك فهذا يجعلنا نقول إن نسبة اقتصاد الأصوات يفوق نسبة اقتصاد الكتابة، خاصة إذا علمنا أن<< الجانب المنطوق من اللغة يمارس حرية أكثر من الجانب المكتوب>> [116].

ولأن المرسل يخاطب شخصا حاضرا معه في الزمان والمكان، وبالتالي يستطيع أن يقلل من الجهد متى أحسّ، أو علم أن المعنى قد وصل إلى المتلقي، وعلى هذا يمكن أن أقول، إنه ليس كل اقتصاد في الصوت هو صورة طبق الأصل لاقتصاد الكتابة أو العكس، وعليه تكون اللغة الأفضل إذا كان هناك سبيل للمفاضلة "هي التي تؤدي وظيفتها التواصلية بأيسر ما يكون من الجهد"[117].

الاقتصاد والنظام اللغوي:

توصف اللغة بأنها نظام système ولتحديد مفهوم النظام اللغوي يتعين علينا أن نتطرق أولا إلى مفهوم الكلام، و "الكلام" كما يرى تمام حسان هو:<< عمل واللغة حدود هذا العمل، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك والكلام نشاط، واللغة قواعد هذا النشاط، والكلام حركة، واللغة نظام هذه الحركة>> [118].

و ما يمكن استخلاصه مما سبق أن تمام حسان وبالإضافة إلى تمييزه بين مصطلحي اللغة والكلام نراه قد سلّط الضوء على مفهوم النظام اللغوي، وهذا ما نستشفه من قوله: معايير قواعد نظام... فمن هذه العبارات مجتمعة يمكن القول إن النظام اللغوي هو مجموعة من الضوابط والقواعد، والمعايير والحدود التي تخضع لها لغة ما.

وهي بمثابة القانون الذي لا ينبغي خرقه، وفي هذا يقول دي سوسير:<< اللغة منظمة نحوية موجودة بالقوة في أدمغة مجموعة الأفراد إلا أنها لا توجد كاملة تامة عند الأفراد وإنما لدى المجموعة>>[119].

واللسانيات الحديثة << تنظر إلى اللغة على أنها جملة من البنى، أو بشكل أدقّ نظام عام يشتمل على مستويات متعددة من الأنظمة مستقلة ذاتيا، على الرغم من أنها يتفاعل بعضها مع

---

[115]- أسس تعلم اللغة وتعليمها، دوجلاس براون، تر: عبده الراجحي، وعلي أحمد شعبن، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط: (1994م)، ص: 137.

[116]- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عم، ص: 369.

[117]- الألسنية (علم اللغة الحديث)، ميشال زكريا، ص: 152.

[118]- ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، د/ تمام حسان، ص: 32.

[119]- محاضرات في الألسنية، فاردينان دي سوسير، تر: يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، (1986م)، ص: 25.

بعض...>> وعليه يمكن تحليل أي لغة وردّها إلى نظام الأصوات، ونظام من الكلمات المفردة والمركّبة، ومجموعة من المفردات بشكل عام يشمل النظام اللغوي عدة مستويات[120].

النظام اللغوي في العربية:

تصنف اللغة العربية ضمن اللغات السامية، ولها نظامها الخاص بها، وقواعدها التي تميزها عن غيرها، وهذا النظام اللغوي كغيره من أنظمة هذه اللغات، يشتمل على مستويات متعددة من الأنظمة التي يتعين على كل دارس لأية لغة من اللغات أن يحيط به ليتسنى له الوقوف على خصائصها وميزاتها، ويتشكّل النظام اللغوي في العربية من المستويات التالية[121]:

1- مستوى البنية الصوتية.

2- مستوى البنية الدلالية.

3- المستوى التركيبي .

ومما سبق نخلص إلى القول إن النظام اللغوي يتشكل في عمومه من مجموعة من الأنظمة التي تشترك فيها جميع اللغات البشرية، وإن كانت تختلف في جوهرها من لغة إلى أخرى<< وأن هذه الأنظمة وإن كانت متعددة، وذات مستويات مختلفة، فهي متماسكة فيما بينها ومتفاعلة مع بعضها البعض بصورة متكاملة، تظهر في نظام عام واحد.

و النظام اللغوي يمكن من خلاله التمييز بين لغة وأخرى، وعليه فهو عبارة عن أنظمة متعددة مرتبطة ببعضها، ومتفاعلة مع بعضها، كما أنها ذات مستويات مختلفة، فالنظام الصوتي: يتعلق بطبيعة الأصوات ومخارجها وصفاتها وتداخلها إلى غير ذلك، ونظام القواعد يتعلق ببنية الكلمات في اللغة وتحويلها واشتقاقها وميلها وإبدالها، وعلاقة المفردات ببعضها، ونظام البنية الدلالية لمعجم مفردات اللغة يتعلّق بدلالة الألفاظ على المعاني، أصلها وتطورها>> [122].

ومبدأ الاقتصاد اللغوي مرتبط بهذه المستويات جميعها، وهو سمة بارزة فيها، يقول أولمان كولماس:<< تعتبر مبادئ الاقتصاد مبادئ راسخة في النظام اللغوي على كل مستوياته>> [123].

وفي ما يلي تبيين بعض السمات الاقتصادية في هذه المستويات.

---

[120]- خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني، أحمد شامية، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط: (1991م)، ص: 44.

[121]- ينظر: في قضايا اللغة العربية، محمد عيد، ص: 23.

[122]- خصائص العربية والإعجاز القرآني، أحمد شامية، ص: 44.

[123]- اللغة والاقتصاد، أولمان كولماس، ص: 323.

الفصل الثاني : الاقتصاد اللغوي على المستوى الصوتي

- الاقتصاد اللغوي والمناسبة الصوتية
- مظاهر الانسجام الصوتي في القرآن الكريم
- التماثل
- التقريب الصوتي
- الهمزة بين التحقيق والتسهيل
- المخالفة بين الصوامت بالزيادة
- جهاز النطق والاقتصاد اللغوي
- الاقتصاد اللغوي والإمالة
- اقتصاد اللغة و التَّنغيم
- الاقتصاد والتنوين
- الإدغام
- التفخيم والترقيق
- الإقلاب
- الإخفاء و الإتباع

الاقتصاد اللغوي في المستوى الصوتي :

– مستوى البنية الصوتية:

اللغة كما يقول ابن جني <<أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم>>[124].

ومن هنا فالأصوات هي المادة الأساسية التي تقوم عليها كل اللغات البشرية << إلا أن النظام الصوتي يختلف من لغة إلى أخرى، على الرغم من أنّ معظم اللغات تكاد تشترك في الأصوات الأصلية أو بعدد كبير منها، بالإضافة إلى التشابه في المقاطع الصوتية>>[125].

و النظام اللغوي في العربية متميز عن بقية الأنظمة الصوتية في اللغات الأخرى وقد حضي هذا الجانب باهتمام اللغويين القدامى، إذ انبرى هؤلاء ومنذ بداية التأسيس لعلم النحو العربي على دراسة أصوات العربية من حيث مخارجها وصفاتها، بما يتلاءم ومعطيات علم اللغة الحديث.

يتكون النظام الصوتي في العربية من ثمانية وعشرين صامتا أو حرفا "consonnes" وثلاثة أصوات صائتة قصيرة "voyelles" وهي حركة الفتحة ـَ الضمة ـُوالكسرة ـِ وثلاثة أصوات طويلة هي[*]:
الفتحة الممدوة تا، الضمة الممدوة ـُو، الكسرة الممدوة ـِي[126].

ومن الاتصال بين الصامت والصائت يتشكّل ما يعرف في كافة اللغات بالمقطع syllabe، ففي كتب لدينا: كُ + تُ + بُنْ

وفي كتب الدرس يكون التقطيع كالآتي: كَ + تَ + بَدْ + دَرْ + سَ

---

[124]– الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 34.

[125]– خصائص العربية والإعجاز القرآني، ص: 47.

[*]– تتطابق الحركات القصيرة مع الطويلة في جميع الصفات إلا أنها تختلف عنها في مستوى مدة النطق.

[126]– الصوتيات والفونولوجيا، مصطفى حركات، ص: 77.

فأل الشمسية لا تنطق وإن كانت مكتوبة، ففي فالنطق ننتقل من حرف الباء مباشرة إلى الدال، وحرف الدال هو الآخر عبارة عن حرفين مدغمين مع بعضهما، ففي الصوت نسمع حرفا واحدا وأثناء التقطيع يبدو أنه مشكّل من حرفين.

وكثيرا ما تجتمع في اللفظ الواحد أصوات بينها تنافر صوتي يثقل على جهاز التصويت تداوله بدقة ووفاء، <<فيتناوله بضروب من التعديل والتبديل، ليقرّب بعضه من بعض ويقيم بينهما قناة مشتركة تسهّل الجريان الصوتي، إنها نزعة العناصر المتنافرة لشدة التباعد أو التماثل، إلى التقارب الذي يزيل التعثر.

ومن أمثلة ذلك: ازدهر ويزدحم وازدياد ، الأصل فيه أن تكون التاء بعد الزاي، غير أن الزاي مجهورة رخوة، والتاء مهموسة شديدة، وبينهما تنافر من جهتين فغُلِّبت صفة الجهر على الهمس، وأُبدِل التاء حرف مجهور شديد هو الدال، فأصبح بين الحرفين ضرب من التقارب يزيل العسر العلاجي وييسر الأداء>>[1].

كما أنه قد تحذف الصوائت القصيرة (الضمة، الفتحة، الكسرة) نحو قولنا: لم يكتبوا لم يكتبا حذف الصائت والصامت الذي هو حرف النون، فحذف الصوائت والصوامت في النظام اللغوي، يعدّ ملمحا اقتصاديا بارزا، وسمة دالة على الرغبة في اقتصاد الأصوات.

وسواء أكان ذلك عن قصد أو عن غير قصد من علماء العربية الذين قعّدوا لها، وأسّسوا بنيانها، فإن الدارس والمتمعن في النظام اللغوي للعربية يرى ثمة سمات اقتصادية واضحة وميل إلى تيسير نطق الأصوات المتنافرة أو المتباعدة.

الاقتصاد اللغوي والمناسبة الصوتية

يُعد المستوى الصوتي أول مستويات اللغة وذلك لأنَّ الكلام يتألف من ألفاظ والألفاظ تتشكل من الأصوات والأصوات المكونة للكلام يختلف التأليف بينها في الكلمات والجمل باختلاف المتحدثين باللغة.

فكثيراً ما يميل المتكلم إلى استبدال السهل من أصوات لغته بالصّعب الشاق الذي يحتاج إلى مجهود عضلي أكبر ،وحال الإنسان في هذا كحاله في شتى مناحي حياته يريد الوصول إلى غرضه و مبتغاه بأيسر السُبل، وبأقل التكاليف .

لقد شاع مصطلح"المناسبة" شيوعاً ملحوظاً في الدراسات البلاغية والنحوية كما شاعت مصطلحات أخرى قريبة منه في الدلالة منها: الانسجام الموسيقي، الإتباع والتوافق والمقصود بالمناسبة الصوتية<< هو تأثر أو تأثير أصوات الكلمة الواحدة بعضها ببعض كما يحصل هذا التأثير أيضاً عند اتصال الكلمات المتجاورة في النطق المتواصل ،والأصوات

—

1- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، ص: 159.

ليست كلها سواء فمن الأصوات ما هو سريع التأثر يندمج في غيره أكثر مما قد يطرأ على سواه من الأصوات ..>>(1).

والانسجام الصوتي هو جزء من نظام اللغة العربية، وذلك أننا لا نجد كلمة يتجاور فيها حرفان يصعب نطقهما إلاّ وغُيِّر أحدهما وهُذِّبَ حتى يصبح سهلا، وتتفق جميع أعضاء النطق على خلق نوع من الانسجام الحركي أثناء عملية النطق، فلا تجمع بين صوت شاذ وآخر،كما لا تجمع بين حركة مناقضة لأخرى، فيؤدي هذا الانسجام إلى خلق نوع من التوافق والتوازن في الكلمة الواحدة أو الكلمات المتجاورة، وفي هذا يقول فندريس: << ينشأ بين جميع الأعضاء التي تتعاون على التصويت نوع من الاتفاق الذي يتخذه إلى أن ينسجم مع الأعضاء الأخرى >>(2).

و في التنزيل الحكيم نجد ألواناً كثيرة من الانسجام الصوتي بين آياته الكريمة حيث لا يجدالقارئ لها أيّ صعوبة في تلاوتها أو ترديدها، فحروفه متناسقة مع بعضها البعض من ناحية المخارج والصفات والحركات بشكل بديع.

مظاهر الانسجام الصوتي في القرآن الكريم:

يتَّخِذ الانسجام الصوتي في القرآن الكريم مظاهر عدّة وطرائق مختلفة، فمنها التماثل والإتباع، التجانس، والتقريب والإمالة والحذف .

التماثل:

يُعد التماثل نوعا من أنواع الإدغام وهو <<أن يتفق الحرفان مخرجا وصفة كالباء في الباء، والتاء في التاء وسائر المتماثلين>>(3) فمتى تشابه حرفان تشابها تاما في المخارج والصفات نقول عنهما قد تماثلا، ويعني كذلك:<< تأثر المتجاورة بعضها ببعض تأثرا يؤدي إلى التقارب في الصفة أو المخرج تحقيقاً للانسجام الصوتي، وتيسيراً لعملية النطق، واقتصادا في الجهد العضلي>>(4).

1- الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،ص.145

2- اللغة ،جوزيف فندريس ،تعريب: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية (1950م) ،ص63.

3- شرح طيبة النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ،ص54

4- لحن العامة،د/ عبد العزيز مطر، طبعة دار المعارف(1981م) ،ص245.

فلكي يحدث الانسجام الصوتي أثناء عملية الكلام لا بدَّ أن تتسق الحروف وتنسجم مع بعضها البعض سواء أكانت في الكلمة أو في الجملة، وإذا تجاور حرفان متقاربان في المخرج مثل العين و الحاء وجب تغيير أحدهما ليسهل على اللسان النطق بها لأنّه << من العسير على اللسان أن ينطق بصوتين متجاورين وهما من طبيعتين مختلفتين لما في ذلك من جهد على أعضاء النطق >>(1).

وقد أطلق كريم حسان الدين على ذلك مصطلح"التحييد"وقال عنه<< هو تداخل أو ذوبان فونيم في فونيم آخر حتى يصير فونيماً واحدا في سياق صوتي معيّن ،أو بعبارة أخرى: إلغاء أو محو لفونيم معيّن نتيجة لتفاعله مع فونيم آخر يختلف معه في ملمح صوتي واحد على الأقل ،ويكون الفونيم الجديد الناتج عن عملية التحييد صورة جديدة أو وسطاً بين الفونيمين المحّول عنه والمحول إليه نتيجة عملية المماثلة>>(2).

وهذا المصطلح وُجد في العربية فقد ذكره سيبويه وأطلق عليه مصطلح "المضارعة" حيث وضع في الكتاب بابا سمّاه " باب الحرف الذي يضارع بها حرفاً من موضعه والحرف الذي يضارع به الحرف وليس من موضعه"(3) .

ومن الأمثلة التي يتماثل فيها حرفان كلمة"اذّكر" التي تتأثر فيها التاء بالذال بعدها فتصبح ذالاً والأصل فيها "اذتكر"ولما تأثرت التاء المهموسة بالذال المجهورة بعدها تحوّلت إلى ذال فأصبحت اذَّكر مثل قوله تعالى: ﴿ واذّكر بعد أمةٍ ﴾ (4) ،وهو مذَّكَّر .

قال سيبويه<<ومَنْ قال مُطَّعّن قال مُذّكّر وقد سمعناهم يقولون ذلك">>(5) أي سمع العرب الفصحاء ينطقون بذلك.

وقال ابن جنّي"قال بعضهم في ادّكر اذّكر"(6)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا القُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدّكِر ﴾ (7).

1- في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث ،د/ مهدي المخزومي ، مطبعة مصطفى الحلبي ،ط1(1966) ص.04

2- أصول تراثية في علم اللغة،د/كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط2، (1985م) ،ص191.

3- الكتاب،سيبويه، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت (1983م)،ط3 ،ج4، ص477.

4- يوسف: 45 .

5- الكتاب ،ج4،ص .469

6- سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، تح: مصطفى السقا وزملائه القاهرة ،(1954م) ،ج190/1.

7- القمر: 17 .

وقال الخليل: يقولون"هل من مدّكر" فأصله مذتكر اجتمع ذال وتاء ومخرجهما قريب من بعض، فلما ازدحمتا في المخرج أُدغمت التاء في الذال فأعقبت التشديد فتحولت دالا"(1).

وهذه العلة الصوتية تُظهِر حسّ العربي المرهف الذي يكره توالي الأمثال والمتقاربات من الحروف، فيقوم بعمليات تجميلية إما بالحذف أو القلب أو النقل ليجعل حروف الكلمة متجانسة ومنسجمة مع بعضها البعض .

الانسجام بين حروف المباني :

تتميز بنية الكلمة بحركية داخلية، تتمثل في التفاعلات الصوتية بين وحدات بنائها حيث يقترب بعضها من بعض مرة ويبتعد مرة أخرى،ويتجاذب تارة، ويتنافر تارة أخرى.

ففي بنية الكلمة المفردة تعتبر حروف المباني (الصوامت) اللبنات الأساسية في بنائها هذه الحروف في تركيبها فيما بينها، وفي انضمام بعضها إلى بعض لتشكيل الكلمة، لا تألف جميعها فيما بينها في كل الأحوال، فهناك ما يأتلف مع كل الحروف وهناك ما يأتلف مع بعض دون البعض الآخر.

وفي الحالة الأخيرة يُخلق نزاع ما بين التي لا تأتلف بعضها ببعض، إذ يسعى كل واحد منها إلى استقراره وسكونه، إمّا بالتأثير على الحروف الجارة له وجعلها تتصف بمواصفاته وخصائصه، ومن ثم يمكن أن يقبل مجاورته، وإلاَّ فإنه يحاول التخلص منها، إمّا بإبعاده من الجوار، أو بإسقاطه نهائياً من البنية .

وهذا ما يتمثل في الدراسات الصوتية، في ظاهرتي التقريب والتبعيد الصوتيين اللتين تعتبران ذات أهمية في تحقيق الاقتصاد اللغوي، من خلال بعض الآليات الصرفية التي نحاول التطرق إليها، بتحديدها وذكر بعض الأمثلة عنها كالتاء في صيغتي"تتفعّل" و"تتفاعل": إذ تكره العربية توالي المقاطع القصيرة المجْهِدة لذلك تلجأ إلى اختزالها عن طريق إسقاط الحركة من أحدهما لتشكِّل من المقطعين المتتابعين مقطعاً متوسطاً مقفلاً (وبهذه الطريقة تُحوّل كل من " تَتَفَعَّل" و" تَتَفَاعَّل" إلى تَتْفَعّل و تَتْفَاعَّل" في لغة التخاطب)(1).

1- كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد، دراسة تحليلية ،د محمد إبراهيم عباده ، منشأة المعارف بالإسكندرية ،ص 20.

2- ينظر : أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، د/ فوزي الشايب عالم الكتب الحديث،أربد الأردن ط1(2004م) ، ص207.

ومن أمثلة ذلك الفعل تطهّر- يطَّهَّر والأمر منه تَطَهَّرْ أو اطَّهَّرْ قال تعالى:﴿ وَإِنْ كُنْتُم جُنُباً فاَطَّهَّرُوا ﴾ النساء، وقال أيضاً:﴿ وَاللهُ يُحِبُّ المطَّهِّرِين﴾ (1).

وقد علّل "رمضان عبد التواب" سبب مماثلة التاء للطاء بأنه متى جاءت التاء بعد صوت صفيري أو أسناني حدثت مماثلة كلية بين التاء وبين هذا الصوت الصفيري أو الأسناني(2)، ولا تقتصرهذه المماثلة على صيغة الأمر أو المصدر فقط، بل تطّرد هذه العلة لتشمل الماضي والمضارع، وقد وردت في القرآن في العديد* من المواضع مثل:

(يتطّوف) - (يَطَّوَّفُ) قال تعالى: ﴿ وَلْيَطوَّفُوا بِالبَيْتِ العَتِيق ﴾ (3).

وقال تعالى مخبرا عن رد قوم ثمود لنبيهم : ﴿ قَالُوا اِطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ (4).

وكذلك (يتصّدق) - (يصّدّقُ) قال تعالى: ﴿ فأصَدَّق وَأَكُن مِّنَ الصَّالحِين﴾ (5).

وكذلك (يتضرَّع) - (يضَّرّع)، قال تعالى: ﴿ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُون﴾ (6).

والملاحظ في الأمثلة المذكورة أنّ حرف التاء المهموس يصعب نطقه بجنب الطاء والدال والضاد و...فلذلك تُقلب التاء إلى طاء ليتماثل الحرفان، ونظراً لوجود طاءين فلابدّ من الإدغام، وفي هذا يقول الشيخ خالد الأزهري << إنما أبدلت تاء الافتعال إثر المطبق طاءً لاستثقال اجتماع التاء مع الحرف المطبق لما بينهما من اتفاق المخرج وتباين الصِّفة، إذ التاء من حروف الهمس ، والمطبق من حروف الاستعلاء ، فأبدلت التاء حرف استعلاء

—

1- التوبة: 108 .

2- التطور اللغوي ومظاهره وعلله وقوانينه ، عبد التواب رمضان، مكتبة الخانجي ،(1981 م) القاهرة، ص29.

3- الحج: .29

4- النمل:.47

5- المنافقون: 10.

6- الأعراف: 94 .

(*)- من المواطن التي حُوِّل فيها المقطعان المتتابعان إلى مقطع متوسط في القرآن الكريم الكلمات التالية :

تتظهّر . تظَّاهَّرُ قال تعالى: ﴿ تَظَّهَّرُونَ عَلَيهِم بِالإِثْمِ وَالعُدْوان ﴾ البقرة :85 .

- يتذكّر. يذَّكر قال تعالى: ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُوْلُوا الأَلْبَاب ﴾ البقرة: 269 .

- يتسمّع . يسَّمَّع قال تعالى: ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى المِلأ الأَعْلى ﴾ الصافات: 80 .

- يتزَّين . يزَّيَّن قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازّْيَّنَتْ ﴾ يونس: 24 .

- يتدَارأ . يدَّارأ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُم نَفْساً فَادَّارَأْتُم فِيْهَا ﴾ البقرة : 72.

- تتساقط . تسَّاقط قال تعالى: ﴿ تَسّاقَط عَلَيْكِ رُطباً جَنيًا ﴾ مريم: 25 .

- تدّارك . ادَّارك قال تعالى: ﴿ بَلْ إِدَّارَكَ عِلْمُهُم فِي الآخِرَة ﴾ النمل: 66.

من مخرج المطبق وأُختيرت الطاء لكونها من مخرج التاء >>(1).

وهكذا تقلب التاء طاء للأسباب التالية :

1– أنّ التاء مهموسة وقبلها حرف مطبق مستعل، فيجد اللسان ثقلاً وصعوبة في النطق بهما متجاورين، فاللّسان يصعد ويهبط ثم يُعيد الكَرَّة مرة ثانية، وحتى يتم التخفيف على اللسان تُقلب التاء طاء، وتُدغم الطاء في أختها ليكون عمل اللسان من وجه واحد فيصعد مرّة واحدة، وهو ضرب ظاهر من ضروب الاقتصاد اللغوي.

2– قلبت التاء طاء بصفة خاصة من بين الحروف المطبقة المستعلية لأنها من مخرج التاء فناسبها أن تقلب إليه، وليس إلى حرف آخر، وهذا النوع من المماثلة يسميه اللغويون "بالتماثل التقدمي (المقبل) rogrossive" وهو أن يتأثر الصوت الأول بالثاني، وهناك نوع ثان هو الرجعي أو التخلفي progrossive وفيه يتأثر الصوت الثاني بالأول(2).

3– التقاء الحرفين التقاءً مباشراً حيث لم يفصل بينهما فاصل.

فمثلاً ادّعى، اذدكر، ازداد، من دعا، ذكر، زاد، وهي في بنيتها العميقة: اتدعى، اذْتكر ازتاد، تجاور فيها صوتان مهموسان، الأول مطبق والثاني مستفيل، فقُلبت التاء إلى نظيرها المطبق فصارت "اصطبر" قال تعالى: ﴿وأْمُر أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِر عَلَيهَا﴾ (3).

ومن أمثلة التأثر الرَّجعي (بل ران) التي وردت في قوله تعالى: ﴿ كلاَّ بل رَّان ﴾ (4).

فقد قُرئت الآية بإدغام اللام في الراء "برّان"، إلا الإمام حفص فله سكتة لطيفة على لام بل، والسكت يمنع الإدغام (5).

وقوله أيضاً: ﴿ وَيَغْفِر لَّكُم ذُنُوبَكُم ﴾ (6)، بإدغام الراء في اللام " يغفلّكم"، وما نستخلصه مما مضى هو أنه متى تجاور حرفان في كلمة أو كلمتين؛ وكان عمل اللسان فيهما صعباً أو فيه مشقة وثقل يتم تحويله ونقله إلى حرف آخر يماثل الحرف الأقوى

—

1– شرح التصريح على التوضيح/ خالد الأزهري، مطبعة عيسى الحلبي، مصر بدون تاريخ ج3، 391.

2– الأصوات اللغوية، د/ ابراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة،ص: 146،147.

3– طه : 132.

4– المطففين: 14.

5– البرهان في تجويد القرآن ، محمد الصادق قمحاوي ، دار العقيدة ،ط2 ،(ه1426، 2005 م)، القاهرة ، ص28 .

6– آل عمران:31 .

وهذا ما يُسهِّل ويخفف على اللسان النطق بهما ،يقول إبراهيم أنيس<< والغرض من هذا التأثر هو التقريب بين الصوتين المتجاورين ما أمكن تيسيراً لعملية النطق واقتصاداً في الجهد العضلي>>(1).

ومن أمثلته أيضا قوله تعالى: ﴿ بل ادّارك علمهم في الآخرة ﴾ (2).

والبنية السطحية لهذه الكلمة هي:" تداركوا" فأدغموا التاء في الدال فصارت دالاً ساكنة حينها لم يصلح الابتداء بساكن فأدخلوا ألفاً يقع بها الابتداء .

وهذه القاعدة ليست مطردة في بابها اطِّرادا كُليا لأنّ قضية نطق الحروف مسألة ذوقية يختلف فيها الناس كثيرا، فما يسهل النطق به عند شخص ما قد يصعب على غيره، حسب ما تمرّنت عليه الألسنة واعتادته، يشهد على ذلك الاختلاف في القراءات القرآنية، ومنه قوله تعالى مخبرا عن نبيَّه موسى- عليه السلام-:﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِي وَرَبِّكُم مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَومِ الحِسَاب ﴾ (3)،" فقد قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام الذال والتاء لقربهما " عُتُّ"، وقرأ الباقون بالإظهار، لأنّ الذال والتاء غير متجانسين (4).

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ قَالُوا بَلْ نتّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ (5)، قرأ الكسائي بإدغام لام "هل" و"بل" عند التاء والثاء والطاء والظاء، والصاد، والزاي، والسين، والنون نحو: " بلْ نتبع " و" هلْ ترى "من سورة الملك 3 ،فتكون القراءة على النحو التالي: "بنّتبع" و" هتّرى "، وقرأ الباقون جميعا ذلك بالإظهار(6).

وحجة الكسائي أنّ هذه اللام لما كانت ساكنة في الخِلقة أشبهت لام المعرفة- أي لام التعريف- فلذلك تدغم في تلك الحروف كما تدغم لام المعرفة عندهنّ، وحجة مَنْ

أظهر لام " هل " و"بل" فلم يدغم لامَها في شيء من تلك الحروف، لأنّ هذه اللام

---

(1)- الأصوات اللغوية د/ إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ص:149،150.

(2)- النمل: 66.

(3)- غافر :27 .

(4)- ينظر: التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية ، هادي نهر ، عالم الكتب الحديث 2008، ص79 .

(5)- البقرة: .170

6- حجة القراءات للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن أحمد بن زنجلة (ت 403هـ) تح: سعيد الأفغاني ط5 ، مؤسسة الرسالة بيروت ، (1997 م) ، ص121، 122.

تفارق لام المعرفة من جهة أنّ كلّ واحدة منهما من حرف- أي من كلمة- يسكت عليه، والذي لقيها حرف آخر من كلمة أخرى ، ولذا يضعف مبدأ الإدغام الذي يكون في الحرف الواحد الذي لا يُفصل بعضه عن بعض >>(1).

تناسب الأصوات:

الميل إلى الخفة والسُهولة وإلى التَّناسق شائع بين النَّاس حتَّى في نطق اللُّغة، ولذا فعند تجاور الأصوات المرققة والمفخمة- مثلاً في كلمة ما يميل ناطق اللّغة- شَعَر أو لم يَشْعُر- إلى تغليب إحدى الصّفتين على الأخرى.

وهنا تُغلَّب الصِّفة القوية، فتأخذ الأصوات المرققة صفة الفخامة، فتنقلب إلى مجانستها المفخمة، تحقيقاً للانسجام والمماثلة بينها، وبذلك يخف نطقها، ومن صور هذا التَّناسب:

الميل في نطق السين وهي مهموسة إلى صفة الجهر، وذلك مثل كلمة "مسرح"، وقعت السين بين حرفين مجهورين وهما الميم والراء ،فتأخذ صفة الجهر وتُسمع في النطق صادا تحقيقا للانسجام بين الحروف .

وفي كلمة "سخّر" أثرت الخاء المستعلية في السين المنفتحة قبلها فحوَّلتها إلى نظيرها المفخّم وهو الصاد فصارت صخَّر، وسبب ذلك هو << هروبهم من الحركتين المتناقضتين القريبتين من بعضهما، نزول اللسان مُستفلاً نحو قاع الفم مع الصوامت المنفتحة ثم صعوده مطبقاً أقصى الحنك مع الصوامت المستعلية، وجنوحهم إلى العمل من وجد واحد واختصار العمليتين المكلفتين في حركة واحدة اقتصاداً في الجهد العضلي المبذول>>(2)

وكما يتأثر المهموس بالمجهور كذلك يتأثر المجهور بالمهموس ، فكلمة " همس" مثلا وقع فيها الميم وهو مجهور بين مهموسين وهما : الهاء والسين، وهو السبب الذي جعلنا نميل به إلى الهمس<<وهو في الواقع اقتصاد في عملية الانقباض والانبساط في المزمار الذي يفتح مع المهموس ويضيق مع المجهور ليتذبذب الوتران الصوتيان>>(3).

1- ينظر: حجة القراءات للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن أحمد بن زنجلة (ت 403هـ) ص121، 122.

2- الاقتصاد الموروفولوجي، أحمد الطيبي، ص:84،85.

3- الاقتصاد الموروفولوجي ، ص 82.

ومن صور التناسب بين الحروف أيضا قلب الصاد زايا كما في قوله تعالى:﴿ يومئذٍ يصْدُر النَّاسُ أَشْتَاتاً ﴾(1)، فالصاد صوت مهموس يفقد صفة الهمس ليماثل الصوت المجهور الذي يليه فيصبح المهموس مجهوراً.

ويرى سمير استيتية أنَّ هذه العملية من الناحية النطقية ليست توافقاً بين صوتين فحسب، بل هي أكثر من ذلك بكثير، فهي مرتبطة بميكانيكية النطق فالوتران الصوتيان في حال نطق الأصوات المهموسة يبتعد

أحدهما عن الآخر حتى تكون المسافة بينهما كافية لمرور الهواء بحرية وطلاقة فلا يتذبذب الوتران الصوتيان، وتتراوح سرعة الهواء مابين 200 إلى 300سم3/ث.

أمَّا في حال نطق الأصوات المجهورة فالوتران الصوتيان يقترب أحدهما من الآخر حتى تكون المسافة بينهما غير كافية لمرور الهواء بحرية وطلاقة، فيفرِّقهما الهواء ثمَّ يقتربان ثمّ يبتعدان، وتكون سرعة الهواء مابين 200 إلى 700سم3/ث.

ومعنى ذلك أنَّ تغيّر نطق الصاد ليصبح مجهوراً عند مجاورته الدال في" يصدر"كان بسبب السرعة في عمل الوترين الصوتيين، وبسبب ديناميكية الهواء في الوضعين المختلفين اللذين يتخذهما الوتران الصوتيان جهراً وهمساً(2).

وقد قام سمير شريف استيتيه بقياس الترددات لنطق كلمة "يصدر" بهمس الصاد ثم بجهرها، أي بجعلها زياً مُفخمة مستخدماً في ذلك الراسم الطيفي المحوسب، فتبين له أنَّ نطقها مجهورة يُخفف من ترددها، ومن بين النتائج المتوصّل إليها في ذلك ما يلي(3):

1- عند نطق الصاد مهموسة (أي بنطقها على الأصل في "يصدر" بلغت ترددات الصوت في المستوى الترددي الأول 22هرتز، أمّا عند نطقها زياً مفخمة فقد بلغت ترددها في المستوى الترددي الأوّل 2,4 هرتز أي بفارق 18هرتز، أي أنَّ ترددات الصاد تقل في المستوى الترددي الأوّل عند نطقها مجهورة.

2- بلغ أعلى تردد للصاد مهموسة في "يصدر"487 هرتز، وبلغ أعلى تردد عند نطقها

1- الزلزلة : 06 .

2- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية – منهج لساني معاصر ، د/ سمير شريف استيتية ، عالم الكتب الحديث (2005م)، ص: 210، 211.

3- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية ص:211.

زياً مفخمة 428 هرتز بفارق مقداره 59هرتز، وهذا يعني أنّ أعلى تردد للصاد في "يصدر" يقل عند نطقها مجهورة.

وقد نبّه اللغويون منذ القديم على أهمية التآلف الصوتي وجعلوه أساساً لفصاحة الكلمة فانسجام الحروف وتآلف مخارجها شرطان لتحقيق سهولة النطق وعذوبته وسلاسة اللفظ وجزالته، ومن هنا جاءت دعوة الرماني إلى مراعاة التلاؤم وهو<< تعديل الحروف في التآلف... وكلّما كان أعدل كان أشد تلاؤماً، وأمّا التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد و القرب الشديد،وذلك أنه إذا بَعُد البعد الشديد كان

بمنزلة الطفر ،وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد، لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه وكلهما صعب على اللسان، والسهولة من ذلك في الاعتدال >>(1).

وبناء الأصوات في الكلمة والكلمات في الجمل يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع ظلال المعاني المعبِّرة عنها، وهذه الأخيرة هي التي توقد المشاعر الفياضة وتحرّك جميع الحواس وتجعلها حاضرة لتعيش الحدث وتراقب عن كثب مجريات الواقعة .

وقد لاحظ الدارسون أنّ أكثر الأصوات تأثيراً حروف المدّ واللين التي تمتاز بخصائص موسيقية تجعلها أقدر على إحداث تأثيرات نفسية أشبه بالتأثير الموسيقي الذي يحدثه اللحن الموسيقي .

وتبدو أهمية حروف المد واللين فيما تحدثه من تلوُّن في الإيقاع بين الانخفاض والارتفاع ينجم عن طولها المقطعي المنساب مع هواء الزفير مما يبطئ حركة الإيقاع و يهدِّئ من توتره دون أن تؤثر تلك الأصوات على صفات الأصوات السابقة لها أو اللاحقة.

<< فهي تحافظ على العلاقات الطبيعية بين الأصوات الساكنة فنحس بوجودها دون أن نقف عائقاً بينها، ومن هنا كان لها دور في منح الإيقاع صفات هارمونية مميزة شديدة

التأثير في تلوينه وإعطائه خصوصيته، إذ إنّ كل حرف من حروف اللين تظهر له نغمة واضحة في النطق والإنشاد >> (2).

1- النكت في إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، الرماني ، ص96.

2- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ،د/ ابتسام أحمد حمدان ،مراجعة وتدقيق : أحمد عبد الله فرهود ، دار القلم العربي ط1، (1418هـ ،1997م)، حلب سوريا ،ص155.

وأصوات اللين لا تبقى على حالها عند تجاورها مع الأصوات الساكنة إذْ تتغير إذا تغيّر الساكن قبلها، وعند حدود العبارة أو نهاية البيت الشعري يكون للوقف عليها أثر موسيقي كبير إذْ تعمل أصوات المد واللين على تخفيف حدة المقاطع الإيقاعية الناجمة عن تتابع الأصوات الساكنة، وتمنحها صدى موسيقياً يؤثر على إيقاعية الصوت الساكن ويفتح أمامه صدى أوسع ، مما يساعد في إبرازه ووضوحه في السّمع.

فالامتداد عند نهاية العبارة يسمح للمتكلم (القارئ) بمد الصوت وترجيع التنغيم وتطريبه الأمر الذي لا يحدث مع انتهاء المقاطع بحرف الساكن،وإذا انفرد الصوت الساكن عند الوقف في نهاية العبارة أو الجملة وَضُحت حدّة الضربات الإيقاعية نهاياتها(1).

الهمزة بين التحقيق والتسهيل:

الهمز في اللغة << الدفع بسرعة تقول همزت الفرس همزاً إذا دفعته بسرعة، وسُمِّيَ الحرف المعروف همزة لأنَّ الصوت يُدفع عند النطق به لكلفته على اللسان، والنبر مرادف عند الجمهور للهمز>>(2).

تقول نبرت الحرف نبراً إذا همزته، والتحقيق والتسهيل والتبديل مصادر لحقق وسهّل وبدّل كالتعليم مصدر "لعلم"، والهمز عند القرّاء واللغويين حرف مجهور شديد منفتح منسفل لا يخالطها نفس (3).

والتحقيق هو الأصل في الهمز قال سيبويه :<<وأما الذين لا يخففون الهمز فيحققونها جميعا ولا يُدخلون بينها ألفا >>(4).

وتخفف الهمزة إذا سبقها حرف أو أكثر، والسبب في ذلك هو أنَّ الهمز في النطق به تكلف، أي مشقة وصعوبة لكونه حرفاً قوياً بعيد المخرج حتى شبَّهه بعضهم لأجل ذلك

—

1- ينظر: الأسس الجمالية، ص156.

2- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مَقَرْ الامام نافع للعلامة الشيخ سيدي إبراهيم المارغني ،دار الفكر للطباعة والتوزيع (1415هـ، 1995م)، بيروت لبنان،ص52/51 .

3- ينظر : علم قراءة اللغة العربية ، د حسني عبد الجليل يوسف ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ط2، (1426هـ ، 2005م) ،ص246 .

4- الكتاب ، سيبويه ، تح: عبد السلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (1973)،ج1، 551.

بالتهوّع أي التقيؤ ، وبعضهم بالسعل فلم يبقوه على أصله وهو التحقيق.

و سهَّله آخرون قصداً إلى تخفيفه كما تُسهل الطريق الصعبة والعقبة المتكلف صعودها وتغييرهم له أنواع قال ابن يعيش:<< فالإبدال بأن تزيل نبرتها فتلين، فحينئذ تصير إلى الألف والواو والياء ، على حسب حركتها

وحركة ما قبلها ..وأما الحذف فأن تسقطها من اللفظ البتة، وأما جعلها بين بين أي: بين الهمزة والحرف الذي منه حركتها، فإذا كانت مفتوحة تجعلها بين الهمزة والألف ، وإذا كانت مضمومة تجعلها بين الهمزة والواو وإذا كانت مكسورة تجعلها بين الهمزة والياء >>(1)، ومما قاله ابن يعيش يتضح أن تغييرهم له على ثلاثة أنواع:

1- إبداله من جنس حركة ما قبله، وجعلوه حرفَ مدٍّ محضا، أي خالصاً من شائبة الهمز

2- أوحذفه وهو نوعان : حذفه مع حركته ويعبر عنه بالإسقاط.

3- تسهيله بين بين مثل قوله تعالى: ﴿ حتى إذا جاء اشراطها ﴾ .

وأشهر من روي لهم تخفيف الهمز أبو عمرو، وورش عن نافع، وتُبدل الهمزة بحسب حركة ما قبلها ، فإذا سُبقت بضمة تُبدل واوا ، وإذا سُبقت بكسرة تُبدل ياء ، ومن أمثلة إبدال الهمز واوا في رواية ورش عن نافع قوله تعالى: ﴿ ومنهم من يقول ايذن لي ﴾ (2) حيث تُقرأ "يقولو ذَنَ"ومن إبدالها ياء قوله تعالى: ﴿ فليودِّ الذي أُوتمن ﴾ (3)، حيث تقرأ" الذيتُمِن"(4)،وقوله تعالى : ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ اِءْتُونِي ﴾ (5) ، تُقرأ " اِيْتُونِي "،(6) وقوله تعالى :﴿ الهُدَى اِيْتِنَا ﴾(7) .

أما الهمزة الأولى:

فلا تكون إلاَّ مفتوحة ،وصُوّر اجتماع الهمزتين في كلمة ثلاثة أنواع:

1- شرح المفصل لابن يعيش ، بيروت ،دار الكتب ، ج8، ص 107 .

2- التوبة : 49 .

3- البقرة :283 .

4- ينظر : علم قراءة اللغة العربية ، ص248.

5- يونس: 79 .

6- النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، ج1، 351.

7- الأنعام : 71 .

مفتوحتان: نحو: أَأَنذرتهم، أَأَلدُ، فورش يُبدل الثانية منهما ألفا، وقالون يُسهِّلها ويُدخل ويدخل قبلها ألفا " (1) وهنا يرى سمير شريف استيتية أنّ الهمزة الثانية لم تُبدل ألفا وإنما

سقطت وبقيت حركتها ، فاجتمعت الفتحتان فأصبحتا ألفا هكذا : أ ـَ أ ـَ ل ـ د ـ أ ـَ ـَ ل ـِد " آلد" (2) .

وسواء أُبدلت همزة أم سقطت وبقيت حركتها المهم أنّه لا ينطق بهما متجاورتين تجنبا للثقل الحاصل لاجتماعهما .

النوع الثاني : أن تكون الأولى مفتوحة والثانية مضمومة، مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّؤُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُم ﴾ (3)، وقوله تعالى: ﴿ أَؤُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا ﴾ (4) ﴿ وَجَعَلُوا الملاَئِكَةَ الذِّيْنَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَؤُشْهِدُوا خَلْقَهُم﴾ (5).

فقالون كما يرى القرّاء يسهِّل الهمزة الثانية، وعليه تكون القراءة " أَ.نزل" " أ. شهدوا " وهذا التسهيل في حقيقته الصوتية حذف للهمزة الثانية مع بقاء حركتها.

النوع الثالث :أن تكون الأولى مفتوحة والثانية مكسورة، مثل قوله تعالى :" أَإذا متنا" " أَإله مع الله" ، " أَ ئِنكم" ، "أَئِنك"،" أَئِنَّا" ،" أَئِن لنا لأجراً"، " أَئِن ذُكِّرتُم " ، "أَئِمة" ، " أَّئِفكا".

فنافع لا يُسَهِّل أولهما بل يحققهما على الأصل إلاَّ أن يكون قبلها ساكن، بينما ورش ينقل حركتها نحو: " قل أَأنتم " ،" قل أَأنبئكم " ، " قل أَأنكم "(6)

أما الدرس الصوتي الحديث فيرى أنّ الهمزة لم تُسهّل ، ولكنها حُذفت وبقيت حركتها هكذا :أ ـَ إ ـِ ذا ــ أ ـَ ـِ ذا (أ ـِ ذا)(7).

و السبب في تسهيل الهمزة الثانية وجعلها بين بين هو التخفيف من حدتها وخلق نوع

1- النشر ،ج1، ص 363 ،.364

2- ينظر : القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية ، د. سمير شريف استيتية ،ص 173

3- آل عمران: 15 .

4- سورة ص : .08

5- الزخرف : .19

6- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص53.

7- القراءات القرآنية بين العربية ، والأصوات اللغوية ، ص 174.

من الانسجام بينها وبين الحرف المجانس لحركتها، فتكون المفتوحة بين الهمزة والألف والمضمومة بين الهمزة و الواو ، والمكسورة بين الهمزة والياء .

أمّا المصريون فإنما رووا عن أبي يعقوب الأزرق عن ورش إبدالها ألفاً لانفتاح ما قبلها فتحصل في كل من المضمومة والمكسورة بعد المفتوحة وجه واحد، وهو لتسهيل بين بين لقالون و ورش (1).

وذكر صاحب النجوم الطوالع أنّ التسهيل في الثانية فقط لقالون، والتسهيل والإبدال ألفا لورش، والوجهان مقروء بهما، والمقّدم الإبدال لأنّه أقوى من جهة الرواية .

و تُمُدَّ الألف المبدلة من الهمزة في المفتوحتين مداً مشبعاً ؛ يعني إذا وقع بعدها ساكن مثل:" أَأَنْذرتهم" لأنها ساكنة، والسّاكن الذي بعدها لازم، فيكون مدُّها لازماً ، فإذا وقع بعدها متحرك وذلك في موضعين " أَأيد " هود و" أَأَمنتهم" الملك، فليس إلاَّ القصر لعدم الساكن بعدها.

ووجه التسهيل أنّ الهمزة المفردة مستثقلة لذلك خفّفوها بجميع أنواع التخفيف فاستثقال اجتماع همزتين أولى، و اختصّت الثانية بالتخفيف لأنها هي التي قوي بها الثقل وخُصّت بالتسهيل بين بين دون غيره لأنه هو الأصل في أنواع التغيير لبقاء أثر الهمزة معه(2).

والدّافع من إبدال الثانية من المفتوحتين ألفا عند الإمام ورش المبالغة في التخفيف فراراّ من الهمزة كلِّها وبعضها إلى ما هو خفيف جداً ،وهو الألف الليّنة ، وخُصَّ الثانية من المفتوحتين بالإبدال دون المضمومة والمكسورة لأنَّ النطق بالألف أخف من النطق بالواو والياء .

المخالفة بين الصوامت بالزيادة :

إذا التقى صامتان في العربية فإنه يتم المخالفة بينهما بإطالة حركة الصامت الأوّل ليكون في طوله فسحة زمنية، وفاصل يخفف من ثقل تتابع مثلين في السياق، ومن أمثلة

1- ينظر : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص.53

2- ينظر : المرجع نفسه ، ص53.

ذلك: مدّ حركة همزة الاستفهام عندما تلتقي مع همزة الكلمة مثل : أأنت ؟ تُنطق " آأنت" أإذا ، تُنطق "آإذا.." .

وما ذهب إليه علماء اللسانيات في العصر الحديث هو عينه ما عمل به قدامى النحاة والقرّاء، قال سيبويه :<< ومن العرب ناس يُدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفا إذا التقتا، وذلك أنهم كرهوا التقاء همزتين ففصلوا كما قالوا: اخشينانّ، ففصلوا بالألف كراهية التقاء هذه الحروف المضاعفة فهؤلاء أهل التحقيق >>(1).

ورغبة في طلب المزيد من التخفيف ذهب قالون إلى الفصل بين الهمزتين، وأدخل بين الهمزة المحققة والمسهّلة ألفا في قوله تعالى: ﴿ أَأُشْهِدُوا خَلْقَهُم ﴾(2)، فيقرأها"آ أُشهدوا وفصل بين الهمزتين بالمدّ لأنَّه رأى أنّ الثانية وإنْ خُفِّفَت فهي غير خالية من الثقل لكونها في حكم المحقّقة المتحركة، ففصل بينهما وبين التي قبلها ليمنع من اجتماعهما.

وقد أقرّ ابن يعيش بذلك فقال:<< إذا اجتمع همزتان ازداد الثقل ووجب التخفيف، فإذا كانت في كلمة واحدة كان الثقل أبلغ ووجب إبدال الثانية إلى حرف لين، نحو : آدم أصله أأدم >>(3).

ونقل النحاس (ت328هـ) عن أبي حاتم قوله :<< ويجوز أن يدخل بينهما ألفًا يُخفف الثانية، أبو عمرو، ونافع يفعلان ذلك كثيراً>>(4).

وفي أآنذرتهم اجتمعت ثلاث همزات، همزتان في اللفظ، الأولى للاستفهام والثانية زائدة والثالثة هي فاء الكلمة المبدلة ألفا على القاعدة، فخفّف نافع الثانية بالتسّهيل بين بين

وترك قالون إدخال المد بين الهمزات لأنّه لو فعل ذلك لصار اللفظ في تقدير أربع ألفاظ

الأولى: همزة الاستفهام **و الثانية**: الألف الفاصلة **والثالثة**: الهمزة المسّهلة، **والرابعة** : المبدلة من الهمزة ، وذلك إفراط في التطويل والثقل وخروج عن كلام العرب.(5)

1- الكتاب ، 551/3.

2- الزخرف: .19

3- شرح المفصل ،ج 8،ص 124 .

4- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت328هـ)، تح: محمد محمد تامر وآخرين ، ج1، ص26 ،دار الحديث ، القاهرة (2007م).

5- ينظر : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص56.

و كما أنّ قالون لا يدخل المد فيما اجتمعت فيه ثلاث همزات ، كذلك لا إبدال لورش فيه ،لأنّ كلّ من روى الإبدال في نحو: "أأنذرتهم" ليس له في" أآمنتم"و "أآلهتنا" إلاَّ التسّهيل.

الهمزتان المفتوحتان في كلمتين متجاورتين :

إذا اجتمعت همزتان مفتوحتان في كلمتين متجاورتين فقالون يُسقط أولاهما، أي يحذفها بالكلية، ويحقّق الثانية مثل قوله تعالى: ﴿جاء أمرنا﴾ و﴿وجاء أجلهم﴾، و﴿ إذا شاء أنشره﴾.

والأكثر على هذا (أي حذف الأولى)، فتكون قراءته"جا أمرنا" وهكذا مع البقية .

وقال بعضهم: يحذف الثانية، "وورش يحقّق الأولى ويسَهِّل الثانية " (1)

وروى المصريون عن الأزرق إبداله الثانية ألفا، ويحصل مما سبق وجهان لورش : التسّهيل والإبدال، وكل منهما صحيح مقروءٌ به والإبدال مُقّدم في الأداء، مثل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوْطٍ المرْسَلُونَ ﴾ (2)، و:﴿ وَلَقَدْ جَاءَ ءَالَ فِرْعَونَ النُّذُرُ﴾ (3)

ففي الثانية فيهما الوجهان على التحقيق المقروء به خلافا لنافع الإبدال، وعين التسهيل في الموضعين، ويقدّم التسّهيل لأنه الأشهر و الأقيس (4).

والحاصل أنّ لورش في﴿جاء آل لوط﴾، و﴿ جاء آل فرعون" خمسة أوجه: تسهيل الهمزة الثانية مع القصر ثم التوسط ثم التطويل في الألف التي بعدها لأنّها من باب مدّ البدل وإبدالها ألفا مع القصر والتطويل، ويقدّم القصر على التطويل .

الهمزتان المكسورتان من كلمتين :

إذا تجاورت همزتان مكسورتان فمذهب الإمام ورش تحقيق الأولى وتسهيل الثانية ومذهب الإمام قالون تسهيل الأولى وتحقيق الثانية، (5)، مثل:

1-ينظر : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ،ص56.

2- الحجر :61 .

3-القمر :41.

4- ينظر : النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص56.

5- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية ، ص 175.

قوله تعالى:﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ (1).

ومثله:﴿ فَقَالَ أَنْبِؤُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾(2)، ومعنى التسهيل أي: بين بين وهناك وجه ثالث عند ورش في موضعين هما قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ أَنْبِؤُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين ﴾ (3)، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُم عَلى البِغَاءِ اِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنَا لتَبْتَغُوا عَرَضَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (4)، وهو إبدال الهمزة الثانية ياءً خفيفة الكسر أي مختلسة الكسر، وعلى هذا تكون لورش في الهمزة الثانية في هذين الموضعين ثلاثة أوجه، وكلها مقروء بها، والمقدّم في الأداء إبدال الحرف ثم التسهيل في كل مكسورتين ثم إبدالها ياء خفيفة الكسر (5).

أما حكم الهمزتين المكسورتين عند قالون: فإنه يحقق الثانية ويسهِّل الأولى وإذا أدى التسّهيل إلى الجمع بين ساكنين ،فلا يسهلها بل يبدلها مثل ما قبلها ثم يدغم ما قبلها فيها وذلك في ثلاثة مواضع:في قوله تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ ﴾ (6).

والموضع الثاني في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَاّ أَن يُؤْذَنَ لَكُم إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاه ﴾ (7).

والموضع الثالث: في قوله تعالى:﴿وما أبرِّئ نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنّ ربي غفور رحيم ﴾ (8).

روى عنه الإبدال كموضعي الأحزاب، وروى عنه التسّهيل كسائر المكسورتين وكلا الوجهين مقروء به، والإبدال مقدّم على الأداء في حالة الوصل، أما في حالة الوقف فليس له إلاَّ التحقيق في ذلك كله (9).

1- الشعراء 187.

2- البقرة 31 .

3- البقرة 31 .

4- النور33.

5- ينظر: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص57 .

6- الأحزاب: 50 .

7- الأحزاب:53.

8- يوسف: 53.

9- ينظر: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص58 .

الهمزتان المضمومتان في كلمتين عند ورش:

ورش يُسهِّل الثانية كقوله تعالى:﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِيْن ﴾(1)، فتكون بينها وبين الواو، وروي عن قالون عكس ورش؛ أي يسّهل الأولى ويخفف الثانية ،ومنه يكون لورش في الهمزتين المكسورتين والمضمومتين وجهان: الإبدال والتسهيل للهمزة الثانية ،والإبدال مُقدّم في الأداء.

و إذا أبدلت الثانية لورش حرف مدّ فإن وقع بعده ساكن نحو:"جاء أمرنا" تمدّ مداً طويلاً" لأجل الساكن بعد الهمزة الثانية، وإن وقع بعده متحرك نحو: جاء أحدهم"

" في السماء إله" اقتصرت على القصر على الأصح المقروء به، ولا يجوز توسط ولا تطويل لانفصال الهمزة عن حرف المد في كلمة أخرى.

الهمزتان المختلفتان في الحركة من كلمتين:

اتفق ورش وقالون على تحقيق الأولى منهما ، وتخفيف الثانية كما في الأمثلة التالية :

1- مفتوحة فمكسورة مثل قوله تعالى :﴿أَمْ كُنْتُم شُهَداءَ إِذْ حَضَرَ ﴾ بتسهيل الثانية. " شهداء اذ "

2- مفتوحة فمضمومة لم تقع إلاَّ في موضع واحد، قال تعالى:﴿كُلَّ ما جَاءَ أُمةً رَسُولُهَا كَذَّبُوه﴾ (2)، بتسهيل الثانية ﴿جاءَ أُمة ﴾.

3 – مضمومة فمفتوحة مثل قوله تعالى:﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم ﴾ بإبدال الثانية واوا " لو نشاءو صبناهم.

4- مكسورة فمفتوحة مثل قوله تعالى حكاية عن يوسف – عليه السلام- ﴿ فَاِسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيْه﴾، بإبدال الثانية ياء .

5- مضمومة فمكسورة ﴿ نشاءُ إلى ﴾ بإبدال الثانية واوا (3).

1- الأحقاف: 32.

2- المؤمنون: 44.

3- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية، منهج لساني معاصر ، د سمير شريف استيتية عالم الكتب الحديث ، أربد 2005، ص 175.

همزة الوصل الداخلة عليها همزة الاستفهام:

همزة الوصل التي تثبت في الابتداء وتسقط في الوسط، وهي على قسمين: مفتوحة ومكسورة، فالمفتوحة همزة لام التعريف، والمكسورة همزة غيره.

وهمزة لام التعريف الداخلة عليها همزة الاستفهام وردت في القرآن في ستة مواضع ﴿آآلذاكرين ﴾، الأنعام مرتين، ﴿ والآن﴾ مرتين في يونس، و﴿آ الله أذِن لكم ﴾ و﴿ آالله خير﴾النمل، وقد اتفق القُرّاء على إثبات همزة الوصل وعلى تليينها في المواضع الستة واختلفوا في كيفية ذلك، فقال كثير من الحذاق: تبدل ألفا خالصة مع مدّ الساكن اللازم وقال آخرون : تُسهَّل بين بين.(1).

همزة الوصل مع غير لام التعريف: وإذا دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل في غير لام التعريف حُذفت همزة الوصل وبقيت همزة الاستفهام المفتوحة، وقد وردت في سبعة مواضع وهي :(2).

1- ﴿ قُلْ أَتَخَذتُمْ عِنْدَ اللهِ ﴾ (3) ف (أَتَّخَذْتُمْ) أصلها (أاتخذتم).

2- ﴿ أَطَّلَعَ الغَيْبَ﴾ (4).

3 - ﴿أَفْتَرى على اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّة ﴾ (5).

4- ﴿أَصطَفَى البَنَاتِ على البنينَ﴾ (6).

5- ﴿ أَتَخَذْنَاهم سِخْرِيًّا﴾ (7).

6- ﴿أَسْتَكْبَرْت أَمْ كُنت ﴾ (8).

7- ﴿سَواءُ عليهمْ أَسْتَغْفَرْتَ لهمْ﴾ (9).

1- ينظر: النجوم الطوالع على الدرر اللوامع ، ص60 .

2- ينظر: العقد الفريد في شرح القصيدة الجزرية وعلم التجويد برواية حفص عن عاصم ، تأليف الحاجة الجامعة مريم جندلي ، دار الكتب العلمية – بيروت لبنان ، ط1، (2008 م) ، ص 47 .

3- البقرة: 80 .

4- مريم: .78

5- سبأ: 08.

6- الصافات:.153

7- سورة ص: .63

8-سورة ص: .75

9- المنافقون: 06.

فالهمزة المنطوق بها في كل ذلك هي همزة الاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة عند جميع القرّاء، وإذا انتهت الكلمة بحرف ساكن ووليتها همزة وصل حُرِّكَ الحرف الساكن للتخلص من التقاء الساكنين (1)، ويكون التحريك:

أ– بالكسر وهو الأكثر، مثل قوله تعالى في حالة الوصل: ﴿أَحَدُ اللهُ﴾ (2)، تُنطق (أَحَدُنِ الله).

وقوله تعالى ﴿ وأَمْوالٌ اقْتَرَفتُمُوها ﴾ (3) ، تلفظ (وأموالَنِ قْتَرفتموها)

ب– بالضم:نحو قوله تعالى ﴿وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ﴾ (4)، تُلفَظ (عزيرُنُ بْن).

ج– بالفتح: نحو قوله تعالى :﴿الَمَ، اللهُ ﴾ (5) . وتلفظ (ألف لام ميمَ الله).

تخفيف الهمز:

ولما كانت الهمزة فيها كلفة ومشقة في النطق بها مالت بعض اللهجات العربية قديما وحديثاً إلى التخلص منها بالقلب أو الحذف ،ومن القبائل التي لا تهمز " قبيلة قريش، هذيل ثقيف ، هوازن، ولذلك نزل بها القرآن ، وتواترت قراءاته بها فكان قرّاء الحرمين الشريفين والشام... لا ينبرون الهمزة" (6).

ومن الشواهد الدّالة على ذلك أيضاً أنَّ المصطفى–صلى الله عليه وسلم– لما قال له رجل" يا نبيء الله" نهاه أن يَنْبُرَ باسمه، وقال للجماعة التي أتته بأسير يرتعد من البرد قال لهم" أدفوه " أي "أدفؤوه" ولما لم ينبر بالهمزة ظنوا أنه يأمرهم بقتله فقتلوه،" لأنّ أدفوه" بلغة اليمن تعني اقتلوه ، واعتبره الرسول "صلى الله عليه وسلم " مقتولاً خطأ ودفع ديته"(7)

—

1– ينظر: العقد الفريد في شرح القصيدة الجزرية وعلم التجويد ، تأليف الحاجة الجامعة مريم جندلي ، ص47 .

2 – الإخلاص: 2/1 .

3– التوبة: 24 .

4– التوبة: 30

5 – آل عمران: 2/1 .

6– لغة القرآن ، لغة العرب المختارة ،د/ روّاس قلعجي ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع،ط1، 1988م بيروت لبنان ص38/.39

7– المرجع نفسه ،ص39 .

كما جاء في الأثر كذلك أنَّ علياً بن أبي طالب –رضي الله عنه– قال:<< نزل القرآن بلغة قريش، وليسوا بأصحاب نبر، ولولا أنَّ جبريل عليه السلام نزل بالهمزة على النبي –صلى الله عليه وسلم– ما همزنا >>(1).

والعربي يميل دوماً إلى التخفيف والتسّهيل والابتعاد عن فضول القول، فهو لا يحب التكلف لا في النطق ولا في غيره، لأجل ذلك كان يتخلص من الهمزة بإسقاطها أو تسهيلها ،وهذا مظهر جلي من مظاهر الاقتصاد في الجهد، ومن أمثلة حذف الهمزة :

1_ إذا كانت الهمزة ساكنة تحذف ويعوض عنها بمد حركة الصامت السّابق لها مثل: رأس . راس ، بئْر . بير ، ذئب . ذيب .

2 – إذا كانت متحركة وما قبلها ساكن، تحذف الهمزة ، وتتصل حركتها مباشرة بالصامت قبلها نحو: اسأل . اسل، أو سَلْ، وهذه الطريقة من تخفيف الهمزة هي " ما سماه علماء السلف همزة بين بين "(2)

– جهاز النطق والاقتصاد اللغوي:

جهاز النطق هو تلك الآلة المصوّتة التي تصدر المادة الأساسية في تكوين الألفاظ والمفردات على اختلاف مخارجها وصفاتها، و" نقصد بالمخرج مكان نطق الحرف، وصفة الحرف طريقة نطقه مجهور أو مهموس، مرقّق أو مفخم.... فالجهر والهمس مثلا ظاهرتان

صوتيان تحدثان عند اهتزاز الوتران الصوتيان وحدوث ذبذبة ترافق نطق الصوت"(3)، ومنه يتحدد الجهر من الهمس.

ففي حالة الجهاز تنقبض فتحة المزمار، ويقترب الوتران الصوتيان أو إحداهما من الآخر فتنقبض فتحة المزمار إلاّ أنها تسمح بمرور النفس الذي يندفع فيها، وعند اهتزاز الوترين الصوتيين تحدث الأصوات المجهورة " Sonores" وهي ثلاثة عشر: ب، ج، د، ذ، ر، ز ض، ظ، ع،غ،ل، م، ن، وعكس الجهر الهمس، حيث يرتخي الوتران الصوتيان

—

1– الرضى الاستراباذي ، شرح الشافية، تح: محمد نور الحسن ، ومحمد الزقزاق ومحي الدين عبد الحميد،ط2، بيروت، 1975م، 32./3

2– أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة ، ص457، د/ فوزي الشايب عالم الكتب الحديثة، الردن، 204م..

3– الألسنية العربية: ريمون طحان، المكتبة الجامعية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:2، 1981، ص: 50.

ولا يهتزان فتحدث الأصوات المهموسة sourdes وهي" ت، ث، ح، خ، س، ش، ص ط، ف، ق، ك، ه [1]

هذا عن صفة الجهر والهمس، أمّا فيما يخص مخارج الحروف فإنها تتوزع كما يلي:[2]

المخرج الشفوي: بين الشفتين للأحرف الثلاثة: الباء والميم والواو الصامتة.

المخرج الأسناني: بين باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا لحرف واحد وهو الفاء المخرج اللساني الأسناني وفيه ثلاثة مدارج، أوّلها بين اللسان وأطراف الثنّايا العليا ويكون لأحرف ثلاثة: الذال والثاء والضاء، والثاني بين طرف اللّسان وفُويق الثنايا العليا، وهو لثلاثة أيضا: السين والزاي والصاد، والأخير بين طرف اللّسان وأصول الثنايا العليا ويختص به أربعة أحرف: الضاد والتاء والدّال والطّاء.

ويلي هذا الأخير مخرج لساني لثوي بين طرف اللّسان ولثة الثنايا العليا، وهو لأحرف ثلاثة: الرّاء ثم النون ثم اللاّم ثم المخرج اللساني الحنكي وفيه مدرجان: أولهما بين وسط اللّسان ووسط الحنك الأعلى لثلاثة أحرف وهي الياء الصامتة والشين والجيم.

وثانيهما بين أقصى اللّسان وأقصى الحك الأعلى ينفرد به حرف واحد وهو الكاف ويليه مخرج لساني لهوي بين أقصى اللّسان واللّهاة يكون لحرف واحد وهو الكاف ويليه مخرج لساني لهوي بين أقصى اللّسان واللهاة يكون لحرف واحد وهو القاف.

وأخيرا يلقانا المخرج الحلقي في مضيق الحلق وانقباضه، وله مدارج ثلاثة أولها في أدنى الحلق أحرفين اثنين وهما الخاء والغين، وثانيهما في وسط الحلق يكون لحرفين هما الحاء والعين، وآخرهما في أقصى الحلق وفيه الهاء والهمزة.

ومن هذا نرى أنّ الأصوات العربية تشغل مدارج واسعة المد في الجهاز المصوّت، فهو يمتد من قمة الحنجرة إلى منطبق الشفتين، ويمثل مجالا ظاهرا لاستيعاب أصوات الطبيعة في تنويعها وسعتها، وممارسة جميع الأصوات الإنسانية اللازمة في التعبير، وهذا مفقود في بعض اللّغات الحية إذ ينحصر أداؤها في نطاق ضيق.

1- الألسنة العربية، ريمون طحان، ص: 51،والأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ،ص22 ، ومبادئ اللسانيات ، أحمد محمد قدور ،ص 82، 83 .

2- ينظر: الاقتصاد اللغوي في صياغة المفردة، فخر الدين قباوة، ص: 43، 44.

والاتساع المديد المذكور له أثر ظاهر في التيسير اللفظي حين صياغة المفردات والتراكيب إذ يفتح مجالا للتنقل بين مدارج وأحياز متنوعة ومتباعدة تُسهِّل النطق والتعبير

ذلك أنّ توالي الأصوات يستفيد حين الأداء من هذه المدارج والأحياز الموّزعة لانسياب الأصوات بعيدا عن التقارب والتداخل، فيخفّف المتكلّم كثيرا من الجهد العضلي المطلوب وهو ضرب ظاهرّ من الاقتصاد اللّغوي.

فمن خلال هذا يتّضح أنّ جهاز النطق يتعب كثيرا في عمله، ورغم توزيع الحروف على عدة مخارج، وخاصة إذا طال الكلام، وعليه يُفضّل الاقتصاد في أي عملية أداء كلامية والتقليل من بذل الجهد الذهني والفزيولوجي، ليتم استخدامه في أوقات لاحقة إن دعت الحاجة إليه.

وما يجب أن يعلم بهذا الصدد هو أنّ جهاز النطق الذي يتكون من "اللسان والأسنان والأضراس والشّفتان، والأنف والأحبال الصوتية والرئتان لا تنحصر وظيفته في إحداث الأصوات فقط، بل له وظائف أخرى كالذّوق للّسان، وكسر الطّعام وطحنه للأسنان والأضراس، والشمّ للأنف والتنفّس له وللرئتين" [1].

ومن هنا يكون الاقتصاد اللغوي الأسلوب المفضّل للحفاظ على دوام نشاط وسلامة هذا الجهاز الذي تعدّدت وظائفه، وكثرت أعماله << لأنّه كمثل باقي الآلات يحتاج إلى تزويد بطاقة إضافية لتشغيله>> [2].

الاقتصاد اللغوي والإمالة :

الإمالة هي ظاهرة صوتية علاقتها متينة بما سبقها من المواضيع الهادفة إلى تقريب صوت من صوت، وقد سمّاها الخليل الإضجاع، وعدّها ابن جني ضربا من ضروب الإدغام الأصغر الذي هو عنده تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه ،والهدف من ذلك تقريب الصوت من الصوت"(3).

—

1- ينظر: مجلة اللغة والأدب، معهد اللغة العربية وآدابها الآداب، ع1، المجلد 2، نوفمبر (2000 م) ، ص: 110.

2 - اللغة والاقتصاد، ص: .290

3- ينظر : الخصائص ج2 ،ص141.

وهي مألوفة في كلام بعض القبائل العربية ، ومعناها في اللغة مأخوذ من الميل وهو العدول عن الشيء ، قال صاحب اللسان :<< الميل العدول إلى الشيء والإقبال عليه وكذلك الميلان >> (1).

أما في **الاصطلاح**: فهي جنوح بالألف إلى صوت الياء وبالفتحة إلى صوت الكسرة (2)

وقال عنها سيبويه" أن تمال الألف نحو الياء فتكون بين الألف والياء في اللفظ " (3).

فهي تقريب صوت من صوت مجاور له حتى يحصل نوع من الانسجام و التوافق نحو قولك: عالم، مساجد، مفاتيح... وهذه الظاهرة الصوتية ميزة معروفة في كلام القبائل العربية التي سكنت وسط الجزيرة العربية وشرقيها كتميم ، وأسد وطيء وتغلب ،وتعليلها عند علماء العرب هو الاقتصاد في الجهد العضلي وهو ما عبّروا عنه بالتخفيف تارة وبالتقريب والمماثلة تارة أخرى ،ويقال لها كذلك الإضجاع والبطح والتقليل والتلطيف وبين بين .

جاء في النشر:<< أما فائدة الإمالة فهي سهولة اللفظ وذلك أنّ اللسان يرتفع بالفتح وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع فلهذا أمال من أمال ، أما من فتح فإنه راعى كون الفتح أمتن أو الأصل (4).

فعمل اللسان يكون نحو الأسفل أسهل من عمله جهة الارتفاع، وهذا ما اتفق عليه النحاة والقراء من خلال ملاحظاتهم الدقيقة لجهاز النطق وحركة اللسان أثناء عملية الكلام، قال سيبويه :<< والانحدار أخف عليهم من الاصِّعاد >> (5).

وقد ذكر ابن الجزري:<< أنَّ القرّاء اتفقوا على أنَّ الإمالة والفتح لغتان فصيحتان صحيحتان نزل بهما القرآن، واختلفوا في كونها فرع عن الفتح، فذهب جماعة إلى أصالة

1- لسان العرب ، ابن منظور (أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري، (ت711هـ) ، دار صادر بيروت، 1956م، 1375هـ، 636/11 .

2- ينظر : دروس في علم أصوات العربية ، جان كانتينو أوفست ، الشركة التونسية، تونس 1966م، ص 156،و ينظر: النشر،ج2، ص387.

3- النكت في تفسير كتاب سيبويه ، أبي الحجاج بن عيسى الأعلم الشنتمري (ت476هـ) منشورات علي بيضون ، دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ،ط2005م، ج2 ،ص.585

4- النشر،ج2، ص391.

5- الكتاب، ج4، ص245.

كلٍّ منهما وعدم تقدمه على الآخر، وقال آخرون: الفتح هو الأصل والإمالة فرع بدليل أنّ الإمالة لا تكون إلاَّ لسبب من الأسباب؛ فإن فُقِد سبب منها لزم الفتح، ولم يرجح أي رأي على الآخر >>(1) .

وسواء أكانت الإمالة أصلاً أم فرعاً فإنها تبقى سمة من سمات بعض اللهجات العربية لها أسبابها وعللها، وهي قسمان متوسطة وشديدة أو صغرى وكبرى فالمتوسطة <<هي أن يؤتي بالحرف بين الفتح المتوسط وبين الإمالة الشديدة، والشديدة هي أن تقرب الفتحة من الكسرة والألف من الياء غير قلب خالص>>(2).

أسباب الإمالة : تُظهر أسباب الإمالة تأثر الألف بما يسبقها أو يلحقها من حروف أو حركات ، وهذا التأثر في حقيقته هو نوع من المرونة والليونة هدفه التخفيف والتسهيل على اللسان أثناء الكلام .

وقد اختلف العلماء في عدد الأسباب الموجبة للإمالة،فابن الجوزي جعلها اثني عشر سبباً ترجع إلى شيئين أحدهما: الكسرة ، والثاني: الياء (3)، وهي عند ابن الباذش(ت540هـ) وهو من القُرّاء ستة أسباب (4) ،وذكر الواسطي في الكنز أنّ أسبابها سبعة (5).

وجعلها ابن الجزري عشرة نذكر منها ما يلي: (6).

1- إمالة الألف لكسرة سابقة لها نحو: كتاب، حساب، ﴿ ضِعَافًا ﴾النساء.09

2- إمالة الألف بسبب كسرة متأخرة نحو: ﴿ كَافِرِ ﴾ البقرة41، ﴿ الحواريين ﴾ المائدة111.

﴿حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾آل عمران 102.

1- النشر في القراءات العشر، ج2، ص.389

2- دراسات لغوية ونحوية ،د/خالد أحمد المشهداني،دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ،ط1، 2010م، ص.93

3- النشر ، ج2،ص.389

4- الإقناع في القراءات السبع ،ابن الباذش أحمد بن علي الأنصاري(ت540هـ) تح:د/عبد المجيد قطامش ،مطبعة ركابي ونصر دمشق،ط1، 1971م، ج1، 269.

5- الكنز في القراءات العشر أبو محمد عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي (ت740هـ)،تح: د/ خالد أحمد المشهداني ، دار المصري للطباعة، القاهرة، 2002م، ص 285.

6- ينظر: النشر، ج2 ،ص389، 390.

3- إمالة الألف بسبب الياء المتقدمة نحو: و"أياما "والحياة .

4- إمالة الألف بسبب الياء المتأخرة عن الألف مثل : مبايع.

5- الإمالة لأجل الكسرة المقدرة على المحل الممال نحو: خاف أصله خوِف بكسر عين الكلمة، وقلبت الواو ألفا لتحرّكها وانفتاح ما قبله.ا

6- الإمالة لأجل الياء المقدرة في المحل الممال نحو : يخشى والهدى، وأتى والثرى تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفا

7- الإمالة لأجل التناسب بين رؤوس الآيات، والسور الممال رؤوس آيها إحدى عشرة سورة هي: طه والنجم وسأل سائل والقيامة والنازعات وعبس والأعلى والشمس والليل والضحى والعلق .

قراءة الإمالة:

لقد ضمت كتب القراءات الكثير من الأحرف الممالة في كثير من القراءات نذكر منها : إمالة الألف بسبب الكسرة المتقدمة عليها، وذلك مثل إمالة الألف في كلمة "ضِعَافًا "في قوله تعالى:﴿ وَلْيَخْشَ الذِّينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِم ذُرِّيَةً ضِعَافًا ﴾ (1).

وإمالة ألف ﴿ إكراههنَّ ﴾النور33، وألف كلمة ﴿ عمران ﴾ آل عمران33، وأمثالها .

وهذه الإمالة تحدث بسبب الكسرة إذا كانت قبل الألف أو بعده ، قال صاحب النشر

<< فليعلم أنه لا يمكن أن تكون الكسرة ملاصقة للألف إذ لا تثبت الألف إلاَّ بعد فتحة>>(2) .

وإمالة ألف "شاء " في قوله تعالى ﴿ ثم إذا شاء أنشره﴾ (3)، قرأ أبو عمر"ثم إذا شا أنشره" بهمزة واحدة، وهمزة "شاء" ساقطة اكتفاء بالهمزة الثانية منها "(4).

وانقسم القُرّاء فيما يخص الإمالة ثلاثة أقسام:- قسم فتح ولم يمل شيئا من القرآن وهو ابن كثير ، قال الإمام السيوطي :<< أما من أمال فكل القرّاء العشرة إلا ابن كثير

1- النساء : .09

2- ينظر: النشر، ج2، ص.389

3- عبس: 22 .

4- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزوجل، محمد بن الأنباري النحوي ،ج1،ص167.

فإنّه لم يمل شيئا في جميع القرآن >> (1).

- قسم أمال بقلة وهم عاصم وقالون وابن عامر.

- قسم أمال بكثرة وهم ورش وأبو عمر وحمزة والكسائي.

موانع الإمالة :

هناك عدد من الحروف يمنع الإمالة، وهذه الحروف هي: ص، ض، ط ،ظ،غ، ق، خ إذا كان حرف منها قبل الألف، والألف تليه مباشرة مثل: قاعد، غائب، خامد، صاعد طائف، ضامن، ظالم، والسبب في منع هذه الحروف للإمالة حسب رأي سيبويه " أنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى، والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك

الأعلى فلمّا كانت الحروف مستعلية وكانت الألف تستعلي وقربت من الألف كان العمل من وجه واحد أخف عليهم، كما أنّ الحرفين إذا تقارب موضعهما كان رفع اللسان في موضع واحد أخف عليهم فيدغموه "(2).

وهكذا ترى مبدأ الجهد الأقل حاضرا فيما تجب فيه الإمالة وما يمتنع .

اقتصاد اللغة و التَّنغيم:

إننا كثيرا ما نلاحظ أنَّ الكلام تختلف نغماته ودرجة الصوت فيه من ارتفاع وانخفاض وفقاً لأنماط التركيب والموقف، و هذا الاختلاف يساعد على فهم المعنى المقصود، فالتنغيم إذا هو :" رفع الصوت وخفضه في أثناء الكلام للدلالة على المعاني المختلفة للجملة الواحدة " (3).

والتنغيم له وظيفة نحوية ودلالية مهمة، فالجملة الواحدة قد تكون إثباتية (تقريرية) أو استفهامية، والتَّنغيم هو الفيصل في الحكم والتمييز بين الحالتين فجملة: أقام الرجل جملة إخبارية إذا نُطِقَتْ بتنغيم خاص، ومعناها أقام من الإقامة، وهي جملة استفهامية إذا نطقت بتنغيم من نوع آخر، ويكون معناها السؤال عن قيام الرجل، أي هل قام أم لا ؟.

1- الإتقان في علوم القرآن ، عبد الرحمن السيوطي ،ج1، ص.273

2- الكتاب، سيبويه ،ج4 ، ص244 .

3- الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم ، تقديم: الدكتور تمَّام حسَّان ، تأليف: دكتور محمد رزق شعير، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، القاهرة ، الطبعة الأولى: (1429هـ/2008م)، ص 94 .

والتنغيم له وظيفة نحوية ودلالية مهمة، فالجملة الواحدة قد تكون إثباتية (تقريرية) أو استفهامية، والتَّنغيم هو الفيصل في الحكم والتمييز بين الحالتين فجملة: أقام الرجل جملة إخبارية إذا نُطِقَتْ بتنغيم خاص،

ومعناها أقام من الإقامة، وهي جملة استفهامية إذا نطقت بتنغيم من نوع آخر، ويكون معناها السؤال عن قيام الرجل، أي هل قام أم لا ؟.

ففي الجمل نجد أنماط كثيرة،منها الجملة الخبرية والجملة الاستفهامية، وأولى الجملتين تفيد الإخبار ولا تشتمل على أداة استفهام، والأخرى تدلُّ على الطَّلب أو التَّعيين غالباً وتحتوي على استفهام، وكلتا الجملتين قد تؤدي الغرض منها كما قال النَّحاة.

و التَّنغيم أو التَّلوين الموسيقي، الذي يعد جزءاً من النطق، << يلعب دوراً بارزاً في التفريق بين الجملتين، فقد يجعل الأولى منها استفهامية والثانية خبرية، أو يبقيهما على حالتهما الأولى، وتستطيع الأذن الخبيرة أن تتذوق الفرق بينهما وتدركه عن طريق موسيقى الكلام التي هي أهمُّ عنصر في هذا التَّفريق، والتَّنغيم يمثل عنصر تحويل رئيسي حيث ينقل الجملة التوليدية من معنى الإخبار إلى جملة تحويلية(اسمية أو فعلية) فيها معنى الاستفهام أو التقرير أو التَّعجب أو التَّكهم أو السُّخرية...إلخ (1).

فهو بهذا يساهم في اقتصاد اللغة بحيث يجعل الجملة الواحدة تفيد عدة دلالات تختلف عن بعضها البعض .

والواقع أنَّ التَّنغيم هو أهم وسيلة للتَّفريق بين حالتي الإثبات والاستفهام في اللُّغة الفصحى أو العامية ، و في نوع معين من الجمل، تلك الجمل التي يصح أن تكون استفهاماً بدون أداة، أي: الجمل التي تقتضي الإجابة عنها بلا أو نعم، فهذه الجمل تخلو عادة من أدوات خاصة ، وحينئذ يكون اعتمادنا على التَّنغيم بمساعدة المقام والسِّياق، أمَّا في الفصحى ففي مثل هذه الجمل توجد أدوات استفهام، وهي هل والهمزة، ولكنَّها هي الأخرى تحتاج إلى معونة التَّنغيم.

وقد يُستغل التَّنغيم في أغراض أخرى كثيرة فقد يدل على التَّهكم أو الزَّجر أو الموافقة أو الرَّفض أو الاستغراب أو الدَّهشة،وهناك نغمة موسيقية واضحة في قول القائل : أنا

1- في التحليل اللغوي- منهج وصفي تحليلي، د/ خليل عمايرة مكتبة المنار الأردن ، (ط1407هـ ،1987م) ، ص: 95.

وهو يثبت أو ينفي أو يستفهم، وإذا كان الأمر كذلك<< فمن الواجب علينا أيضاً أن نراعيه في تلاوة كتاب الله الكريم، فنحن إن فعلنا ذلك سهل علينا فهمه وتذوق معانيه>>(1).

أمثلة للتَّنغيم في القرآن الكريم:

كلام سيدنا إبراهيم- عليه السلام- في الآيات الآتية ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ، فَلَمَّا رأى القَمْرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيْءٌ مِمَّا تُشْرِكُون ﴾ (2).

فقوله:(هذا ربي) تحتمل أن تكون استفهاماً، وذلك لأنَّ المجال مجال استفسار واستفهام لشيء لا يعلمه، وكذلك تحتمل الجملة أن تكون تقريراً لشيء رآه ويريد أن يقول لنفسه إنَّ هذا هو ربُّه، وهذان الاحتمالان يرجعان إلى طريقة حديث إبراهيم-عليه السلام- عندما كان يرى شيئاً جديداً لا يعرف حقيقته .

يقول القرطبي: قوله تعالى:(هذا ربي) اختلف في معناه على أقوال (3) فقيل: كان هذا منه في مهلة النظر وحال الطفولية وقبل قيام الحجة، وفي تلك الحال لا يكون فيه كفر ولا إيمان، فاستدل قائلو هذه المقالة بما روي عن علي ابن أبي طالب عن ابن عباس قال: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾

فعبده حتى غاب عنه،وكذلك الشَّمس والقمر.

فلمَّا تمَّ نظره قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيْءٌ مِمَّا تُشْرِكُون﴾، واستدل بالأفول لأنَّه أظهر الآيات على الحدوث، وقال قوم: هذا لا يصح، وقالوا: غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحِّد وبه عارف، ومن كلِّ معبود سواه بريء، قالوا: وكيف يصح أن يتوهم هذا على من عصمه الله وآتاه رشده من قبل

1- ينظر: علم اللغة ، د/ عبد الله عبد الحميد سويد ،د / عبد الله علي مصطفى ، دار المدينة القديمة للكتاب ، طرابلس ،ط1 (1993م) ،ص: .214

2- الأنعام: 76 /78.

3- الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي، (25/7)

وأراه ملكوته ليكون من الموقنين، ولا يجوز أن يوصف بالخلو عن المعرفة، بل عرف الرب أوَّل النَّظر .

قال الزَّجاج: هذا الجواب عندي خطأ وغلط ممن قال، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴾ (1)، وقال جلَّ وعزَّ:﴿إِذْ جَاءَ رَبّهُ بِقَلْبٍ سَلِيم ﴾ (2)، أي: لم يشرك به قط، قال:والجواب عندي أنَّه قال:" هذا ربي" على قولكم لأنَّهم كانوا يعبدون الأصنام والشَّمس والقمر،ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ﴾ (3) وهو جلَّ وعلا واحد لا شريك له، والمعنى: أين شركائي على قولكم، وقيل:لما خرج إبراهيم من السّرب رأى ضوء الكوكب وهو طالبٌ لربِّه، فضن أنَّه ضوءُه قال:" هذا ربي" أي بأنه يتراءى لي نوره..(فلمَّا أفل) علم أنَّه ليس بربِّه.

﴿ فلَّما رأى القمر بازغاً ونظر إلى ضوئه قال هذا ربِّي فلمَّا أفل قال لئن لمْ يهديني ربِّي لأكوننَّ منَ القومِ الضَّالينَ، فلمَّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربِّي﴾ وليس هذا شركاً إنَّما نسب ذلك الضَّوء إلى ربِّه فلمَّا رآه زائلا دلَّه العلم على أنَّه غير مستحق لذلك، فنفاه بقلبه وعلم أنَّه مربوب وليس برب.

وقيل: إنَّما قال: ﴿ هذا ربِّي﴾ لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم، فلمَّا أفل النَّجم قرَّر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربًّا، وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها(4).

وقد أورد النحاس عدّة آراء في هذا فقال: ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس أنَّه قال في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ نورٌ على نورٍ﴾ (5)، قال:كذلك قلب المؤمن يعرف الله- عزّ وجلّ - ويستدل بقلبه، فإذا عرفه ازداد نوراً على نور، وكذا إبراهيم عليه السلام عرف الله- عز وجل- بقلبه واستدل عليه بدلائله، فعلم أنَّ له ربًّا وخالقاً، فلمَّا عرّفه الله-عزَّ وجلَّ- بنفسه ازداد معرفةً فقال: ﴿ أَتُحاجُّونِّي في اللهِ وقدْ هداني ﴾ (6).

1- إبراهيم: 35 .
2- الصافات : 84 .
3- النحل : 27 .
4- معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج، (266/2).
5- النور: 35 .
6- الأنعام : 80 .

وقيل: هو على معنى الاستفهام والتَّوبيخ، منكراً لفعلهم، والمعنى: أهذا ربِّي، أو هذا يكون ربًّا؟ وفي التنزيل: ﴿ أَفَإِين مِتّ فَهُمُ الخالدون﴾ (1)، أي أفهم الخالدون، وقيل: المعنى هذا ربِّي على زعمكم، كما قال تعالى:﴿

أَينَ شرَكاءِي الَّذين كُنْتم تَزْعمون﴾ (2)، أي: عند نفسك، وقيل: المعنى: أي وأنتم تقولون هذا ربي، فأضمر القول، وإضماره في القرآن كثير، وقيل: المعنى في هذا ربِّي، أي هذا دليل على ربِّي(3) .

وتكثر الجمل التي بها أداة استفهام دون أن تدلَّ عليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِيْنٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورًا﴾ (4) ، فإنَّ المفسرين حين شرحوا هذه الآية قالوا: إنَّ (هل) هنا معناها " قد "أي قد أتى على الإنسان حين من الدهر.

وفسّرها بعضهم تفسيراً آخر، فقال (هل) للاستفهام التَّقريري، أي أنَّ الجملة تقريرية (affirmative) وليست استفهامية، أو كما يقول علماء البلاغة التَّقليديون "هل" خرجت عن معناها الأصلي (5)، وعندنا أنَّ الفيصل في هذا الأمر إنَّما هو التَّنغيم أو الموسيقى.

وهناك جمل أخرى تخلو من أدوات الاستفهام ولكنَّها تدلُّ عليه، فهي في الواقع جمل استفهامية من ذلك قوله تعالى :﴿ يَا أيها النَّبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أحلَّ اللهُ لكَ تبتغي مرضاتَ أزواجكَ﴾ (6)، فقد رأى المفسرون أنَّ جملة" تبتغي مرضات أزواجك" جملة استفهامية وأداة الاستفهام همزة محذوفة، والتَّقدير: أتبتغي مرضاة أزواجك؟ وليس هنا ما يدعو إلى تقدير محذوف، ولأنَّ الكلام مفهوم بدونه، والتَّقدير عمل افتراضي لا يفيد شيئاً، أمَّا الحكم بأنَّها جملة استفهامية فالحقُّ أنَّ مرجعه إلى تنغيم النُّطق بصورة تناسب الأنماط التَّنغيمية للجمل الاستفهامية التي من هذا القبيل(7).

—

1- الأنبياء: 34

2- الدخان : 49 .

3- ينظر : إعراب القرآن، النحاس (197/2).

4- الإنسان :01 .

5 – ينظر: علم المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ،بيروت(1985م)، ص91،92.

6- التحريم: 01 .

7- ينظر: علم المعاني ، د/ عبد العزيز عتيق ، ص 92 .

الاقتصاد اللغوي والتنوين :

يحدد اللغويون العرب التنوين بأنه عبارة عن نون ساكنة زائدة تلحق آخر الاسم لفظاً لا كتابة، وهو دليل من أدلة اسمية الكلمة كما يرى الدرس اللغوي، وهذا العنصر يمثل ثراءً لغوياً تبين اللغة من خلاله وهو يدل على قيم صرفية أساسها التفريق في بنية الكلمة بين التفكير والتعريف، فإنَّ عدم دخول التنوين عند النحاة على أسماء الأفعال مثل:"صه" و"مه"، وكذلك الكلمات المختومة بيويه كسيبويه، و عمرويه، لأمر دال على تعريف المطلوب من الكلمات ووضعها في نطاق التحديد، وإن دخلها تنوين صارت نكرة فقولك لشخص ما صَهْ، فأنت تنهاه عن الكلام في الموضوع الذي هو فيه، بينما لو قلت له: صهٍ بالتنوين ؛ فأنت في هذا الحال تنهاه عن مطلق الكلام في الموضوع الذي هو فيه أو في غيره.

و<<التنوين إحكام لهذه الكلمات في إطار الإطلاق والشيوع والتنكير>>(1)، كما أنّ التنوين يؤدي دوراً دلالياً، فاسم الفاعل المجرد من "أل" والإضافة يعمل فيما بعده النَّصْب ومعنى تجريده من "ال" والإضافة تنوينه مثل :أنا كاتبٌ درساً، وأنا كاتب درس.

وقد نقل السيوطي (2) أنه سمع عن الكسائي أنه قال:<< اجتمعت وأبو يوسف عند هارون الرشيد، فجعل أبو يوسف يذمُ النحو ويقول ما النحو؟ فقلت: – وأردت أن أُعلِّمه فضل النحو– ما تقول في رجلٍ قال لرجلٍ أنا قاتلُ غلامِك، وقال آخر أنا قاتلٌ غلامَكَ ، أيهما كنت تأخذ به ؟

قال: آخذهما جميعاً فقال له هارون: أخطأت وكان له علم بالعربية فاستحى .

وقال كيف ذلك ؟ فقال الذي يؤخذ بقتل الغلام هو الذي قال أنا قاتلُ غُلامِك بالإضافة لأنه فعل ماض ، وأما الذي قال أنا قاتلٌ غلاَمك بلا إضافة فإنه لا يؤخذ لأنه مستقبل لم يكن بعد ؛كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُوْلَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدَا ﴾ (3).

فهذا النص يبين بشكل جلي أنَّ التنوين ظاهرة صوتية يقوم بدور دلالي هام .

—

1- ينظر : من وظائف الصوت اللغوي ، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي ،د/ أحمد كشك ،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة (2006م) ، ص17، 18.

2- في الأشباه والنظائر ،تح: طه عبد الرؤوف سعد ،(1975م) ، ج3، ص345 .

3- الكهف : 23 .

والتنوين أنواع منه تنوين التمكين وتنوين التنكير وتنوين المقابلة وتنوين الترنم في الشعر وتنوين العوض (1)، وهذا الأخير جيء به عوضا عن شيء عن محذوف مستثقل مع وجود الدليل على المحذوف، وهو ثلاثة

أنواع :عوض عن حرف مثل قوله تعالى:"جوارٍ، غواشٍ" فالأصل هو جواري و غواشي، ولما حذفت الياء منهما تم وضع التنوين كدليل على المحذوف.

أما التنوين الذي جاء عوضا عن كلمة فهو تنوين يلحق الكلمات التالية:كل، بعض أي، وهو هنا يؤدي وظيفة الاختزال التركيبي فأضحى وجوده دليلاً، أو بديلاّ عن كلمة محذوفة، مثل :لو قلنا: كلٌ مجزي عن عمله، لكان مراد هذه الجملة مساوياً لقولنا كل إنسان مجزي عن عمله، فهنا عوضّ التنوين الاسم المحذوف، وأمثلته في القرآن كثيرة منها قوله تعالى :﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِه ﴾ أي كل إنسان- بدون تحديد لجنسه أو لونه أو نسبه أو ... يعمل على طريقته .

أما النوع الثالث الذي يؤتى به عوضا عن جملة فيكون مع إذ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتْ الحُلْقُومَ وَأَنْتُم حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴾ (2)، فجاء تنوين إذ في الآية عوضا عن جملة حذفت وهي بلغت الحلقوم، فلولا التنوين لقلنا: فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حين إذا بلغت الحلقوم تنظرون، ولو جاءت الآية على هذا المنوال لكان ذلك تطويلا ثقيلا (3).

الإدغام واقتصاد اللغة:

الإدغام هو وصلك حرفا ساكنا بحرف مثله من موضعه من غير فاصل بينهما بحركة ولا وقف فتصيّرهما بالتداخل كحرف واحد ترفع لسانك بهما رفعة واحدة، وتشدِّده وهو مقدّر بحرفين الأول منهما ساكن، والعلة فيه هو أن الحرفين إذا كانا مخرجهما واحدا

1- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، القاضي بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت769)، دار المعرفة بيروت لبنان ، ط2 ،(1426هـ ، 2005م) ، ج1، ص.11

2- الواقعة .83،84

3- ينظر: من وظائف الصوت اللغوي ، د/ أحمد كشك ،ص18.

يثقل على اللسان أن يرفعه ثم يعيده في الحال إلى موضعه، وهو شبيه بمشي المقيد لأنه كان لا يزايل موضعه[1].

وهو ما يعرف بالمماثلة الكاملة Complète assimilation.[2]، وهو نوعان: من جنس واحد مثل: مَدّ مدَدَ، عَدّ ← عدَدَ، ومن جنسين مختلفين: مَنْ لَمْ، مَنْ رَاق، والعربية تستثقل تتابع مقطعين قصيرين متماثلين، فلهذا يُسقِط (أهل العربية) حركة عين الفعل كما في الفعل" شدَدَ" التقى حرف (د) وهو مقطع قصير مفتوح مع مثيله الثاني، فوجب التخلص من حركة المقطع الأول عن طريق الإدغام" وينتج عن إسقاط حركة العين أن العين التي كانت بداية المقطع الثاني، وهو منفتح قصير تصبح مقطعا منغلقا، ويصبح الفعل مركبا من مقطعين فقط: الأول مقطع منغلق، والثاني منفتح قصير (شدْ–دَ)، ولا يخفى ما في ذلك من اقتصاد في المجهود النطقي وخفة في الصيغة الحاصلة " ([3]).

واللغة العربية تميل إلى الإدغام حين يتوالى صوتان متماثلان سواء في كلمة واحدة أو في كلمتين إذا كان الصوت الأول مشكلا بالسكون، والثاني محرّكا ،مثل الأمثلة المذكورة قبل قليل، وذلك لتحقيق أدنى من الجهد عن طريق تجنّب الحركات النطقية التي يمكن الاستغناء عنها.

وفي هذا يقول سيبويه: "كلما توالت الحركات أكثر كان الإدغام أحسن"[4]،كما أنه قد يكون لتأثير تقدمي أو رجعي، فالتقدمي نحو: "اذتكر" التي جهرت فيها التاء تأثير الذال "اذدكر" ثم قلبت الدال ذالا لتحقيق الإدغام فصارت "ادَّكر".

والرجعي مثل: – تطير ـ اطيَّر ، يتصدَّق ـ يصَّدقُ.

1– اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله (ت 616هـ) تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، ط:1، (1995م)، ج2، ص: 469، والمفصل في صنعة الإعراب أبو القاسم بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ) تحقيق: د. عليب أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط:1،(1993م)، ج1، ص: 545

2 – ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص: .388

3– التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث ، الطيب البكوش الشركة التونسية بتونس ،(1973م)،ص99 .

4– اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: 280 .

– أخَذْتُمْ ـ أخَتُم ، بَلْ رَفَعَهُ ـ بَرَّفَعَهُ[1].

وفي هذه الحالة يبدو الاقتصاد اللغوي من خلال النطق، ففي الجملة:"بل رَّفعه" لم نقتصد في الكتابة إلا أننا في النطق ننتقل من الباء إلى الرَّاء "برَّفعه" وذلك للتخفيف من الانتقال من اللام إلى الرَّاء المتجاورتين مخرجا، وبذلك أقلّ جهد وكلفة، وهذا ما يسمى بالإدغام الصوتي Sinizéze synizesis [2].

وقد أورد إبراهيم أنيس مجموعة من الأمثلة القرآنية الجائز فيها الإدغام في كتابه الأصوات اللغوية نذكر منها:([3]).

الباء:

ذكر علماء القراءات أنّ هذا الصوت يجوز إدغامه في الميم والفاء مثل قوله تعالى:﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الكَافِرِين﴾ (4)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعْجَب فَعَجَبٌ قَوْلُهُم أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيد﴾ (5)، فعند قراءة "تعجب فعجب" ينتقل اللسان من الجيم إلى الفاء مباشرة دون أن يتوقف عند الباء .

أمَّا إدغام الباء في الميم فيبرره من الناحية الصوتية أن مخرج كل منهما الشفتان وأنه لا فرق بين الباء والميم إلاَّ في أنَّ الهواء مع الأولى يتّخذ مجراه من الفم، ومع الثانية يتخذ مجراه من الأنف فعملية الإدغام هنا هي مجرد انتقال الصوت الأول من بين أصوات الفم، إلى نظير له بين أصوات الأنف .

وأمَّا إدغام الباء في الفاء، فأقله شيوعاً لأنه يستلزم أولاً قلب الباء وهي مجهورة إلى نظيرها المهموس وهو الصوت الشائع في اللغات الأوروبية والذي يرمز إليها بالرمز(p)

1- ينظر: التطبيق الصرفي، عبده الراجحي، دار النهضة العربية،(1404هـ، 1984م)، وأحمد مختار عمر: دراسة الصوت اللغوي، ص: 389.

2 – الإدغام الصوتي: وهو أن تدغم حركتين في حركة واحدة لتوليد حركة مركبة أو لتوليد صوت مركب كحروف العلة، وحروف المدّ واللين،، معجم مصطلحات اللسانية، مبارك المبارك، ص: 266. والتكملة، أبو علي بن أحمد الفارسي تحقيق: حسن شاذلي فرهود، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ص: .273

3 – الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ، مكتبة الأنجلو المصرية ،(1999م) ، ص153 ...162.

4-هود: 42 .

5- الرعد: 05 .

وهو صوت شديد انفجاري مخرجه الشفتان، وإذا لم ينحبس معه النفس وأصابته صفة الرخاوة بأن يسمع له صفير ، انقلب إلى صوت قريب الشبه جداً بالفاء ، لأنَّها رخوة مهموسة وبهذا يتم الإدغام هنا تبدأ أولاً

بهمس الباء حفيفاً أو صفيراً ككل الأصوات الرخوة فإذا تم هذا للباء صارت كالفاء في كل الصفات مخرجاً وصفة، وهو ما يبرر هذا النوع من الإدغام.

التـاء: يُدغم هذا الصوت في عدة أصوات ،وقد روت كتب القراءات أمثلة لكل حالة فهي تدغم إدغاماً صفيراً في كل من الأصوات الآتية:

1- الثاء: مثل قوله تعالى:﴿ كَأَنْ لمَ يَغْنَوا فِيْهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعُدتْ ثَمُود ﴾ (1)، وقد تم في هذا الإدغام عمليتان : الأولى أن نسمح للهواء مع التاء بالمرور إلى الأمام متجهاً نحو: مخرج فم الإدغام .

2- الجيـم:

مثل قوله تعالى:﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُم جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَاب ﴾ (2)، وفي هذا الموضع جهر أولا بالتاء فصارت دالا ثم انتقل مخرج الدال من أصول الثنايا العليا إلى وسط الحنك، وبهذا التقى بالجيم لأنها أقرب أصوات وسط الحنك إلى الدال في الصفة وبهذا تم الإدغام.

3- الظاء:

مثل قوله تعالى: ﴿وَعَلى الذِّينَ هَادُوا حَرَّمْناَ كُلَّ ذِي ظُفُرٍ مِنَ البَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْناَ عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَت ظُهُورُهُمَا ﴾ (3)، هنا جهرنا أولاً بالتاء فصارت دالاً لأنَّ الصوت الثاني أي الظاء صوت مجهور، ثم سمح للهواء بالمرور فصارت رخوة، ثم انتقل مخرجها إلى الأصوات المسماة باللثوية ، وبهذا صارت ذالاً ،ولا فرق بين الذال والظاء إلاَّ في أنّ الصوت الثاني من أصوات الإطباق ،فالإدغام هنا له ما يبرره من الناحية الصوتية.

—

1- هود : 95 .

2- النساء :.56

3- الأنعام : 146.

4- السين:

مثل قوله تعالى:﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَة ﴾ (1)، تُسمع أثناء التلاوة ﴿ وجاء سّيارة﴾وكل الذي حدث في هذا الإدغام هو أنّا سمحنا للهواء بالمرور مع التاء ،فأصبحت رخوة، وبهذا أشبهت كل المشابهة السين في رخاوتها وهمسها؛ فتم الإدغام.

5- الصاد:

مثل قوله تعالى:﴿ إِلاَّ الذِّينَ يَصِلُونَ إِلى قَوْمٍ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُم مِيْثَاقٌ أَوْ جَاؤُوكُم حَصِرَتْ صُدُورُهُم ﴾ (2)، أصاب التاء هنا ما أصاب في المثال السابق مع السين، فحين سمح للهواء معها بالمرور وصارت رخوة أشبهت السين كل المشابهة، وليس هناك فرق بين السين والصاد، إلاَّ في أن الثانية مطبقة وهكذا تمَّ الإدغام بين التاء والصاد.

6- الزاي:

مثل قوله تعالى:﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُم سَعِيرَا ﴾ (3)، وهنا جهر بالتاء أوّلاً فصارت دالا لأن الزاي مجهورة ثم سمح للهواء معها بالمرور فأصبحت رخوة تتحدث عند النطق بها صفيراً كالزاي وبذلك جاز إدغامها في هذا الموضع.

تدغم التاء إدغاماً كبيراً في الأصوات الآتية:

أ- الذال: مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيْئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِين ﴾ (4)، سقط أولا صوت اللين الفاصل بين التاء والذال ليتم تجاور الصوتين- وكذلك يجب أن يحدث مثل هذا في كل إدغام كبير- ثم انتقلت التاء بمخرجها إلى مخرج الأصوات المسماة باللثوية مع السماح للهواء بالمرور حين النطق بها لتصبح رخوة كالذال وبذلك تمت المماثلة بين التاء والذال وأدغمت الأولى في الثانية.

1- يوسف : 19.
2- النساء : 90 .
3- الإسراء : 97 .
4- هود : 114.

النطق بها لتصبح رخوة كالذال وبذلك تمت المماثلة بين التاء والذال وأدغمت الأولى في الثانية.

ج– الضاد:

مثل قوله تعالى:﴿ وَالعَادِيَّات ضَّبْحَا ﴾(1)، ويظهر أن هذا الإدغام قد تم بعد أن تطور النطق بالضاد فأصبحت كما ينطق بها الآن أي الصوت المطبق للدال(2).

وعلى هذا فقد جهر بالتاء أولا فأصبحت"دالاً" ولا فرق بين الدال والضاد الحديثة إلاَّ في أن الثانية مطبقة، وهكذا يتم الإدغام في هذا المثال الذي لم يرو غيره في القرآن الكريم.

الثاء: تدغم الثاء إدغاماً صغيراً في الأصوات الآتية:

1– الدال:

مثل قوله تعالى:﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ القَومِ الذِّينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ (3)، وهو المثل الوحيد في القرآن الكريم، والإدغام هنا واضح جلي ، لأنه لا فرق بين الثاء والذال إلاَّ في أن الأولى مهموسة والثانية نظيرها المجهور فمتى جهر بالثاء أصبحت ذالاً ،وبذلك يكون الإدغام بين صوتين متماثلين كل المماثلة.

2– التاء:

مثل قوله تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُم قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم كَمْ لَبِثْتُم﴾ (4)، نطق وتسمع" لبتم"وهنا انتقل مخرج التاء إلى الأصوات المسماة باللثوية مع السماح للهواء بالمرور معها لتصبح رخوة بعد أن كانت شديدة، وبذلك يتحد الصوتان في الرخاوة والمخرج والهمس فيتّم الإدغام .

وبعد ملاحظة أمثلة الإدغام ستجد فيه تخفيضاً للجهد اللساني<< بإزالة المراوحة في حيّز صوتي واحد، ولوناً من الإضعاف والتوهين لأول المتماثلين فهو لا يستطيع الاندماج إلاَّ بعد فقده لبعض قيمته الصوتية الأصلية >>(5).

—

1- العاديات :01 .

2- الأصوات اللغوية ، إبراهيم أنيس ، ص

3- الأعراف : .176

4- الكهف : .19

5- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، فخر الدين قباوة ، ص: 184.

6– التفخيم والترقيق:

تتأثر الصورة الصوتية للحرف الواحد بما حولها من الأصوات <<فتأخذ طوابع جديدة تتناسب مع ذلك المحيط، وهي نفسها تؤثر فيما تجاوره أيضا>> [1]

ومن الأمثلة الدالة على تأثر الفونيمات بعضها ببعض ضمن المحور التركيبي للوحدات والجمل<< تلون الألف بحسب ما قبلها من الأصوات فتكون فخمة بعد أحرف الاستعلاء (ق، ظ، ح، ص، ض، غ، ط) وأفخم بعد المطبقة منها (ص، ض، ط، ظ)، ورقيقة بعد سائر الحروف، وبعد تذوق الحرف نجده بين الألف والواو في مثل: قام صالح>>[2].

ومن الأمثلة الخاصة بحرف اللاّم فيما يخص التفخيم والترقيق لفظ الجلالة "الله" فإننا نجدها ظاهرة القوة والضخامة، وإذا سُبق الاسم العظيم كَسْر مباشر زال عنه التفخيم وصار إلى الرقة والسهولة ليكون انسجام في سياق اللفظ المتواصل نحو قولنا: بسم الله، أو بالله،كما تميل إلى الرقة أيضا إذا جاورها حرف تفخيم نحو: حلق، سلخ.....ففي هذه الأمثلة المذكورة تتغير صفة الفونيمات من التفخيم إلى الرقة<<استجابة لداعي من الأسماء أو الأفعال أو الحروف خضعت لتطورات جديدة تصقل الألفاظ، وتُكَوِّن منها صورة انسيابية متساوقة الأجزاء، أداؤها لا يوازي مجموع الأصوات المشتركة فيها>>[3].

أما النوع الآخر من أنواع تقليل الأصوات فيتمثل في ترقيق الحرف وهو" انحاف صوته وانحاله"(4)،وغالباً ما يكون في الرَّاء فتنطق بنوع من الضعف والرقة إذا كانت مكسورة مثل رِياح، رِمال، ديارِهم قال تعالى: ﴿ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالقَمَرِ إِذَا تَلاهَا﴾ (5).

وقال تعالى:﴿ وَأَمَّا عَادُ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَه ﴾ (6)، وقال تعالى:﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُود﴾ (7).

فالترقيق في الألف أو الراء هو منزلة بين بين ليس كاملاً ولا بالمفقود تماماً ،فهي حالة

—

1 – مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، فخر الدين قباوة، ص: 23.

2 – المرجع نفسه ، ص: .23

3 – المرجع نفسه ، ص: .24

4- النشر ، ج 2، ص: 90 .

5- الشمس : 01 .

6- الحاقة : 06 .

7- البروج : 05 .

وسط، وإمالة الألف لدى غير الحجازيين ضرب من الإضعاف، ولجأت تلك القبائل إلى الإمالة لأنّ الانتقال بين تلك الأصوات والألف فيه شدّة كمن يتصّعد في زاوية حادّة من طرف أحد أضلاعها على الرأس ثم طرف الضلع الآخر...

ولتخفيف هذه المشقة في إخراج الكلام ينعطف التصويت بإمالة بين الألف والياء فيصير كالسير في خطّ منحن محدَّب لطيف...(1).

الإقلاب:

يُعد الاقلاب من الظواهر الصوتية التي تعد وسيلة من وسائل الاقتصاد ،لأنه هروب من ثقل تجاور حرفين متقاربي المخرج، ومثال ذلك النون الساكنة تتأثر بالباء التالية لها فتقلب إلى صوت من مخرج الباء كما في قوله تعالى :﴿ إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ (2) فعند النطق بها تنطق ميما "امبعث"تأثرت النون بالباء فقلبت الأولى ميما ،قال سيبويه:<< وتقلب النون من الباء ميما لأنها من موضع تعتل فيه النون >>(3).

ومثاله قوله تعالى أيضا:﴿ وَمَا تَفَرّقَ الذَّينَ أُوتُو الكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُم البَيِّنَة﴾ (4) فتقلب النون ميما ليسهل الانتقال من الميم إلى الباء ،ويكون عمل اللسان من وجه واحد وبدون توقف، فتنطق " ممبعد "، وقال تعالى :﴿ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًا ﴾(5)، ننطقها " فأمبتنا وقال تعالى:﴿ وَمَن يَّكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدْ اِسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى﴾(6)، والإقلاب هنا في قوله ﴿ يومن بالله ﴾ تنطق " يومِمْ بالله"وقال تعالى:﴿ وَكَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيْلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيْرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِين ﴾ (7)،" ننطق "كثيرتم بإذن الله"، وقال تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنا ﴾ (8)، تقرأ "فأمبتها" والأمثلة في القرآن الكريم كثيرة .

—

1- ينظر : الاقتصاد اللغوي ص: 185، 186.
2- الشمس : 12 .
3- الكتاب ، 4/453.
4- البينة : 4 .0
5- عبس : 27 .
6- البقرة : 256 .
7- البقرة : 249.
8- آل عمران :37 .

الإخفاء :

و هو خاص بالنُّون الساكنة، وهو النطق بصوتها بين الإظهار والإدغام مع الغنة خالياً من التشديد وذلك بإسكات ذبذبات الوترين لتصير النون المجهورة مهموسة، وتكون ضعيفة خفيفة قبل 15حرفاً من حروف الفم ومنها الكاف مثل منكسر، والسين مثل إنسان قال تعالى: ﴿ يَا أَيُهَا الإنْسَانُ إِنّكَ كَادِحٌ إلى

رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهْ ﴾ (1)، والزاي مثل أنزل،قال تعالى:﴿إِنّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيلَةِ القَدْرِ ﴾ (2)، والفاء مثل يُنفق قال تعالى:﴿لِيُنْفِقْ ذُو سِعَةٍ مِنْ سِعَتِهِ ﴾ (3)، وقال أيضا:﴿ وتكون الجِبَالُ كَالْعِهْنِ المَنْفُوشِ﴾ (4)، والشين مثل يَنشأ، قال تعالى:﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ انْشَرَه ﴾ (5)والتاء مثل أنتم أو أنت،قال تعالى:﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾ (6)، وقال أيضا: ﴿ فِيْمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَّخْشَاهَا﴾ (7) والدّال مثل عند،قال تعالى:﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرْشِ مَكِين ﴾(8)، والثاء مثل منثور، والجيم مثل ينجو: ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها ﴾.

فالنون مخرجها بين طرف اللسان ولثة الثنايا العليا، ومجاورتها هذه تنحرف بها إلى جوانب من مخارج تلك الحروف المذكورة فيتعذر تحقيق الصوت الكامل للنون فيضطر إلى إخراجها من الخيشوم مع شيء من المد الصوتي بالغنة .

الإتباع:

هو لون من ألوان التخفيف والاقتصاد في الصوت، ومعناه: "إلحاق حركة لحركة أو إتباع أنواعه: إتباع حركة آخر الكلمة المعربة لحركة أول الكلمة بعدها كقراءة من قرأ: الحمدِ لله بكسر الدَّال إتباعاً لكسر اللام، أو إتباع حركة أول الكلمة آخر الكلمة

—

1- الانشقاق : 6 .0

2- القدر: .01

3- الطلاق : 7 0 .

4- القارعة : .05

5- عبس : .22

6- عبس : 10 .

7- النازعات : 43، 45 .

8- التكوير : 20 .

السابقة كقراءة من قرأ الحمدُ لُله بضم اللام إتباعا لضم الدَّال قبلها(1).

وإتباع حركة الحرف الذي قبل آخر الاسم المعرب لحركة الإعراب في الآخر وذلك في امرئٍ وابنم، فإن الراء والنون يتبعان الهمزة والميم في حركتهما نحو قوله تعالى ﴿إِنِ اِمْرؤٌ هلك﴾ (2) فنون " إنْ" ساكنة في الأصل، وحرِّكت بالكسر من أجل التوافق الحركي ، ولكي يكون عمل اللسان من

وجه واحد، وهذا التتابع الحركي ينتج عنه خفة ملحوظة ، لأنه يقوم على الاقتصاد في الجهد العضلي، وهذا ما نادى به علماء اللسانيات في العصر الحديث، نقل الدكتور أحمد مختار عمر عن أندريه مارتنيه أنه قال:<<التغيرات الصوتية الهامة في اللغة ترجع أساسا إلى الميل إلى استعمال الوسائل الفونيمية في اللغة اقتصادا وبطريقة سهلة بقدر الإمكان >>(3).

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتُ امُّكِ بَغِياً ﴾ (4)، وقال تعالى: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُم إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي به أَنُ اُعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُم ﴾ (5)، فنون أنْ ساكنة في الأصل، ونطقها ساكنة بجوار الهمزة المضمومة يحدث ثقلا يعرقل انسياب الصوت، ويوجب توقفا على النون بالسكون ثم الصعود من أجل النطق بالهمزة المضمومة، ومن أجل تيسير النطق وخلق نوع من المناسبة الصوتية والانسجام بين الحروف والحركات أتبع الأمام ورش حركة النون بالهمزة فتحرّكت بالضم مثلها، ومثل هذا أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيءَ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذْنٌ قُلُ اُذْنُ خَيْرٍ لَكُم ﴾ (6)،وقد قرأ أبو جعفر قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اُسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ بضم تاء الملائكة في المواضع الخمسة (7).

ومنه إتباع الكلمة في التنوين لكلمة أخرى منونة صحبتها كقوله تعالى:﴿ وَجِئتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِيْن ﴾(8) وقال تعالى:﴿ إنّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ سَلَاسِلًا وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾ (9)

—

1- الأشباه والنظائر في النحو جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي دار الكتب العلمية ن بيروت، لبنان، م1/ج1/ ص 24/23

2- النساء : 176 .

3- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر ، أحمد مختار عمر ، ط دار المعارف 1971م ، ص89 .

4- مريم : 28 .

5- المائدة: 117.

6- التوبة :61 .

7- دراسات لأسلوب القرآن ، محمد عبد الخالق عضيمة ، دار الحديث ، القاهرة ،القسم2، ج1 ، ص 6 .

8- النمل :22 .

9- الإنسان : 04 .

الفصل الثالث: الاقتصاد اللغوي على مستوى الدلالي

- تعدد المعنى الوظيفي للكلمة

– انفتاح الدلالة في السياق

– الوقف واقتصاد اللغة

– تناوب الصيغ الصرفية

– مفردات اللغة والاقتصاد.

– الصيّغ اللغوية وتفاوتها في الاستعمال.

– ترداد الحركات

– ترداد الحروف.

– ترداد الألفاظ.

– الاقتصاد اللغوي في القراءات القرآنية

– القراءات القرآنية وتعدد المعنى

– التصويرالفني في القرآن الكريم

الاقتصاد اللغوي في المستوى الدلالي :

اللغة لا تتكوّن من أصوات منفردة منعزلة<< لأن الأصوات المنفردة لا تتجاوز أن تكون في معظمها رموزا مبهمة لا تؤدي وظيفتها إلا إذا ارتبط بعضها ببعض ارتباطا وثيقا

وأُلِّفَتْ وفق نظام معين في مجموعة، أو وحدات صوتية متجانسة ومتلائمة، وهذه المجموعات أو الوحدات الصوتية هي الكلمات، وعليه فمن الأصوات تتشكّل المقاطع، ومن هذه الأخيرة تتشكل الكلمات، ومنها وعن طريق التركيب والبناء تنشأ الجملة التي بها يتم التواصل بين أفراد المجموعة الواحدة المستعملة لتلك اللغة>>[127].

وهذه الخاصية تشترك فيها جميع اللغات البشرية، ومن ضمنها اللغة العربية التي تمتاز بثروة واسعة من المفردات بما في ذلك المترادفات والأضداد وغيرها.

والمراد بالمترادفات أن يعبّر بعدة ألفاظ عن المعنى الواحد، وتعد هذه الخاصية من أبرز ما يميز العربية عن سائر لغات الأمم بل "إن العرب فاقوا في ذلك سائر أمم الأرض"[128].

وقد يبدو أن هذا الزخم الهائل من المترادفات في العربية يجعلها بعيدة كل البعد عن ميزة الاقتصاد في الكلام، إلا أن الواقع عكس ذلك تماما، فما تحتوي عليه من مترادفات يساعد على إعطاء كل موقف ما يناسبه من مفردات أو تراكيب وجمل.

تعدد المعنى الوظيفي للكلمة: لا شكّ أنّ ألفاظ اللّغة تتعرض على مَرّ الزَّمن لأنواع من التطور في المعاني والدلالات ، وقد يكون هذا التطوّر إمّا بتخصيص العام ، أو بتعميم الخاص ،أو بنقل مفهوم اللفظ من المعنى اللغوي إلى معنى اصطلاحي جديد .

وتمتاز الصيغ التعبيرية في لغة العرب،<< أنّها تحمل في طياتها دلالات مختلفة، تضع كلا منها في الألفاظ المناسبة، فيتميّز بعضها عن بعض بالسياق والقرائن، وهو ما نسميه المشترك الصرفي>>[129].

وفي العربية "نيف ومئتا لفظ يدلّ كلّ منها على ثلاثة معاني، ونيف ومئة لفظ يدل الواحد منها على أربعة، ومثلها التي على خمسة معاني، وقس على ذلك ما يدلّ على ستة معاني، فسبعة فثمانية فتسعة إلى خمس وعشرين معنى كالحميم ،ومما يزيد على ذلك، كلفظ "الخال" فإنّها تدلّ على سبع وعشرين معنى، وللفظ العين خمس وثلاثين معنى، وللفظ العجوز ستين معنى"[130]

---

[127]- ينظر: الحصيلة اللغوية – وسائل تنميتها د: أحمد معتوق علم المعرفة- الكويت، طبعة (1996م) ، ص: 45.

[128]- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، ج1، ص: 48.

[129]- الاقتصاد اللغوي، فخر الدين قباوة، ص: 95.

[130]- تاريخ آداب اللغة العربية، جورج زيدان، ج1، ص: 49.

إضافة إلى هذا أنك إذا استعرضت ما تتضمنه صيغة مثل "مفعل" رأيت أنها تصلح للتعبير عن اسمي الزمان والمكان، وعن المصدر الميمي، مثل: مطلع ومدخل ومجرى وتحمل صيغة "أفعل" معاني صرفية كثيرة حين تخصص للماضي نحو: أضحك ترد للتعدية، والمطاوعة مثل، أكبّ، والإزالة: أعذر، والصيرورة: أثمر، والإصابة أكبر والبلوغ: أصبح، والمبالغة: أضاء، والإغناء عن المجرد: أفلح، وترد للتسمية والاستحقاق والتعريض والكثرة والإعانة"[131].

وكثيرا ما نجد القرآن الكريم يستعمل لفظاً واحداً ويحمَّله معاني مختلفة، وهذا ما يُعرف بالمشترك اللفظي" وقد جُعل هذا من أنواع معجزات القرآن حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجها أو أكثر أو أقل ، ولا يوجد ذلك في كلام البشر .

فالقرآن يبني بلبنة واحدة بنايات شاهقة غاية في الجمال فهو حمّال أوجه ، و مسألة احتمال النص لأكثر من معنى كانت معلومة للسلف ،يتضح ذلك من الحوار الذي دار بين عبد الله بن عبّاس، وعلي بن أبي طالب لما أراد أن يبعثه إلى الخوارج ليحاججهم

قال ابن عباس<< يا أمير المؤمنين فأنا أعلم بكتاب الله منهم، في بيوتنا نزل، قال : صدقت ولكن القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن خاصمهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً >>([132]) .

ومن أمثلة ذلك تفسير الأزواج على ثلاثة أوجه : الحلائل، الأصناف، القرناء ([133]).

قال تعالى﴿ وَلَهُم فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهّرةٌ ﴾ ([134]) ، يعني الحلائل، و كذلك سورة آل عمران

وقال في سورة النساء ﴿وَلَكُم نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُم ﴾([135]) ، يعني امرأة الرجل.

الوجه الثاني:قال تعالى:﴿ أَوَلَمْ يَرَوا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيم ﴾ ([136]) يعني كل صنف من النبت، وقال تعالى:﴿ سُبْحَانَ الذِّي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُون ﴾ ([137]) وقال في سورة هود ﴿ قُلْنَا اِحْمِلْ فِيْهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اِثْنَيْن﴾ ([138])، يعني من كل صنفين من المخلوقات اثنين.

---

[131]– ينظر: الاقتصاد اللغوي، ص: 95، 96.

[132] – التفسير اللغوي للقرآن الكريم ،د مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ، دار ابن الجوزي ط1، (1422هـ)، ص597.

[133] – الوجوه والنظائر لكتاب الله العزيز ،تأليف:أبي الله الحسين بن محمد الدّامغاني (ت478هـ)،تح: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية ،ص 22.

[134] – البقرة: الآية 25.

[135] – النساء : 12 .

[136] – الشعراء :7.

[137] – يس :36.

الوجه الثالث: الأزواج يعني القرناء ، قال تعالى:﴿ اُحْشُرُوا الذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُم وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ ([139]) ،أي قرناءهم من الشياطين، وقال تعالى:﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ ([140]) يعني قرنت نفوس المؤمنين بالحور العين،و نفوس الكفار بالشياطين.([141])

وقد تم تفسير النداء في القرآن على سبعة أوجه :([142]) الأذان، الدعاء ، الكلام ، الأمر النفخ في الصور، الحساب و الاستغاثة .

فوجه النداء: بمعنى الآذان قوله تعالى: ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلْصَّلَاةِ مِن يَّومِ الجُمُعَة ﴾ ([143])، ومثلها في المائدة :﴿وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلاَةِ اِتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ﴾ ([144])، يعني الآذان.

الوجه الثاني: النداء يعني الدعاء مثل قوله تعالى :﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًا ﴾([145]) دعا ربه دعاء خفيا، وفي سورة الأنبياء :76﴿ وَنُوْحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾، يعني إذ دعا ربه ([146]) .

الوجه الثالث: النداء الكلام مثل قوله تعالى:﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾([147]) يعني كلَّمنا موسى ([148]).

الوجه الرابع: و يعني الأمر مثل قوله تعالى:﴿ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ايتِ القَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ([149])، أمر ربك موسى .

الوجه الخامس: النداء ويعني النفخ في الصور قال تعالى:﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي المُنَادِ﴾ ([150]) أي يوم ينفخ في الصور .

الوجه السادس:النداء يعني الحساب قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِم أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيد﴾ ([151])، أي يحاسبهم ويجازيهم.

---

[138] – هود :40 .

[139] – الصافات : 22 .

[140] – التكوير : 07 .

[141] – الوجوه والنظائر لكتاب الله العزيز ،تأليف:أبي الله الحسين بن محمد الدّامغاني (ت478هـ) ، ص 23 .

[142] – الوجوه والنظائر ، ص 443، 444 .

[143] – الجمعة : 09 .

[144] – المائدة : 58 .

[145] – مريم 03: .

[146] – تفسير الطبري ،4 /631.

[147] – القصص :46 .

[148] – الكشاف 418/3.

[149] – الشعراء : 10 .

[150] – سورة ق :41.

الوجه السابع: النداء يعني الاستغاثة، مثل آية الزخرف ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّك﴾ ([152])،أي استغاثوا ، وغيره كثير.

كما أنّنا نجد الصيغة الواحدة يمكن التعبير بها عن دلالات مختلفة، فهي تصلح في مواضع عديدة لبناء الجمل والتراكيب ، ومثال ذلك صيغة الأمر "افعل" "حقيقة إذا وردت مطلقة وعارية من القرائن، وقد اتفق الأصوليون على أنها تُحدُّ بخمسة عشر اعتبارا: [153]

الوجوب كقوله تعالى:﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ ﴾ [154]، والندب كقوله تعالى:﴿ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيْهِم خَيْرًا ﴾ [155]

والإباحة كقوله:﴿ فإذا حللتم فاصطادوا [156]، والتأديب وهو داخل في الندب كقوله-ص - ﴿كُلْ مِمَّا يَلِيْكَ﴾ والامتنان قوله تعالى: ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ ﴾ [157].

والإكرام كقوله: ﴿ اُ دخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِين﴾ [158]،والتهديد كقوله:﴿اِعْمَلُوا مَا شِئْتُم إنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ [159].

والتسخير كقوله تعالى:﴿كُوْنُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [160]، و التعجيزكقوله: ﴿قُلْ كُوْنُوا حِجَارَة أَوْ حَدِيْدًا ﴾ [161] والإهانة كقوله: ﴿ذُقْ إِنّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الكَرِيم ﴾ [162]، والتسوية كقوله:﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا ﴾ [163]، والدعاء كقوله:﴿ رَبِّ اِغْفِرْ لِي ﴾[164]، وكمال القدرة كقوله :﴿ كُنْ فَيَكُون ﴾" [165]، والتمني كقول الشاعر:" ألا أيها الليل الطويل ألا انجلِ"، وهكذا مع النهي فإنه طلب ترك الشيء وصيغته "لا تفعل" وتفيد

---

[151] - فصلت :47 .

[152] - الزخرف :77 .

5- الإحكام في أصول الأحكام، أبي علي بن محمد الآمدي، ضبطه وكتب حواشيه الشيخ إبراهيم العجوز، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص: 367.

[154]- الإسراء: 78.

[155]- النور: 33.

[156]- المائدة: 02.

[157]- الأنعام: 142.

[158]- الحجر: 46.

[159]- فصلت: 40.

[160]- البقرة: 65.

[161]- الإسراء: 50.

[162]- الدخان: 49.

[163]- الطور: 16.

[164]- نوح: 28.

[165]- يس: 82.

التحريم، وتخرج عن أصلها لتفيد معاني أخرى كالكراهية والتحقير والدعاء واليأس، وبيان العاقبة وغيرها من الأغراض.

وكما توجد الأسماء والأفعال ذات المعاني المتعددة توجد كذلك الحروف ذات المعاني المتعددة والمختلفة فـ" ما" حرف للنّفي في قوله تعالى على لسان أهل الكتاب: ﴿ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيْرٍ وَلَا نَذِير﴾ ([166])، وحرف استفهام مثل: ما جزاء من فعل هذا ؟

وما تعجبية: ما أعظم خلق الله، وكذلك الهمزة والباء ...<< وقد رأى بعض علماء اللغات أنَّ هذه الحروف بقايا ألفاظ مستقلة بمعانيها ([167])، وهذا الباب الاقتصادي في العربية جاء في التنزيل الحكيم منه الشيء الكثير .

وإمكانية توظيف وحدة دلالية في التعبير عن العديد من المعاني يُعد ملمحا وسمة اقتصادية واضحة في النظام اللغوي العربي،و هذه المفردات والصيغ أشبه بأداة متعددة الوظائف ، فتغنيك عن أدوات أخرى ربما لم تكن موجودة في الوقت الذي تحتاجها فيه أو أنّ استخدامها يُكلِّف جهدا زائدا عن استخدام الأداة الأولى .

انفتاح الدلالة:

اللغة العربية لغة مرهفة الحسّ حمّالة أوجه حيث يتغير معنى كلماتها بتغير حركاتها، كما أنّ للمفردة دلالة داخل السياق وأخرى خارجه ،بل ويتبدل مفهوم جملها حسب نبرة

الصوت التي تنطق به، وملامح الوجه والإشارات المصاحبة لعملية الكلام فمثلا إذا قلنا: ما أحسن خالد، هذه الجملة تنفتح لأكثر من دلالة بحيث نفهم منها النفي والاستفهام والتعجب ،وبلاغة القرآن الكريم فاقت بلاغة كل خطيب ،ودلالاته منفتحة على كل العقول .

فإذا استمع إلى آية واحدة أصناف مختلفون من البشر في السن والجنس واللون فإنهم يفهمون منها كلٌّ حسب ما أوتي من علم ومعرفة ودراية بالعربية، و القرآن منبع ثَرّ وعين فيَّاضة، ودستور متجدد يفهم منه العالم مقصد الشارع الحكيم، ويجد فيه الطبيب الدواء ويستخرج منه عالم النفس أدواء القلوب وأدويتها، ويحصل منه عالم الفلك على قوانين الكون وأسراره.

ويرى فيه البليغ أفانين القول وأصناف البيان ،ويستخلص منه علماء التفسير الجواهر والدرر، فتجد الآية الواحدة تحتمل أكثر من معنى ،واختلاف المعاني هو ما جعل علماء الدين والتفسير يختلفون في معاني

---

[166] – المائدة: الآية19.

[167] – تاريخ أداب العرب مصطفى صادق الرافعي ، ج1، ص187 .

المفردات والتراكيب اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد فهذا يفهم معنى" وراء" التي في قوله تعالى:﴿وَكَانَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ﴾ (1) بمعنى خلف وفريق آخر يفهمها بمعنى أمام، قال صاحب البحر المحيط:" وقرأ الجمهور: وراءهم، وهو لفظ يُطلق على الخلف وعلى الأمام، ومعناه هنا أمامهم ،وكون وراءهم بمعنى أمامهم قول قتادة وأبي عبيد ، وابن السكيت والزجاج ،ولا خلاف عند أهل اللغة أنّ وراء يجوز بمعنى قُدّام " (2) .

ومسألة احتمال النص لأكثر من معنى كانت معلومة للسلف يتّضح ذلك من قول علي بن أبي طالب لعبد الله بن عباس – رضي الله عنه – لما أرسله إلى الخوارج لمحادلتهم فقال له :<< اذهب إليهم ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وُجوه>>(3) .

وانفتاح معاني آيات الذكر الحكيم في دلالاتها هو ما يُيَسِّر هذا الدين على البشر في كل مكان وزمان ويكتب له الخلود إلى يوم الدين .

1- الكهف : 79 .

2- البحر المحيط ، ج6، ص 145.

3- التفسير اللغوي للقرآن الكريم ، د/ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ، دار ابن الجوزي ، ط1 ، (1422هـ) ، ص597 .

ونقصد بانفتاح الدلالة تعدد المعاني في السياق الواحد<<وانفتاح الدلالة في غير السياق القرآني قد يكون ذا صبغة سلبية إذ إنَّ المتكلم قد يأتي به للإيهام دون الإحكام فلا يقفُ السَّامع على مُراده إلاَّ بالتوهم دون التحكم >>([168]) .

كما في بيت الحطيئة حينما هجا الزبرقان بن بدر حيث يقول:

دَعِ المكارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبغْيَتِهَا **** وَاقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطّاعِمُ الكَاسِي.

بحيث لا يستطيع أحد أن يجزم أنه هجاء لأنَّ ظاهره مدح"طاعم كاسي" ،بينما القرآن الكريم منفتح الدلالة يقف كل قارئ أو سامع له على مراده حسب ما تأتى له من أدوات إجرائية تيسر له سبل الفهم، و أوّل ما نبدأ بالحديث عنه هو الوقف والابتداء ،فهما يلعبان دورا كبيرا في التعدّد والاحتمال للمعاني داخل السياق الواحد .

الوقف:

هو عبارة عن قطع الصوت عن الكلمة زمنا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة ([169]) و تتجلى أهميته في توضيح المعنى، و" به تعرف جلالة المعاني وجزالتها، وفائدته أن يكون دليلاً على حسب المدلول عليه أو مرجحاً " ([170]) .

الوقف واقتصاد اللغة :

تختلف القراءات القرآنية عن بعضها البعض في أمور منها الذكر والحذف والتقديم والتأخير والوقف والابتداء، ولهذا الأخير أهميته في فهم المعنى، قال الزركشي في البرهان: <<هو فن جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة، وبه تتبين معاني الآيات ،ويؤمن الاحتراز من الوقوع في المشكلات>>([171]) .

بيّن صاحب البرهان قيمة الوقف في تأدية المعنى فبه يمكن فهم واستنباط المعاني الغزيرة من النصوص اللغوية، والوقف على لفظ معيّن يعطي معنى مخالفاً لما لو وقفنا على لفظ بعده أو قبله، ومن الأمثلة الدالّة على ذلك ما يرويه الزجّاجي(ت391ه) أنَّ اليزيدي (*)

---

[168] – مباحث لسانية في ظواهر قرآنية،د/ مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط1 (2008م) ،ص15 .

[169] – شرح طيبة النشر قي القراءات العشر، الإمام شهاب الدين أبي بكر ابن الجزري الدمشقي (ت835ه) ضبطه وعلّق عليه: الشيخ أنس مهرة ، منشورات علي بيضون ، دارالكتب العلمية ،بيروت لبنان ،ص183 .

[170] – البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام بدر الدين عبد الله الزركشي (ت 794ه) تح: أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة،ج1،ص235.

[171] – البرهان في علوم القرآن ج1 ،ص237.

(ت202هـ) سأل الكسائي بحضرة الرشيد فقال أُنظروا في هذا الشعر عيب؟وأنشده :

ما رأينا خرباً(**) *** نَقَّر عنه البيض صَقْرُ .

لا يكون العَيْرُ مُهْراً *** لا يكون المهرُ مهرُ.

فقال الكسائي: قد أقوى(***) الشاعر، فقال اليزيدي:انظر جيداً، فقال:أقوى لابدَّ أن ينصب المهْر الثاني على أنه خبر كان، قال فضرب اليزيدي بقلنسوته الأرض وقال:أنا أبو محمد، الشعر صواب إنما ابتدأ فقال: المهر مُهرُ فقال له يحي بن خالد: أتتكنّى بحضرة أمير المؤمنين وتكشف رأسك !والله لخطأ الكسائي مع أدبه أحبُّ إلينا من صواب مع فعلك، فقال:" لذةُ الغلب أنستني من هذا ما أُحسنُ" (1) .

ولو أنّ اليزيدي وقف على "لا يكون" الثانية لفهم الكسائي أنّ المعنى قد تمّ ،و"لا يكون" الثانية هي توكيد للأولى ، وجملة : المهرُ مهرٌ جملة اسمية فيها مبتدأ وخبر، وعليه ألاّ يرمي الشاعر بالإقواء ، لكنّ اليزيدي لما وصل الكلام التبس الأمر على الكسائي ورأى أنّ في البيت إقواء وأوجب النصب "للمهر" الثانية على أنّها خبر لكان، وكما أنَّ الوقف يُعين السامع على الفهم فهو يُعين القارئ في فهم ما يقرأ، قال السيوطي قال ابن الأنباري:من تمام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء فيه (2)..

فقارئ القرآن لا يعرف معنى الآيات إذا لم يقف في المواضع الجائز أو الواجب فيها الوقف، ونظرا لأهميته وخطورته على المعنى قال ابن مجاهد (ت324هـ)<<لا يقوم بالتمام في الوقف إلاَّ نحوي عالم بالقراءات عالم بالتفسير والقصص وتخليص بعضها من بعض عالم باللغة التي نزل بها القرآن >> (3).

(*)- اليزيدي : يحي بن المبارك أبو محمد مولى بني عدي بن مبارك بن مناة، سكن بغداد وحدّث عن أبي عمرو والخليل وعنهما أخذ العربية،كان أحد القراء الفصحاء، أدّب المأمون صنف مختصرا في النحو.... بغية الوعاة 340/2.

(**)- خَرباً: الخرب ذكر الحبارى ، والعير الحمار ،والمعنى لا يحاول الصقر استخراج صقر من بيضة الحبارى .

(***)- أقوى: الإقواء في موسيقى الشعر هو اختلاف حركة الروي في قصيدة واحدة، وهو أن يجيء بيت مرفوعا وآخر مجروراً.

1- مجالس العلماء لأبي القاسم عبد الرحمان بن اسحاق الزجاجي، تح وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي القاهرة ط3، (1999م) ،ص195.

2 - الإتقان في علوم القرآن ،ج1، ص249 .

3- الإتقان في علوم القرآن ، السيوطي ، 87/1.

ومعرفة مواطن الوقف والابتداء تعين كثيراً على فهم المعنى وخاصة في القرآن، فالموضع إذا كان يتطلب الوقف ووصلت تكون قد غيرت المعنى تماما، والعكس إذا كان المقام يتطلب الوصل ووقفت غيرت المعنى كذلك.

والعلم بالوقف والابتداء من العلوم المنقولة التي ليس للقارئ اجتهاد فيها إلاَّ ما يأخذ من غيره عن طريق التلقين" (1)، ومن أمثلة الوقف في التنزيل العزيز والتي يتجلّى فيها انفتاح الدلالة و توارد المعاني قوله تعالى:﴿ وَ كأيِّن مِّن نَّبِي قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ(*) كَثِيرُ ﴾(2).

فإذا وقف على كلمة"قُتِل" كان المعنى :أن أنبياء كثيرين قتلهم قومُهم وأعداؤهم ومع الأنبياء أصحابهم فما تزلزلوا لقتل أنبيائهم ،فكان المقصود تأييس المشركين من وهن المسلمين على فرض قتل محمد(ص).

وإذا وُصل قوله"قُتل" إلى "كثير" كان المعنى :أنّ أنبياء كثيرين قُتِل معهم رجال من أهل التقوى فما وهن من بقي بعدهم من المؤمنين، وذلك معنى قوله تعالى:﴿وَلاَ تَحْسِبَنَّ الذِّينَ قُتِلُوا فِي سَبِيْلِ اللهِ أَمْوَاتَا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا ءَاتَاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالذِّينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّن خَلْفِهِم أَلاّ خَوْفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحْزَنُونَ ﴾(3).(4)

فالوقف على كلمة" قُتل" أفضى إلى معنى أنَّ الأنبياء قُتلوا لوحدهم" والوقف" على كثير يُفضي إلى أنَّ الأنبياء قُتلوا مع أتباعهم من المؤمنين، وكُل هذا حصل، فهناك من الأنبياء مَنْ قُتل بمفرده، وهناك من قُتل مع أتباعه، والآية الكريمة أخبرت عن الصنفين معاً والوقف هو السبيل المفضي إلى معانيها ودلالاتها.

قال الطّاهر بن عاشور<< والتعدد في الوقف يحصل به ما يحصل بتعدد وجوه القراءات من تعدد المعنى مع اتحاد الكلمات>>(5).

1- المكتفي في الوقف والابتداء، أبو عمر الداني، تح: جايد زيدان مخلق، مطبعة وزارة الأوقاف بغداد، (1983م)، ج1، ص12.

(*)- رِبّيون: جموع كثيرة ،قال حسان بن ثابت: وإذا معشر تجافوا عن الحـ ق حملنا عليهم ربيا

إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل ، تأليف : أبي بكر محمد بن قاسم بشار الأنباري النحوي (271هـ ت328هـ) تح:محي الدين عبد الرحمان رمضان،دمشق (1971م)، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ج1،ص 78 .

2- آل عمران :146.

3- آل عمران : .170،169

4- تفسير التحرير والتنوير محمد الطاهر عاشور، الدار التونسية ،(1984م) ، ج82/1.

5- تفسير التحرير والتنوير ، ج1 ، ص83.

ومن الأمثلة التي يتجلى فيها انفتاح الدلالة الحاصل عن الوقف قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ﴾ (1)

ففي الآية الشريفة يجوز الوقف على كلمة"سواء"،والكلمة السواء هي لا إله إلا الله، ويجوز الوقف على لفظ الجلالة "الله" وكل وقف يعطينا معنى ،وقد قسّم الأنباري الوقف إلى ثلاثة: وقف تام، وقف حسن ليس بتام، وقف قبيح ليس بحسن ولا تام. (2)

والوقف التام هو الذي يحسن عليه الوقف والابتداء بما بعده ولا يكون بعده ما يتعلق به مثل قوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدَىً مِن رَّبِّهِم وَأُولَئِكَ هُم المُهْتَدُونَ ﴾ (3) يحسن الوقف على "المفلحون" ويحسن الابتداء بما بعده "إنّ الذين" والوقف الحسن هو الذي يحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده مثل﴿الحمد لله﴾ يحسن الوقف على "الله" ولا يحسن الابتداء بما بعده" رب العالمين"، والوقف القبيح مثل﴿ بسم الله﴾ الوقف على "بسم"(4).

تناوب الصيغ الصرفية :

وهناك عامل آخر يساهم في انفتاح الدلالة وهو تناوب الصيغ الصرفية في الكلام فكثيراً ما نجد اسم الفاعل يقوم مقام اسم المفعول أو العكس ،قال ابن فارس:" قيام"مفعول" مقام المصدر وقيام "فاعل" مقام المصدر (5).

وقيام "فعيل" مقام "فاعل" و"مفعول" و"مفعِل" وقيام "أفعل" مقام "فعيل". (6)

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿ لاَ عَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾(7).

لما وقف المفسرون واللغويون على هذه الآية اختلفوا في معنى"عاصم" هل هي بمعناها الحقيقي أم أنها نابت عن اسم المفعول "معصوم" ، فإذا كانت بمعناها الأصلي فالمعنى هو:

لا أحد يعصمك اليوم من أمر الله"، وإذا كانت بمعنى اسم المفعول؛ فالمعنى : لا أحد

1- آل عمران: 64.

2- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، ابن الأنباري ، ج1، ص.149

3- البقرة : 05 .

4- إيضاح الوقف ، ج1،ص150.

5-) الصاحبي في اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ، ابن فارس أبو الحسين أحمد (ت 395هـ) ،تح: عمر الطباع ط1، مكتبة المعارف بيروت (1993م) ، ص236.

6- شرح شافية الحاجب ، الإستراباذي رضي الدين محمد (ت 686هـ) تح: محمد الحسن وآخرين، دار المكتبة العلمية بيروت، (1982 م)،ج186/1.

7- هود : 43.

معصوم من أمر الله (1)

واللطيفة البلاغية المستخلصة من هذه الآية الكريمة أنَّه ثمة صيغة واحدة قامت مقام صيغتين فاشتملت على معنيين متباينين، فلا أحد بيده العصمة لكي يقي الناس من العذاب غير الله عز وجل، ولا أحد معصوم مما قدّره الله ، كما أنّ المعنيين المذكورين للصيغة الواحدة لا يوجد بينهما أيّ تعارض .

ففي النهاية لا يوجد عاصم ولا معصوم ، وهذا غاية في اقتصاد اللغة بحيث يُعبر عن أوسع المعاني بأقل تركيب، ويستعمل أداة واحدة في وظائف كثيرة ومتنوعة.

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ لَا تَسْمَعُ فِيْهَا لَاغِيَة ﴾ (2).

فالصيغة الصرفية"لاغية" تحمل في طياتها أكثر من معنى فقد تكون بمعنى المصدر اللغو فالصفة تقوم مقام المصدر ،وقد يكون المعنى لا تسمع فيها كذب .. وقد ذكر القرطبي أنّ فيها ستة أوجه (3):

1- لاغية كذب وبهتان وكفر وهذا مذهب ابن عباس .

2 - باطل وإثم وهذا مذهب قتاده .

3 - الشتم وهذا ما قاله مجاهد .

4 - المعصية وهو للحسن.

5 - لا يسمع فيها حالف يحلفُ كذباً قاله الفراء.

6- لا يسمعُ في كلامهم كلمة بلغو وهو للفراء أيضاً.

وكثرة الوظائف للصيغة الواحدة قد تُسبب الاحتمالات المختلفة ، فيتيه المتلقي بينها ويفقد النص مقاصده المحددة ،<<والحقُ أنّ ورود الاحتمالات أمر واقعي ولا سيما في التعبير الفني البليغ ، وهو من مظاهر التفنن والبلاغة والبيان ،يستعين بها التعبير ، فيكون له من الأبعاد الاحتمالية ما يناسب المقصد البعيد ، والظلال الدقيقة الموحية ، وقد يكون

صاحب النص قاصداً لعدّة دلالات في اللفظ الواحد ، ولذلك تختلف الأذواق و الأفهام

1- ينظر : البحر المحيط،5/ 227، وابن منظور "مادة" عصم ، و القرطبي 28/9.

2- الغاشية: 11 .

3- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد (ت671هـ) ، تح: أحمد نجاتي ومحمد النجار، الدار المصرية القاهرة (1955م) 23/20 .

والمشارب في تفكيكه.(1) كما يكون فهم المتلقي هنا موجّه بالسياق ، لأنّ السياق له دور في توجيه المعنى الذي ترسمه الأقوال السابقة للصيغة المنفتحة الدلالة .

و بناءا على هذا لا يوجد ما يدفع معنى هذا أو يثبت آخر، فكل الاحتمالات ممكنة فأينما يممت وجهك وذهب خاطرك فأنت على صواب ما دمت في دائرة المعنى اللغوي وتبقى مسألة الراجح والمرجوح تتأرجح بين العلماء والمفسرين .

فالله سبحانه وتعالى عبّر بكلمة واحدة وترك العقول تصول وتجول ،وتبحث وتتصور المعنى المقصود، وكلّما حدّث عباده عن الجنة أو النار تارة يصفها لهم كأنهم يرونها رأي العين وتارة أخرى يدع العقول تتصوّر الأمر المتحدث عنه سواء كان عذاباً أو نعيماً .

وعدم التحديد والتعيين في الدلالة << يفتح نفس السامع والمتلقي على مذاهب التأويل الممكنة >> (2) وتذهب العقول فيه كل مذهب ، فيصبح (عدم التحديد)عنوانا من عناوين التفوق البياني ، ومذهبا عزيزا في بناء المعنى .

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى: ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ (3) .

جاء في روح المعاني أنَّ للمحققين في معنى "اهدنا" وجوها **أولها** : أنّ معناه ثبّتنا على الدين كي لا تزلزلنا الشُّبه، وفي القرآن : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (4).

و في الحديث" اللهم يا مقلب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك"**وثانيها**: أعطنا زيادة الهدى كما قال تعالى:" ﴿ وَالَّذِيْنَ اِهْتَدَوا زَادَهُم هُدَى ﴾ (5) **وثالثها**: أنَّ الهداية الثواب كقوله تعالى :" ﴿ يَهْدِيهِم رَبُّهُم بِإِيْمَانِهِم ﴾ (6) .

و رابعها: أنَّ المراد دُلَّنا على الحق في مستقبل عمرنا كما دللتنا عليه في ماضيه. (7)

كما أنَّه سبحانه وتعالى عدَّى فعل الهداية بنفسه ولم يُعِّده بالحرف، وذلك ليجمع عدة معانٍ في آنٍ واحد، لأنّ" التعدية من دون حرف تُقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون

1- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، فخر الدين قباوة ، ص99 .

2- بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة ، نور الهدى باديس ، ص118 .

3- الفاتحة: 06 .

4- آل عمران: 08 .

5- محمد:17 .

6- يونس:09 .

7- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي إدارة الطباعة المنيرية ،دار إحياء التراث العربي،ج93/1

فيه، فهنا تطلب الهداية لمن كان في الطريق فيُعرِّفه به ويُبصِّره بشأنه، ولمن ضلّ وانحرف من المؤمنين عن الجادة فيردُّه إلى الجادة فشمل القسمين (1)

ووجه اقتصاد اللغة في هذا السياق الشريف أنَّ صيغة واحدة عبّرت عن معانٍ متباينة منها الثبات على الدين ،وزيادة الهدى والثواب،و الدليل على الحق في المستقبل ،ولا يمكن- في أيِّ حال من الأحوال- لأيِّ شخص أن يُبعد معنى من هذه المعاني أو ينفيه تماماً لأنّ الهداية جاءت في التنزيل العزيز بهذه المعاني كلها ،كما أنَّ تعدية الفعل بنفسه زاد هو الآخر من اقتصاد اللغة واختزل كثيراً من الكلام فهو بهذه الصيغة" اهدنا " اقتصاد في البنية اللغوية ، وإطناب في مستوى المعاني ، يشمل المهتدي وغيره من بني جنسه على اختلاف ألوانهم وأفكارهم و... درجة قربه وبعده عنه .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ هُم لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾(2)، فهذه الآية الكريمة جمعت معاني عدّة وكلّها مُرَادة لا يمكن تأديتها بتعبير آخر، فالزكاة اسم مشترك بين عدّة معاني فقد يطلق على القدر الذي يخرجه المزكِّي من ماله إلى مستحقه، أي قد تطلق على المال المخْرَج ،وقد تطلق على المصدر بمعنى التزكية وهو الحدث، والمعنى إخراج القدر المفروض من الأموال إلى مستحقها، وقد تكون بمعنى العمل الصالح وتطهير النفس من الشرك والدنس لقوله تعالى:" ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اِسْمَ رَبِّهِ فَصَلّى﴾ (3).

و قال تعالى:﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (4)، أي قد أفلح وفاز من طهّر نفسه من الشرك والموبقات .

وما يشهد على صحة المعنيين السابقين هو ما جاء في الكشّاف أنَّ الزكاة اسم مشترك بين عين ومعنى ،فالعين القدْر الذي يخرجه المزكي من النصاب إلى الفقير، والمعنى فعل المزكي الذي هو التزكية ،وهو الذي أراده الله فجعل المزكِّين فاعلين له، ولا يسوغ فيه غيره لأنّه ما من مصدر إلاّ يُعبر عن معناه بالفعل، ويقال لِمُحدثه فاعل تقول للضارب "فاعل الضرب وللقاتل فاعل القتل وللمزكي فاعل التزكية، وعلى هذا الكلام كله ...

1- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السمرائي ،دار عمار للنّشر ،طبعة (2007 م)،ص.54

2- المؤمنون: 04 .

3- الأعلى:15/14 .

4- الشمس:09/ 10 .

و يجوز أن يراد بالزكاة العين ويُقدَّر مضاف محذوف وهو الأداء " (1)

إذاً فالآية الكريمة انفتحت دلالتها على ثلاث معانٍ محتملة وهي: المال المخْرَج والإخراج، وتطهير النفس، وهي في السياق الكريم غير متدافعة فيجوز أنّ المؤمنين يدفعون زكاة أموالهم ومواشيهم وحبوبهم إلى مستحقيها، ويجوز أنّهم يطّهّرون نفوسهم من الخبائث والأدران والشرك و... وكل ذلك من شيم المؤمنين، فهم يجمعون بين طهارة الظاهر والباطن والامتثال لأوامر الله ونواهيه .

ولما وقف ابن كثير على معنى هذه الآية قال: الأكثرون على أنّ المراد هنا بالزكاة زكاة الأموال مع أنّ هذه الآية مكية وإنّما فرضت الزكاة بالمدينة في سنة اثنتين من الهجرة

والظاهر أنّ التي فُرضت بالمدينة إنّما هي ذات النصب والمقادير الخاصّة،وإلاّ فالظاهر أنّ أصل الزكاة كان واجباً بمكة ... وقد يحتمل أن يكون المراد بالزكاة ههنا زكاة النفس من الشرك والدنس كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ وقد يحتمل أن يكون كِلا الأمرين مراداً وهو زكاة النفوس وزكاة الأموال فإنه من جملة زكاة النفوس والمؤمن الكامل هو الذي يفعل هذا وهذا. (2)

و انفتاح دلالة الكلمات في القرآن تجعله(القرآن الكريم) ذا قدرة إنتاجية بحيث يمكنه التعبير عن معاني كثيرة بأقل العبارات ، فيبتعد عن التطويل والتفصيل، كما تمنحه ميزة التجدّد ومسايرة العصور، ولو فُهم من مفرداته معانٍ محدّدة قطعية الدلالة لجمد على حال واحدة،ولزالت عنه خاصية الإعجاز، وهو بهذه الميزة التي تبث التجدد والحيوية في معانيه ودلالاته يبقى مفتوحاً لاستخراج واستخلاص لآلئه ودرره التي لا تنتهي ولا تنفذ .

ومن الأمثلة أيضاً قوله تعالى:﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ﴾ (3).

1- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الأقاويل لجار الله الزمخشري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (1948م)،ج2،ص.357

2- تفسير ابن كثير ،طبع بدار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج3،ص459.

3- البقرة : 282.

وانفتاح الدلالة في الآية الكريمة ناتج عن إدغام المثلين في" يُضَارَّ" فهي تحتمل لا يُضَارِرْ ولا يُضَارَرْ، قال أبو حيان:" واحتمل هذا الفعل أن يكون مبنياً للفاعل فيكون الكاتب والشهيد قد نُهيا أن يُضارّا أحداً بأن يزيد الكاتب في الكتابة أو يُحَرِّف، وبأن يكتم الشاهد الشهادة أو يُغَيِّرها أو يمتنع من أدائها .

واحتمل أن يكون مبنياً للمفعول فنهى أن يضارَّهما أحد بأن يُعَنّتا ويشق عليهما في ترك أشغالهما، ويُطلب منهما ما لا يليق في الكتابة والشهادة.. ويُقوّي هذا الاحتمال قراءة عمر" ولا يُضارَرْ" بالفك وفتح الراء الأولى". (1)

ووجه اقتصاد اللغة في هذه الآية أنَّ لفظة "يضارَّ" اشتملت على نهيين في صيغة واحدة نهي الكاتب والشهيد أن يلحقا الضرر بغيرهما؛ كترك الشهادة أو تحريفها، ونهي غيرهما أن يلحقوا الضرر بهما كأن يُبْخَسَ الكاتب حقه أو يُجْبَر الشهيد على شهادة الزور أو غير ذلك.

وهذه المعاني كلها واردة غير متدافعة لأنَّ الله سبحانه وتعالى يريد أن يحفظ حقوق عباده ؛فأمرهم بكتابة الدين ونهاهم عن ظلم بعضهم لبعض وهم يحررون هذه العقود والمواثيق، فلا ينبغي للكاتب أن يزيد أو يُنقص، وكذلك الشهيد، ولا يجوز لأي طرف كان أن يُكْرِهِ الكاتب أو الشهيد أو يلحق بهما الضرر وهما يوثِّقان هذا العقد، وهذه الآية غاية في الإيجاز و الاقتصاد.

ومن أمثلة المشترك اللفظي كلمة "الإل"وقد جاءت في قوله تعالى حكاية عن الكفار : ﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّة وأولئك هم المعتدون ﴾(2)، وهذه الكلمة تدل على أكثر من معنى لغوي فهي تعني الإله أو العهد أو الحلف أو القرابة ،فما الذي يفهم من هذه الآية في هذا السياق؟

والحقيقة أنَّ الكفار لا يراعون في مؤمن عهداً بينهم وبينه ولا ميثاق ولا قرابة، فكل مَنْ خرج عن دينهم فهو عدوٌّ لهم وهم له بالمرصاد حتى ولو كان من أبنائهم أو إخوانهم .

1- تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت745هـ) دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين ، دار الكتب بيروت لبنان،ط1: (1993م)، ج2، ص370 .

2- التوبة : 10 .

ومنه ينفتح معنى" الإلّ" على هذه المعاني متفرقة أو مجتمعة .

قال صاحب البحر :" لا يرقبون " لا يحفظوا ولا يرعوا لا عهدا أو قرابة أو حلفا أو سياسة أو الله تعالى أو جؤرا أي : رفع الصوت بالتضرع "(1).

ووجه الاقتصاد في هذه المفردة الشريفة أنَّ الله سبحانه وتعالى أعلم بحال الكفار ومدى حقدهم وكرههم للمؤمنين، فأتى بهذه اللفظة في هذا السياق الشريف لتعبّر أبلغ تعبير ،وتصف غيض وغِلَّ قلوبهم ونفاقهم، فهم لا يراعون أي شيء تجاه المؤمنين حتى شيم العادات ومكارم الأخلاق التي تربوا عليها كالوفاء بالعهود لا يراعونها مع المسلمين، فهذه الكلمة على قلّة عدد حروفها وجزالتها وكأنَّها مرآة عاكسة لحقيقة هؤلاء الكفار وكاشفة عن نفوسهم المريضة الملئى بالحقد والكراهية لكل مؤمن بالله، وذلك لاشتمالها على معانٍ متنوعة لم يخص الله منها معنى دون آخر.

ومن الأمثلة أيضا قوله تعالى:﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (2) يحتمل لفظ" النجم" ما نبت على وجه الأرض مما ليس له ساق، وهذا ما قال به ابن عبّاس (ت68ه) (3) وابن جبير (ت94ه) وسفيان الثوري (4).

كما أنّ لفظ "النجم " يعني في اللغة كذلك نجم السَّماء ،والآية تحتمل أنَّ المراد كذلك وبهذا قال: مُجاهد (ت104ه) (5) ، والحسن البصري(ت110ه) (6) وقتادة(ت117ه)(7).

1- البحر المحيط ، ج5 ، ص 15 .

2- الرحمن :06 .

3- ينظر: جامع البيان عن تأويل القرآن الطبري، نشر مكتبة البابي الحلبي ، (1388ه) ، ط3، 116/27.

4- ينظر: تفسير الطبري ط3، 117/26.

5- ينظر : تفسير مجاهد بن جبر ،تح: د/ محمد عبد السلام أبو النيل ، ص636 ، وتفسير الطبري،ط:الحلبي ،نشر دار الفكر الإسلامي الحديثة ،ط1، (1990م) ، (177/27) .

6-ينظر: تفسير الطبري ، 117/27.

7- ينظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني،211/2،تح: عبد المعطي قلعجي،نشر دار المعرفة بيروت طبعة (1411ه) ، 211/2 .

ومن خلال ما ذهب إليه هؤلاء العلماء نجد أنَّ لكلِّ وجهٍ منهما حظاً من النّظر من حيث صحة الإطلاق في اللغة أولاً ثم لصحة حملها في سياق الآية، فالآية تقبل هذا وتقبل ذاك على جهة التفسيرين ،وهما من باب اختلاف التنوع، قال الطّاهر بن عاشور (ت1393هـ) وجُعل لفظ النّجم واسطة الانتقال لصلاحيته لأنه يُرادُ منه نجوم السماء وما يسمَّى نجماً من نبات الأرض (1).

أما إذا احتمل اللفظ المعنى وضده ففيه حض من النظر ، قال الطوفي(*) (ت716هـ)

أما ما ورد فيه التأويل المختلف عن العلماء فذلك الاختلاف إمَّا أن يشتمل على التناقض والتضاد أو لا فإن اشتمل عليه–كالقرء التي صير في تأويلها إلى الحيض مرَّة و إلى الاطّهارِ أخرى–كان أحدُ النقيضين متعيناً للإرادة لاستحالة الامتثال بالجمع بينهما وحينئذ التوصُّل إلى المراد المتعين بطريق قوي راجع من الطرق المتقدِّم ذكرها أو غيرُها إن أمكن وإن لم يشتمل على التناقض بل كان مجرد اختلاف وتعدُّد أقوالٍ فإن احتمل اللَّفظ جميعها وأمكن أن تكون مُرادةً منه وجَبَ حَمْلهُ عليها ما أمكن سواء كان احتمالها متساوياً أو كان بعضها أَرْجَحَ من بعض.

ومثال ذلك أعني احتمال اللفظ للوجوه المتعدّدة قوله تعالى:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَواقِعِ النُّجُومِ ﴾ (2).

قيل مساقط النجوم في المغرب وقيل إنّ منه نزول القرآن لأنه نزل في ثلاثٍ وعشرين سنةً فاللفظ يحتمل القولين فيجوز أن يكون القسم بهما مراداً لأنهما عظيمان لاسيما على قولِ من يقولُ " يجوز حقيقة اللفظ ومجازه جميعا معاً" (3).

1- التحرير والتنوير ، الطاهر بن عاشور ، نشر الدار التونسية (1984م) ، 27/ 235.

(*)- الطوفي هو سليمان بن عبد القوي الصرصري البغدادي الحنبلي ، قرأ النحو واللغة و الأداب والأصول والتفسير وغيرها وألّف فيها ومن مؤلفاته :جدل القرآن وتفسير النبأ وغيرها (ت716هـ) ، ينظر :شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي ، نشر دار الأفاق الجديدة بيروت، 6/39/.40

2- الواقعة: 75 .

3- الإكسير في قواعد التفسير ، سليمان بن عبد القوي ، تح: د/ عبد القادر حسين ، نشر مكتبة الآداب بمصر، ص 12،13.

انفتاح الدلالة وسببها ألفاظ العموم:

كثيراً ما يطلق القرآن الكريم ألفاظاً عامة غير محدّدة ويترك للعقل فُسحة يجول فيها بين المعاني المتواردة والمنبثقة من هذا اللفظ العام، ومن ذلك لفظ النعيم قال تعالى:﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيم ﴾ (1).

فالعقل يذهب في لفظ النعيم إلى الصحة والعافية والعقل والأموال والأولاد والأمن و الفراغ... وبهذا قال جماعة من السلف، فالأمن والصحة قال به ابن مسعود والشعبي (ت68هـ) ومجاهد(ت104هـ) وسفيان الثوري(ت161هـ)، وصحة الأبدان والأسماع والأبصار قال به ابن عباس (ت68هـ) والحسن البصري(ت110هـ) (2).

فأصحاب الرأي الأول ذكروا جزءاً من النعيم والفريق الثاني ذكر جزءاً من النعيم ومن ثم فالنعيم يشمل كل ما يتنعّم به الإنسان من نعم الدنيا سواء كان مال أو صحة وعافية أو غيرها من النعم التي لا يمكن عدها أو حصرها.

قال الطبري (ت310هـ):"والصّواب من القول في ذلك أن يقال: إنَّ الله أخبر أنّه سائل هؤلاء القوم عن النعيم ولم يُخصِّص في خبره أنه سائلهم عن نوع من النعيم دون نوع،بل عمّ بالخبر في ذلك عن الجميع، فهو سائلهم-كما قال- عن جميع النعيم لا عن بعض دون بعضٍ" (3).

وعلى هذا يشكر الإنسان ربه على النعم التي منَّ به عليها ما علِم منها وما لم يعلم ثم يحسن استغلالها في مرضاة ربه وما يعود عليه وعلى جميع أفراد أمته بالخير والفلاح حتى يكون قد أدى حق مولاه وينجو في أخراه.

فتأمل كيف حثَّت كلمة واحدة عن نعم لا تُعَدُّ ولا تحصى كيف لا وقد قال ربنا عز وجل :﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (4).

1- التكاثر: 08.

2- ينظر: تفسير الطبري، ط: الحلبي ، ج30، 285، 289.

3- تفسير الطبري، ط الحلبي، 30/.289

4- إبراهيم : 34.

وكذلك لفظة البرّ قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتْنسَونَ أَنْفُسَكُم ﴾ (1)، فهي تعنى الدخول في الإسلام وطاعة الله ،و الصلاة والصوم.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَّتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَّتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ (2).

فكل إنسان مؤمن مهما كان جنسه ولونه وثقافته وعرقه وبيئته وحالته الاجتماعية و...ويتقّ الله في نفسه لا يظلمها ولا يحرمها الخير ويتقّ الله في أولاده وزوجته ووالديه وأقاربه ،وفي الناس جميعاً يجعل له مخرجاً ،فهذا قانون كوني عام ،البداية فيها توصلك إلى النهاية .

انفتاح الدلالة على مستوى التركيب:

كما يكون انفتاح الدلالة على مستوى المفردة الواحدة يكون كذلك على مستوى التركيب، وانفتاح الدلالة على مستوى التركيب واسع المجال ومنه تباين الأقوال عل مرجع الضمير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:" ﴿ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّه ﴾ (3) .

فالضمير يمكن أن يعود على يوسف عليه السلام فيكون المعنى: أنسى الشيطانُ يوسفَ ذكرَ ربّه، ويحتمل أن يعود على الفتى فيكون المعنى: أنسى الشيطانُ الفتى ذكرَ ربه فلبث يوسفُ عليه السلام في السجن هذه المدّة.

قال الطاهر بن عاشور:وضميرا " أنساه" و"ربه" يحتملان العود إلى "الذي" أي أنسى الشيطان الذي نجا أن يذكره لربه، فالذكر الثاني هو الذكر الأوّل ،ويحتمل أن يعود الضميران على يوسف عليه السلام، أي أنسى الشيطان يوسف ذكر ربه، ولعلّ كلا الاحتمالين مراد وهو من بديع الإيجاز ،وذلك أن نسيان يوسف–عليه السلام– أن يسأل الله إلهام الملك تذكر شأنه كان من إلقاء الشيطان في أمنيته، وكان ذلك سببا إلهيا في نسيان الساقي تذكير الملك، وكان ذلك عتابا إلهيا ليوسف – عليه السلام– على اشتغاله بعون العباد دون استعانة ربه على خلاصه (4)

—

1- البقرة: 44 .

2- الطلاق : 02، 03 .

3- يوسف :42 .

4- التحرير و التنوير ، ج12، ص279 .

قال تعالى:﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوْصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾(1)، الضمير في قوله تعالى:{ميثاقه} يصح أن يرجع إلى اسمين:

أحدهما: العهد وهو المضاف، أي: الَّذين ينقضون عهد الله من بعد توثيق العهد.

والآخر: لفظ الجلالة وهو المضاف إليه، أي الَّذين ينقضون عهد الله من بعد توثيق الله.

يقول ابن الجوزي:"وفي هاء ميثاقه قولان، أحدهما: أنها ترجع إلى الله تعالى، والثاني: أنّها ترجع إلى العهد، فتقديره: بعد إحكام التوثيق فيه" (2)

فإمكانية عود الضمير في عهد الآية إلى المضاف تارة، وإلى المضاف إليه أخرى دائرة الدلالة ،ليشملهما معاً بعبارة واحدة ،فبدل أن يقول الَّذين ينقضون عهد الله من بعد توثيق العهد ومن بعد توثيق الله ، جمعهما من أقرب سبيل بضمير واحد يصلح للاثنين معاً، قال تعالى:" ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلى الخَاشِعِينَ ﴾ (3).

في قوله تعالى:{ وإنَّها } ثلاثة احتمالات في عائد الضمير:

الأول: الصلاة، أي وإنَّ الصلاة لكبيرة إلاَّ على الخاشعين.

الثاني: الاستعانة المفهومة من (استعينوا)، أي: وأنَّ الاستعانة بهما لكبيرةٌ إلاَّ على الخاشعين.

الثالث: أن يكون لجميع الأمور التي أمر بها بنو إسرائيل ونهوا عنها في قوله تعالى في الآيات 45/40 البقرة.

قال الطاهربن عاشور:{وإنَّها لكبيرة} اختلف المفسرون في معاد ضمير (إنَّها) فقيل : عائد إلى الصلاة والمعنى : إن الصلاة تصعب على النفوس ،لأنَّها سجن للنفس ، وقيل الضمير للاستعانة بالصبر والصلاة المأخوذة من (استعينوا)

1- البقرة : 27 .

2- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد ،بيروت المكتب الإسلامي (1404هـ)،ط3، 1/ 56.

3- البقرة : 45 .

وقيل: راجع إلى المأمورات المتقدمة من قوله تعالى:﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اُذْكُرُوا نِعْمَتِيَ التِّي أَنْعَمْتُ عَلَيكُم وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوْفِ بِعَهْدِكُم وَإِيَايَ فَارْهَبُونِ ﴾ (1).

وهذا الأخير مما جوزه صاحب الكشاف ولعله من مبتكراته وهذا أوضح الأقوال وأجمعها والمحامل مُرادة (2).
ففي الآية ثلاثة احتمالات ممكنة مما يوسع الطاقة التعبيرية للآية بأقل الألفاظ.
وقال تعالى:﴿ ولكل وَجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات ﴾ (3)، الضمير (هو) في عائده احتمالان:
الأول:أنه (كل) والتقدير : ولكل أحد وجهة هو مولي وجهه إليها ، أي: جهة من الكعبة يتوجه إليها ، في صلاته.
الثاني:أن يكون الضمير لله تعالى، أي: الله موليها إياه، والمعنى: أنّ كل واحدة من القبلتين اللتين هما بيت المقدس والكعبة جهة يوليها الله تعالى عباده، فالجهتان من الله تعالى وهو الذي ولّى وجوه عباده إليهما.
قال الرازي : أما قوله { هو موليها} ففيه وجهان:
الأول: أنه عائد إلى الكل ،أي : ولكل أحد وجهة هو مولي وجهه إليها.
الثاني: أنه عائد إلى اسم الله تعالى، أي الله تعالى يوليها إياه، وتقدير الكلام على الوجه
الأول أن نقول: إنَّ لكل منكم وجهة، أي: جهة من القبلة هو موليها أي: هو مستقبلها ومتوجه إليها لصلاته التي هو متقرب بها إلى ربه،وأما تقدير الكلام على الوجه الثاني فمعناه أن الله عرفنا أن كل واحدة من هاتين القبلتين اللتين هما بيت المقدس والكعبة جهة يوليها الله تعالى عباده، فالجهتان من الله تعالى، وهو الذي ولّى وجوه عباده إليهما فاستبقوا الخيرات بالانقياد لأمر الله في الحالتين (4).

1- البقرة : 40 .
2- التحرير والتنوير: 1/ 463.
3- البقرة: 148.
4- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي (ت606هـ) دار الكتب العلمية ،بيروت (2000م) ، ط1،: 4/ 120بتصرف

ففي الآية اتساع لمعنيين مختلفين باختلاف عائد الضمير ،وكلاهما يصح أن يكون مراداً، فبدل أن يعبِّر عن المعنيين بجملتين أتى بجملة واحدة محتملة لهما معاً بالاستفادة من الضمير واحتمال عوده على غير واحد مما سلف.

وقال تعالى:﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُم غَيْرَ الذِّي تَقُولُ واللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ...﴾ (1)، ضمير الفاعل في " تقول" يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون (هي)، أي: الطائفة، والمعنى: بيَّت طَائِفَةٌ منهم خلاف ما قالت.

والثاني: أن يُراد به المخاطب، أي: بيَّت طَائِفَةٌ منهم خلاف قولك وأمرك.

يقول ابن عاشور:"وتاء المضارعة" في " غَيْرَ الَّذي تَقُولُ " للمؤنث الغائب، وهي الطائفة ويجوز أن يراد خطاب النبي صلى الله عليه وسلم، أي: غير الذي تقول لهم أنت فيجيبون عنه بقولهم: طاعة". (2)

ويقول الرازي:" بيَّتَ طَائَفَةٌ " أي: زوَّرت وزيَّنت خلاف ما قالت وما أمرت به أو خلاف ما قالت وما ضمنت من الطاعة ، لأنَّهم أبطنوا الرد لا القبول، والعصيان لا الطاعة "(3).

ففي الآية معنيان صحيحان ، ولعلهما مرادان في الوقت نفسه ، فبدل أن يذكر جملتين تعبر إحداهما عن المعنى الأول ، والثانية عن الثاني، جمعهما في عبارة واحدة اختصاراً مستفيداً من تاء المضارعة التي تصلح للمخاطَب والمؤنث الغائب معاً.

وكذلك قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام "﴿ إنَّه ربّي أحسن مثواي﴾ (4) فالهاء في "إنّه" يجوز أن يعود على اسم الجلالة، ويكون "ربي" بمعنى خالقي، ويجوز أن يعود إلى معلوم من المقام وهو زوجها الذي لا يرضى بأن يمسها غيره، ويكون ربي بمعنى سيدي ومالكي وكلا المعنيين جائز(5).

1- النساء:81 .

2- التحرير والتنوير:199/4.

3- التفسير الكبير: 10/ .156

4- يوسف : 23 .

5- التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور الدار التونسية للطباعة، (1984م) ، ج12،ص251.

لأنه عليه السلام منَّ عليه ربه بأن جعل آخرته حسنى وأنقذه من الهلاك ،وعزيز مصر كفله وأجمل في تربيته ومعاملته.

مفردات اللغة والاقتصاد:

تتفاوت جميع اللّغات فيما بينها من حيث كمية ومقدار المفردات والتراكيب التي تتكوّن منها، وبإمكان أيّ لغة أن تصبح ثرية إذا ما أتيحت لها الظروف .

واللغة العربية غنية بالصيغ والتراكيب، حيث إنّنا نجد فيها العام والخاص، والمطلق والمقيّد،وكثيرا ما يتحوّل العام إلى خاص ، قال ابن خلدون:<<وُضع الأبيض بالوضع العام لكلّ ما فيه بياض، ثم أُختص ما فيه بياض من الخيل بالأشهب، ومن الإنسان بالأزهر، ومن الغنم بالأملح، حتى صار استعمال الأبيض في هذه كلها لحنا وخروجا عن لسان العرب>>[172].

ومن العلماء الذين اختصوا بتصنيف الألفاظ والمفردات في مجموعات تنضوي تحت فكرة واحدة الثعالبي في كتابه "فقه اللغة"، ومن أمثلة ما أفرده لألوان الإبل قوله<<إذا لم يخالط حمرة البعير شيء فهو أحمر، فإن خالطها السواد فهو أرمك، فإن كان أسود يخالط سواده بياض كدخان الرّمت[*]، فهو أورق، فإن اشتّد سواده فهو جون فإن كان أبيض فهو آدم، فإن خالطت بياضه حمرة فهو أصهب، فإن خالطت حمرته صفرة وسواد فهو أحوى>>[173].

وهذا التصنيف له أهميته البالغة في الحياة اليومية حيث يمكن للمرسل التعبير بأي مفردة يراها مناسبة للمقام الذي هو فيه، قال ابن سيّدة: "وضعت كتابي الموسوم "بالمحكم" لأدلّ الباحث على مضنّة الكلمة المطلوبة ، أردت أن أعدل به كتابا أضعه مبوّبا حين رأيت ذلك أجدى للفصيح المدرّه[**] والبليغ المفوّه[***]، والخطيب المصقع والشاعر المجيد المدقع [****]، فإنّه كان للمسمى أسماء كثيرة، وللموصوف أوصاف عديدة، تنقّى الخطيب والشاعر منها ما شاءا، واتّسعا فيما يحتاجان إليه من سجع أو قافية على مثال ما نجده نحن

---

[172] – مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، (384هـ -808هـ) ضبط وشرح وتقديم، د: محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان/ 2004، ص: 504.

[*] – الرّمت: رمت وأرمت أي بليت، وأصله أرمت، لسان العرب، ابن منظور، ج12، ص: 253.

[173] – فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي (ت430هـ) منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان، بدون طبعة، ص:54.

[**] – المدّره: من يأتي بالدرر ، أي : بالجواهر والحكم.

[***]– المفوّه: صاحب لسان بليغ..

[****]– المدقع: المتفنن في نظم وقرض الشعر.

في الجواهر المحسوسة كالبساتين تجمع أنواع الرياحين، فإذا دخلها الإنسان أهوت يده إلى ما استحسنته حاستا نظره وشمه "[174].

وهذا الترتيب والتصنيف للألفاظ والمفردات في حقول دلالية يعود على النّاطقين بها بالخير والنفع العام، حيث تُنوّع وتعدّد طرق التعبير، والأداء اللّساني وفق مقتضيات الحال، ومتطلبات المقام، وهو ما يساعد على تقليل الجهد لحدّة الأدنى أثناء عمليات الاتصال.

وفي هذا يقول الباقلاني:<< فإنّ إحدى اللفظتين قد تنفرد في موضع، وتَنزِلّ في مكان لا تزلُّ عنه الأخرى، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها وتجحد الأخرى إذا وُضعت موضعها في نفار، ومرمى شراد ونابية استقرار>>[175].

ومن الأمثلة الدّالة على ذلك قوله تعالى: ﴿وضَرَبَ الله مَثَلاً رَجُلينِ أَحَدُهُما أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيء وَهُوَ كَلّ عَلَى مَوْلاَهُ﴾ [176].

قال ابن كثير (ت 774هـ) في تفسير هذه الآية الكريمة:<< أبكم لا يتكلم و لا ينطق بخير ولا بشيء، ولا يقدر على شيء بالكلية فلا مقال ولا فعال، وهو مع هذا كَلٌّ، أي عيال وكُلفة على مولاه>>[177].

وما نلاحظه هنا هو أنّ لفظة "كَلّ "هي مرادفة لعيال وكُلفة وعبْء وحِمْل، إلاّ أنّ مرادفاتها كلها لا تؤدّي معناها في هذا السياق، وهي رغم قلة عدد حروفها إلاّ أنّها أبلغ وأحسن في هذا الوضع.

وهناك ملاحظة هامة ينبغي الإشارة إليها والمتمثلة في التفاوت النسبي في استعمال الصيغ اللغوية، أثناء أداء أيّ عملية كلامية، فما سبب ذلك، وهل لهذا التفاوت صلة أو علاقة بظاهرة الاقتصاد والتخفيف بكل أشكالها وأنواعها؟

الصيّغ اللغوية وتفاوتها في الاستعمال:

ما من لغة إلاّ وهي بحاجة إلى أنواع المشتقات اللغوية، أثناء أيّ عملية أداء لسانية لأنّ المشتقات في أيّ لغة تعتبر الحجر الأساس الذي تبنى به العبارات والجمل والنصوص، إلاّ أنّ هذه المشتقات تتفاوت فيما بينها في درجة الاستعمال.

---

174 – المخصص، أبو الحسن علي ابن إسماعيل بن سيدة، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان، ج1، ص:10.

175 – في إعجاز القرآن، الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف،(1977م)، ص: 184.

176 – سورة النحل، الآية: 76.

177 – تفسير ابن كثير، قدم له عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن باديس، الجزائر، ط:02، المجلد2، ص: 764.

فهناك كلمات وحروف كثيرة التكرار، والدوران على الألسن، وأخرى قليلة الاستعمال، ومنه يمكن أن نطرح السؤال التالي: ما هو سبب ذلك ؟ فهل يرجع ذلك إلى صفات تلك الحروف المكوّنة للألفاظ والتراكيب، أم لمخارجها أم لشيء آخر؟

وللإجابة على ذلك نبدأ بالحروف ثمّ الألفاظ، ونحن إذ نتحدث عن سبب تكرار حروف معيّنة دون غيرها، لا نذكرها إلاّ لأنها تعتبر المادة الخام في تشكيل الكلام وتكوينه، وسهولة نطق المفردات أو صعوبتها في مختلف مجالات الحياة مرتبطة بصفة مباشرة بعملية التواصل البشري، وبظاهرة الاقتصاد اللغوي.

كما يبدو أن هناك سبب في الميل إلى استعمال صيّغ لغوية بدرجة عالية دون غيرها، يمكن أن نرجعه إلى سهولة نطقها أو خفتها أو غير ذلك، وقبل أن نتطرق إلى تواتر الألفاظ والعبارات، ينبغي أن نعرف ما المقصود بالتواتر أو الترداد.

التردد أو التواتر اللغوي: Fréquence

نعني بهذا المصطلح " عدد المرّات التي يحدث فيها عنصر لغوي في نص أو مجموعة نصوص وتختلف العناصر عددا من حيث تكرار وقوعها في الكلام المنطوق أو المكتوب"[178].

ترداد الحركات :

روى السيوطي في رواية نسبها إلى الخليل بن أحمد" أنَّ أثقل الحركات الضمة ثم الكسرة ثم الفتحة من أجل ذلك قلّت المرفوعات في اللغة وكثرت المنصوبات ([179])

وذكر الخليل أنّ العرب إذا طال كلامهم بالرفع نصبوا ثم رجعوا إلى الرفع. (3)

وقال الخليل: هو كائن أخيك على الاستخفاف ،والمعنى كائن أخاك، وذكر أيضاً أنّه يمكن جر المفعول وتحويله إلى مضاف لضرب من التخفيف مثل قولهم: هذا ضاربُ زيدٍ بخفض زيداً بإضافة ضارب إليه (1)

ومثال ما ذكره الخليل قوله تعالى:﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الموت ﴾ فإذا نطقنا كلمة " ذائقةٌ " بالتنوين تكون كلمة" الموت"مفعول به لاسم الفاعل(ذائقة)، وإذا جرّدناها من التنوين تتحوّل إلى مضاف إليه .

والحركات من فتحة وضمة وكسرة وسكون، ليست سواء في نسبة ورودها، فالنصب هو الغالب لخفته حسب تعليل النحاة، قال الخليل" والنصب خزانة النحو... أي مُعوَّلهم عليه أكثر من سائره" (2).

---

[178] - Dictionary of modern linguistics english-arabic, dr, sami a. hanna librair du liban publishers; p:48.

2- الأشباه والنظائر في النحو ، السيوطي ، مراجعة وتقديم د/ فائز ترحيني مطبعة دار الكتاب ، ط1،(1984م) ، ج2، ص: 60

3- كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد، دراسة تحليلية،د/ محمد إبراهيم عبادة منشأة المعارف بالأسكندرية ص:23.

واعتبر مكي درّار أنّ هذه النظرة لا تنطبق على مقول العرب(3) إلاّ أنّ كثيرا من الدارسين اعتبروها حقيقة ، وقدّم البديل الذي يراه عين الصواب ،وهو أن أقوى الصوائت الكسرة ثم الضمة ثم الفتحة ، ودليله على هذا هو: أنّه كُلّما التقت الكسرة مع أي صائت آخر غيرها تكون الهمزة على الياء عند التحقيق، وتبدل ياء عند التخفيف سواء كانت

الكسرة متقدمة على موضع الهمزة أو بعده، وقدّم جملة من الأمثلة منها: سَئِمَ ،سُئِلَ مَائَة

يَسْتَهْزِئُون، فمع اختلاف ما قبل الهمزة من فتح وكسر وضم كانت الهمزة ملازمة للياء تحقيقا وتخفيفا .

وعندما تلتقي الضمة مع غيرها من دون الكسرة – سواء كان ذلك قبلها أو بعدها – فإنّ الضمة هي الغالبة ، والواو الذي هو صائتها يحمل الهمزة عند التحقيق ، وتبدل إليه عند التخفيف ، ويظهر ذلك في الأمثلة التالية : مُؤَجّل رَؤُوفٌ ، رُؤُوسٌ ، مَسْؤُول .

أما عندما تلتقي الفتحة مع السكون – سواء كان الفتح قبل موضع الهمزة أو بعده – فإن الهمزة ترسم على الألف أثناء التحقيق، مثل : سأل ، مسألة ، وبين بين عند التخفيف ومن الناحية الصوتية فإنّ الكسرة بدقتها وضيق مجرى الهواء معها يكثر ترددها لسرعة

—

1- الجمل ، ص: 40 .

2- العين ، للخليل بن أحمد الفراهيدي ، تح: د/ عبد الله درويش مطبعة العاني، بغداد (1967م)، ج4 ، ص:209 .

3- الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه (خلفيات وامتداد) د. مكي درار ،(2007م)، ص272.

حركتها، وفي المدة الزمنية نفسها يقل تردد الفتحة لاتّساع مجرى الهواء منها أكثر من الكسرة، ثم يكون للضمة الزمن الأطول منهما " (1).

وهذه القاعدة التي توصّل إليها مكي درار صحيحة مسلّم بها إذا ما تعلّق الأمر برسم الهمزة، وأنها أقوى من الفتحة والضمة والسكون، فالكسرة لها الحظ الأوفر مع هذه الحركات، والأمثلة التي قدّمها خير شاهد على ذلك، أمّا إذا تعلّق الأمر بالخفة والثقل وبنسبة ترداد هذه الحركات في الكلام فليس الأمر كما يراه، والنحاة لم يتوصلوا إلى هذه القاعدة النحوية القائلة بأنّ أثقل الحركات هي الضمة ثم الكسرة ثم الفتحة إلّا بعد تتبع واستقراء دقيق لمجموعة كبيرة من النصوص اللغوية من القرآن الكريم وكلام العرب بشقيه الشعر والنثر .

وعليه يمكن القول إنّ هذه القاعدة التي توصل إليها مكي درار خاصة بالقوة والضعف وليست خاصة بالخفة والثقل، وهناك فرق بين هذا وذاك، فليس بالضرورة كل قوي كثير وشائع ،كما أنه ليس كل ضعيف قليل، والدراسة الإحصائية التي قدمها " محمد علي الخولي:<< تثبت أن الفتحة القصيرة هي الأكثر شيوعا من كل الحركات، تليها الكسرة القصيرة، ثم الفتحة الطويلة،والضمة القصيرة، ثم الكسرة الطويلة، وأخيرا الضمة الطويلة>>(2) .

والأخف هو الأكثر شيوعا من الثقيل، والفتحة القصيرة هي أخف الحركات، وأكثرها ثقلا الضمة، وهذا دليل على صحة القاعدة النحوية التي توصل إليها قدامى النحاة يقول محمد علي الخولي:" احتلت الفتحة القصيرة المرتبة الأولى في الشيوع، وهذا يتوافق مع مبدأ سهولة النطق ،فالفتحة القصيرة صائت وسطي مركزي غير مدور، وكل هذه الصفات الأربع في صالح سهولة النطق ، فالصائت أسهل نطقا من الصامت "(3).

1- الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه (خلفيات وامتداد) د. مكي درار ، منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق (2007م)، ص.272

2- التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية ، الدكتور محمد علي الخولي ، مجلة معهد اللغة العربية بأم القرى السعودية ، العدد الثاني لعام (1404هـ،1984م) ، ص52، 53 .

3- التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية ، الدكتور محمد علي الخولي ، ص 77 .

ويقدم الخولي تفسيرا لعدم شيوع الضمة فيقول:" والضمة الطويلة لا تتمتع بما يجعلها سهلة وذلك بمعيار السهولة ، فهي طويلة وخلفية ومدورة، وهذا يفسر قلة شيوعها بالنسبة للأصوات الأخرى ، ويرتبط ذلك الطول والقصر بالزمن، فالصائت القصير أسهل من الصائت الطويل، حيث إنه يستغرق وقتا أقصر في نطقه، ويتطلب جهدا أقل ، وكانت نسبة شيوع القصير إلى الطويل 1/4" (1).

و الدراسة الاستقرائية لنسبة ترداد الحركات من فتح وضم وكسر في سور و آيات الذكر الحكيم، تبين أنَّ الفتح أخف الحركات وأن الكسرة أخف من الضّمة فقد بلغ ترداد الفتحة في القرآن الكريم "، 11475 ، وبلغ ترداد الكسرة 4649 ، وبلغ ترداد الضمة 3633 " (2).

وهناك دليل آخر يثبت صحة ما ذهب إليه قدامى النحاة ،ويتمثل في توالي وتتابع الحركات ، فقد توالت سبع فتحات في كلمات متتالية في قوله تعالى:﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا ﴾(3) ،فالفتحة بدأت من النون ، وانتهت عند" ما "، وتوالت أربع ضمّات بينهما ساكن في قوله تعالى :﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُم قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً﴾(4) ونفس الشيء حدث في قوله تعالى:﴿وَإِذْ يُرِيْكُمُوهُمُ إِذْ اِلْتَقَيْتُم فِي أَعْيُنِكُم قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُم فِي أَعْيُنِهِم ﴾(5)، بينما لم نجد ثلاث أو أربع كسرات متتاليات، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإنّ النطق بالفتحة أيسر من النطق بالكسرة لأنّ النطق بالفتحة يتم بفتح الفم وإخراج الهواء عبر القصبة الهوائية، وبدون تحريك أي عضو آخر من أعضاء جهاز النطق بينما النطق بالكسرة يزيد عليها بالضغط على مؤخرة اللسان، وهذا الجهد الإضافي يجعلها أثقل من الفتحة، وبالتالي قلّت نسبة ترددها.

1- التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية ، الدكتور محمد علي الخولي ، ص 82 .

2- الصوائت وأشباهها في العربية الفصحى (دراسة صوتية إحصائية)، محمد أمنزوي ، نظام كلية الآداب ، مطبعة دار وليلي للطباعة والنشر مراكش ،المغرب ط1،(2000م) ص 97-98 .

3- يوسف :81 .

4- يونس: 27 .

5- الأنفال : 44 .

أما بالنسبة لثقل الضمة عن الفتحة فقد نقل السيوطي عن الخليل قوله:<< أنت تتكلف في إخراج الضمّة إلى تحريك الشفتين مع إخراج الصوت، وفي تحريك الفتحة إلى تحريك وسط الفم مع إخراج الصوت، فما عمل فيه عضوان أثقل مما عمل فيه عضو واحد >>(1) .

ترداد الحروف:

تتجاور الحروف مع بعضها البعض أثناء عملية الكلام، إلاَّ أنَّ هناك حروفاً لا تلتئم مع أخرى قال الجاحظ:<< إنَّ الجيم لا تقارن الظّاء ولا القاف ولا الطاء ولا العين بتقديم ولا بتأخير، والزاي لا تقارن

الظّاء ولا السين ولا الضّاد ولا الذال بتقديم ولا بتأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفي بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري >>([2]).

فالقوانين الصوتية تظهر أنّ هناك أصواتاً تلتئم وتتضامَّ مع بعضها البعض وأخرى تتفاوت درجات اجتماعها وتجاورها في التلاؤم والتنافر.

وتختلف نسبة ترداد حروف العربية اختلافا بيّنا، ومرجع ذلك حسب رأي ابن سنان الخفاجي (ت466هـ) هو تباعد الحروف وتقاربها في المخارج، فكلّما تباعدت الحروف من حيث مخارجها كانت أيسر وأخف نطقا، وبالتالي تكون كثيرة الترداد، وهو (ابن سنان) يُشبه الحروف بالألوان حيث يقول:<<إنّ الحروف التي هي أصوات تجري من السمع مجرى الألوان من البصر، والألوان المتباينة إذا جُمعت كانت في النظر أحسن من الألوان المتقاربة ولذلك كان اللّون الأبيض أحسن مع الأسود لتباعدهما، في حين لا يحسن الأبيض مع الأصفر لتقاربهما، وهكذا مع كلّ الجمل المكوّنة للنّص، إذا تقاربت حروفه كانت مثل اللوحة الزيتية التي تقاربت ألوانها >>([3]).

وإلى ذلك يذهب ابن الأثير(ت637هـ)، حيث يرى أنّ واضع اللغة أسقط حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض استثقالا واستنكرها، : فلم يُؤلف بين حروف الحلق والخاء

---

[1] – الأشباه والنظائر 1/ 163 .

2 – البيان والتبيين لأبي عمرو الجاحظ (ت255هـ) اعتنى به الشيخ زكريا عميرات، دار الفكر العربي بيروت لبنان (2000م)، ط1 40/1 .

3– سرّ الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، دار الكتب العلمية، بيروت، (1982م) ، ص: 66.

والعين ، وكذلك لم يُؤلف بين الجيم، ولا بين اللاّم والرّاء، ولا بين الزّاي والسين"([180]).

ويعتبر هذا – أي تعمّد واضح اللغة إلى إبعاد هذه الحروف عن بعضها البعض أثناء تأليف الكلام– دليلا على عنايته بتأليف متباعد المخارج لا المتقارب.

ويذهب الإمام السيوطي في "المزه" إلى نفس الفكرة حيث يقول: قال ابن دريد في الجمهرة:<< اعلم أنّ الحروف إذا تقاربت مخارجها كانت أثقل على اللسان منها إذا تباعدت، لأنك لو استعملت اللسان في حروف الحلق دون الفم، ودون حروف الذلاقة كلّفته جرسا واحدا وحركات مختلفة>>([181]).

ويمكن تمثيل ما ذهب إليه كل من ابن سنان وابن الأثير، والسيوطي بالمخطط التالي:

ألفاظ ← حروفها متباعدة المخارج ← خفيفة النطق

---

[180] – المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص: 158.

[181] – المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد المولى، ومحمد أبو الفضل، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط: (1408هـ 1987م) ، ج1، ص: 37.

كثيرة الاستعمال

ألفاظ ← حروفها متباعدة المخارج ← خفيفة النطق

↓

كثيرة الاستعمال

وفي هذا اقتصاد في الجهد المبذول أثناء عملية النطق، وتخفيف من مؤونة التلفّظ بها خاصّة إذا كان الكلام طويلا، ومثال ذلك قول الأعرابي الذي سُئل: أين تركت ناقتك؟ قال: تركتها ترعى "الهعخع"[182].

فهذه اللفظة كلها مؤلفة من حروف الحلق المتقاربة جدا، وذلك يجعل التلفظ بها صعبا وكذلك الأمر في لفظة مستشزرات التي في بيت امرئ القيس:[183].

غدائره مُسْتَشْزَرَاتُ إلى العُلا **** تَصِلُ العُقَاصَ في مَثْنى وَمُرْسَلِ

وما يُبين أكثر فاعلية تباعد مخارج الحروف في النطق، هو ميل الأطفال في السنوات الأولى عند بداية نطقهم إلى محاولة توليد الحد الأقصى من التأليف الصوتي واللغوي من أجل استخدامه في أساليب التعبير المختلفة، <<فغالبا ما يصاحب هذه العملية سقوط أصوات وإحلال أخرى محلّها كإبدال صوت الكاف الطبقي المرفق المهموس بصوت التّاء في بعض الأحيان>>[184].

لأن التاء باعتباره صوتا لثويا أسنانيا يبدو أكثر سهولة في تحقيقه، وحركة اللّسان تتطلّب جُهدا في الكاف، بينما يُنطق التاء بيسر، وأقل كلفة من الكاف، وما نلاحظه في كلام الأطفال فيما يخص استبدال حروف بأخرى طلبًا لليسر ورغبة في بذل أقل جهد، الألفاظ التالية:[185].

جدّي ← ددّي، جاء ← داء، شمس ← سمس ، رايح ← آح

ذاك ← داك.

---

182 – الهعخع: عشب ترعاه الإبل.

183 – ديون امرئ القيس، شرح : محمد الإسكندراني و د: نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (2004م) ، ص:28.

184 – مجلة اللغة والأدب، الخطاب الأدبي وثروته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، رابح بوحوش، جامعة الجزائر، العدد: 12، شعبان (1418 هـ 1997م) ، ص: 329.

185 – ينظر: مجلة اللغة والأدب، رابح بوحوش، ص: 329.

فأصوات الرّاء والجيم والذّال والشين تستبدلها هذه الفئة من الصغار بأصوات أخرى أقل كلفة وأيسر نطقا.

وحتى الحروف ذات المخرج الواحد فإنها تتفاوت من حيث درجة الاستعمال والترداد والعملية الإحصائية " التي قام بها رشاد خليفة في ما يخص عددا من السور القرآنية تُبين ذلك، فاللام والرّاء: من مخرج واحد، وكلاهما مجوهرتان إلاّ أنّ الرّاء تتميز بأنها صوت مُكرر يضرب اللّسان معه في اللثة ضربات متتالية، وذلك يجعله صوتا مُركبا بالنسبة لصوت اللاّم، وعملية الإحصاء لعدد اللاّمات أكبر من عدد الرّاءات[186].

السين والصاد:

يقول أحمد مختار عمر في تعليله لتواتر حرف السين بكثرة :<< لا شك أنّ السين أكثر بساطة من الصاد[*] لأنّ هذه الأخيرة تقتضي عملية إضافية على حركات نطق السين وهذه العملية تتمثل في حركة مؤخّر اللسان إلى أعلى وحركة مؤخّره إلى الخلف>>[187].

وهذه الملاحظة تنطبق على كل الحروف، فالأيسر نطقا والأقل جهدا وتكلفة يشيع استعماله، ويكثر ترداده ودورانه على الألسنة بنسبة أكبر من غيره.

وهناك عامل آخر لهذه الظاهرة رُبما يكون أقل أهمية من العامل الأوّل وهو دلالة هذه الأصوات أو الحروف، فهناك من الحروف ما يدل"على القوة" كالقاف" وهناك ما يدل على الرّقة كالسين"[188].

وخلاصة القول أن أكثر الحروف ترددا هي "ما يجمعها قولك: أمان وتسهيل أو سألتمونيها أي: الألف والياء والواو والهمزة والميم والنون والتاء والسين والهاء واللام وأكثرها ورودا هو الألف لأنه أخف الأصوات بما فيه من المدّ والانفتاح في موضع التصويت"[189].

قال صاحب التكرير بين المثير والتأثير :" لقد وجدوا كلمات القرآن أربعين وأربعمائة وستا وسبعين ألفاً : 76440 تتكون من اثنين وثلاثين وثلاثمائة حرف بعد اثنين وعشرين وسبعمائة ألف حرف722332، ولغة الكتاب المبين أصفى المأثور من كلام العرب، وهذه نسبة تكرار كل حرف ([190]).

الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار	الحرف	مرات التكرار

186 – ينظر: دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، (1991م) ، ص: 395.

* – عدد السينات في السُور العشر الأولى من القرآن يفوق عدد الصادات بثلاث أضعاف، وعدد الطاءات في نفس السور تبلغ ربع عدد السينات، دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص: 395.

187 – دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر، ص: 395.

188 – النقد الأدبي، أحمد أمين، ص: 77.

189 – الاقتصاد اللغوي، فخر الدين قباوة، ص: 127.

190 - التكرير بين المثير و التأثير، د/ عز الدين علي السيد ، ط1، عالم الكتب،بيروت، (1398هـ، 1978م) ، ص:09 .

أ	**40792**	ز	**9583**	ق	**5240**
ب	**1140**	س	**4591**	ك	**22000**
ت	**1299**	ش	**25133**	ل	**14591**
ث	**1291**	ص	**1284**	م	**20560**
ج	**3293**	ض	**1200**	ن	**2036**
ح	**1179**	ط	**840**	هـ	**700**
خ	**2419**	ظ	**9320**	و	**13700**
د	**4398**	ع	**1020**	ي	**502**
ذ	**4840**	غ	**7499**		
ر	**10903**	ف	**2500**		

وهذا الترتيب نبدأ فيه بالأكثر تكراراً:

أ ، ش، ك، م ، ل ، و، ر، ز، ظ، غ ، ق ، ذ ، س ، د، ج ، ف ، خ ، ن ، ت ث ، ص ، ض ، ب ، ح ، ع ، ط ، هـ ، ي .

تكرار حروف المعجم في القرآن: قال صاحب الأفنان في عيون علوم القرآن (1).

عدد ما في القرآن من تكرار حروف المعجم على ما ذكره القاضي أبو بكر محمد بن خلف وكيع (*) قال :

الألفات	40998	الخاءات	2503	الفاءات	9813
الباءات	11420	الزايات	12606	الميمات	26922
الحاءات	4138	الضادات	1982	اللام ألفات	4709
الراءات	1680	الغينات	1229	الجيمات	3322
الصادات	2780	اللامات	33502	الذالات	4934
العينات	9409	الهاءات	170007	الشينات	2115
الكافات	10592	الثاءات	10480	الظاءات	1204
الواوات	25506	الدالات	5998	القافات	8099
الياءات	25717	السينات	5999	النونات	26955
التاءات	1404	الطاءات	842		

ترداد الألفاظ:

تتفاوت نسبة ترداد الألفاظ والكلمات تبعا لترداد الحروف، لأنها المادة الأساسية التي تستعمل في هندسة الكلام وتركيبه، والأصوات المكوّنة أو الجملة لها دور أساسي في درجة ترداد الكلمات، فالألفاظ ذات الأصوات الرقراقة تشّد انتباه الأذن، وتلفت انتباه السامع على عكس مفردات أخرى، ينفر منها السمع، وتمجُّها الأذن لما فيها من قوة أو تكرار.

(1)- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، (ت 597هـ)، تح: د/ حسن ضياء الدين عز، دار البشائر الإسلامية، ط1،(1408هـ، 1987م) ، بيروت لبنان،ص:250.

(*)- محمد بن خلف: أبو بكر البغدادي المعروف بوكيع القاضين ثقة جليل، روى القراءة عن محمد بن يحي الكسائي ، ولي القضاء بالأهواز ،(ت306هـ) ببغداد، غاية النهاية، 137/2.

يقول ابن الأثير:<<هناك كلمات إذا سمعتها تخيّلت رجالا قد ركبوا خُيُولهم واستلأموا(*) سلاحهم، وألفاظ أخرى تتخيل عند سماعها كأنهن نساء حسان عليهن غلائل (*)مُصّبغات وقد تحلّين بأصناف الحلّي>>[191].

والمعيار الذي يُفرِّق به ابن الأثير بين ارتفاع وانخفاض درجة تواتر كلمة أو مجموعة كلمات هو السمع، فما يستلذه السمع ويميل إليه فهو الحسن، وما ينفر عنه ويكرهه فهو القبيح ،وكراهة الآذان له يُقلل من درجة استعماله، فمن المتكلمين من يأتي كلامه عذبا زُلالا تستأنس به النفوس، وتطمئن إليه الأفئدة، ويرتاح له البال فيتمكّن من نفس صاحبه ويصنع فيه صنيع الغيث النّافع في التربة الصالحة.

يقول ابن الأثير:<< ألا ترى أنّ السّمع يستلذّ صوت البلبل من الطين والشحرور ويميل إليهما، ويكره صوت الغراب وينفر عنه>>[192]، وقد يكثر استعمال كلمة دون غيرها من مفرداتها<<كلفظة المزنة والدّيمة والُعاق الدّالة على صفة المطر، فالدّيمة والمزلة لحسنها يستلذها السمع فيكثر استعمالها، ولفظة الُعاق لكراهتها وقبحها يمجُّقها السّمع فيقلّ استخدامها>>[193].

ويذهب الجاحظ إلى أنّ الترداد ظاهرة طبيعية في كل لغة، وقد يُلاحظ في مستوى الحروف[194]، وهنا نُذكر أنه ليست العربية لوحدها فقط من تفرد بهذه الميزة، وإنما هناك لغات عديدة تميل نحو الأيسر والأسهل

191 - المثل السائر، ابن الأثير، ج1ن ص: 181.

*- غلائل: ج م غلالة- بالغين المعجمية- وهي شعار يُليس تحت الثوب.

*- استلأموا: لبسوا اللأمة- بفتح اللام وسكون الهمزة- هي الدّرع المحكمة الممتلئة.

192 - المصدر السابق، ج1، ص: 81.

193 - نفسه، ص: 81 .

194 - البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 22.

في توظيف الألفاظ والعبارات، وهذا ما كشفت عنه الإحصائيات الدقيقة التي قام بها زيف " Zipf"

في كتابه The psycho biology of language، وهو ما أصبح معروفا بقانون زيف، الذي أثبت فيه العلاقة بين تكرار وقوع كلمت (ت) ورتبتها على سُلم التكرار لمجموعة نصوص معينة (ن) هي دائما وتقريبا العلاقة نفسه بالنسبة لكُل النصوص وكلّ اللغات، والدّالة هي: "ت x ن" التي يمكن التعبير عنها بالمنحنى البياني التالي:[195].

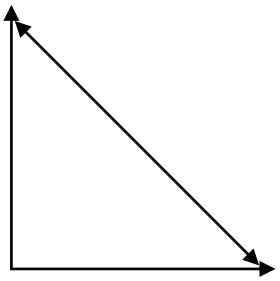

الرتبة

وما تقوله الدالة هو أن هناك عددا قليلا من الكلمات عالية التكرار، وعددا ضخما من الكلمات قليلة التكرار.

كما أن زيف " Zipf"توصّل إلى هذه النتيجة باختباره لمجموعة واسعة، ومتنوعة من اللغات المتباعدة ثقافيا كالقوطية gotic والنوتكا nootka والبليتر blains والكري cree والإنجليزية القديمة والألمانية، وما توصل إليه في النهاية هو كالتالي:[196].

1-ارتباط طول الكلمة بكثرة ترادها ارتباطا عكسيا، أي كلّما كانت قصيرة كانت أكثر تواترا.

2-ميل اللغات إلى تفضيل الكلمة القصيرة التي يكثر ترادها.

3- ميل اللغات إلى تفضيل الكلمة القصيرة على مرادفاتها الطويلة.

4- وجود تلازم عكسي بين حجم الفونيم[*] ، وبين تردده في الاستعمال.

وما توصل إليه زيف " Zipf" في العصر الحديث كان قد تنبه إليه العلاّمة ابن جني (ت 392هـ) قبله بعدة قرون حيث يذهب في قوله إلى أن العرب استخدمت بعض الصيّغ أكثرمن بعض، فهم استخدموا الفعل الثلاثي أكثر من الرُّباعي، وأهملوا الخماسي منه نُفورا من الاستثقال وكرهوا استعمال الثنائي الذي

---

[195] – ينظر: اللغة والاقتصاد، ص: 301.

[196] – دراسة الصوت اللغوي، احمد مختار عمر، ص: 393.

[*] – الفونيم: هو أصغر وحدة فونولوجية في اللسان المدروس.

تقاربت حُروفه مثل: سصّ وطسّ وطثّ...الخ فلتقارب مخارج حروف هذه الألفاظ كره العرب ذلك لنُفور الحسّ عنه والمشقة على النفس لما فيه من تكلفة، وزيادة جهد[197].

ويشير كذلك إلى أنّ أصول الصيغ ثلاثة: ثلاثي رباعي خماسي، والثلاثي أكثرها استعمالا وأعدلها تركيبا، ويُعلل كثرة الثلاثي وشيوعه بقوله: "وذلك لأنه حرف يبدأ به وحرف يُحشى به، وحرف يُوقف عليه"[198].

ولقد حاول ابن عزوز زبدة التأكّد من نظرية ابن جني ، فقام بدراسة المشتقات في المعلّقات العشر الجاهلية فتوصّل إلى صحة نظريته ، حيث وجد أنّ الثلاثي أكثر استخداما عند أصحاب المعلّقات لخِفته مقارنة بغيره من المشتقات، وما يُشتق منه كاسم الفاعل واسم المفعول يكون أكثر من غيره، ونادرا ما يحدث العكس، وهذه هي النتائج المتوصّل إليها:[199].

أولا:معلّقة امرئ القيس: عدد أبياتها واحد وثمانون بيتا.

الفعل: أ- الثلاثي المجرّد : ثمانون.

ب- الثلاثي المزيد بحرف: سبعة وعشرون.

ج- الثلاثي المزيد بحرفين: ستة وعشرون.

اسم الفاعل:

أ- من الثلاثي المجرّد : خمسة عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: سبع

صيغ المبالغة: عدد ألفاظها سبعة.

الصفة المشبّهة: عدد ألفاظها تسعة.

اسم المكان: عدد ألفاظه ثلاثة.

اسم الزمان: عدد ألفاظه واحدة.

اسم الآلة: عدد ألفاظها ثلاثة.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : سبعة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: أربعة وثلاثون.

---

197 - ينظر: الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 62.

198 - نفس المصدر، ص: 56.

199 - دراسة المشتقات العربية وآثارها البلاغية في المعلّقات العشر الجاهلية، بن عزوز زبدة، ص: 160-168.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: اثنان.

ثانيا: معلقة طرفة بن العبد البكري: عدد أبياتها مئة وأربعة.

الفعل: **أ**- من الثلاثي المجرّد : مئة وستة وثلاثون فعلا

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ثلاثة وأربعون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثلاثون.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: أربعة.

اسم الفاعل: **أ**- من الثلاثي المجرّد : ثلاثة وثلاثون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ثمانية.

صيغ المبالغة: عدد ألفاظها في القصيدة: ستة عشر.

الصفة المشبّهة: عدد ألفاظها في القصيدة : ستة وثلاثون.

اسم المكان: تسعة ألفاظ.

اسم الآلة: أربعة ألفاظ.

اسم المفعول: **أ**- من الثلاثي المجرّد : اثنا عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: خمسة وثلاثون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: اثنان.

ثالثا: معلّقة زهير بن أبي سلمى: عدد أبياتها اثنان وسبعون.

الفعل: **أ**- من الثلاثي المجرّد : ثلاثة وتسعون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: سبعة وأربعون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: أربعة عشر.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: اثنان.

اسم الفاعل: **أ**- من الثلاثي المجرّد : أربعة عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ستة.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثلاثة.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: اثنان.

اسم المفعول: **أ**- من الثلاثي المجرّد : ستة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: إحدى عشر.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: واحد.

صيغ المبالغة: عدد ألفاظها في القصيدة: أربعة.

الصفة المشبّهة: عدد ألفاظها : ثمانية.

اسم المكان: عدد ألفاظه: أحد عشر.

اسم التفضيل: عدد ألفاظه : واحد.

اسم الآلة: عدد ألفاظها: اثنان.

رابعا: معلقة لبيد بن ربيعة العامري: عدد أبياتها ثمانية وثمانون.

الفعل: **أ**- من الثلاثي المجرّد : مئة وأربعون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: سبعة وأربعون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثلاثة وثلاثون.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : ستة وعشرون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ثمانية.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: خمسة.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : اثنا عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: خمسة.

خامسا: معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي : عدد أبياتها مئة وواحد.

الفعل: **أ-** من الثلاثي المجرّد : مئة واثنان وخمسون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ستة وأربعون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: عشرون.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: ثلاثة.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : أربعة وثلاثون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: سبعة.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: واحد.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : سبعة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: أربعة.

سادسا: معلقة عنترة بن شداد : عدد أبياتها خمسة وسبعون بيتا.

الفعل: أ- من الثلاثي المجرّد : مئة وأربعون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان وعشرون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثمانية عشر.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : مئة وأربعة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان وعشرون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثلاثة.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: ثلاثة.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : ثلاثة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: عشرة.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: عشرة.

سابعا: معلقة الحارث بن حلزة اليشكيري : عدد أبياتها اثنا وثمانون بيتا.

الفعل: أ- من الثلاثي المجرّد : تسعة وسبعون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان وثلاثون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: عشرة.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: اثنان.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : تسعة عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: عشر.

ج- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: اثنان.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : اثنان.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: واحد.

ثامنا:معلقة الأعشى: عدد أبياتها اثنان وستون.

الفعل: أ- من الثلاثي المجرّد : اثنان وثمانون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: خمسة وثلاثون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: خمسة وعشرون.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: ثلاثة.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : ثلاثة وعشرون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: خمسة.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: تسعة.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: واحد.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : ثلاثة.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: أربعة.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: واحد.

تاسعا: معلقة النّابغة الذبياني: عدد أبياتها خمسون بيتا.

الفعل: أ- من الثلاثي المجرّد : سبعة وستون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: ثلاثة وثلاثون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: ثلاثة.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: اثنان.

اسم الفاعل: **أ-** من الثلاثي المجرّد : ثمانية وعشرون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: اثنان.

د- من الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف: واحد.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : خمسة، ولا يوجد من غيره.

عاشرا: معلقة عبيد بين الأبرص الأسدي: عدد أبياتها ثمانية وأربعون بيتا.

الفعل: أ- من الثلاثي المجرّد : واحدة وأربعون.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: عشرون.

ج- من الثلاثي المزيد بحرفين: أربعة.

اسم الفاعل: أ- من الثلاثي المجرّد : تسعة عشر.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان، وغيره لا يوجد.

اسم المفعول: أ- من الثلاثي المجرّد : أربعة عشر فعلا.

ب- من الثلاثي المزيد بحرف: اثنان ولا يوجد من المزيد بحريفين .

ومن خلال هذه الدراسة الإحصائية تبيّن جليا مدى تفاوت هذه المشتقات في درجة صيّغها، حيث أنّ العرب استخدموا الثلاثي أكثر من غيره، لخفّته واعتدال تركيبه وأهملوا الثنائي رغم أنه أقلّ حروفا وخاصة ما تقاربت حروفه لنفور الحسّ عنه كما قال ابن جني،(1) ومشقّة النفس لتكلُّفه.

كما أننا لاحظنا أنّ مشتقات الأسماء كاسم الفاعل واسم المفعول، كانت من الثلاثي أكثر من الرّباعي، ومن الخماسي أقلّ من الرّباعي، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على رغبة العرب، وميلهم إلى الاقتصاد في الكلام واللغة، والتقليل من الجهد كلّما سنحت الظروف بذلك، كيف لا وهم من دعا إلى ذلك في مواضيع عديدة من كتاباتهم وأحاديثهم، بل واتخذوه مذهبا يشمل جميع مناحي حياتهم.

والقرآن الكريم نزل بلسانهم وعلى طريقتهم، فلذلك نجد فيه الأفعال الثلاثية كثيرة جدا المجرد منها والمزيد ،أما الرباعية فقد جاء منها فعل واحد –حسب رأي عبد الخالق عضيمة – وورد في موضعين على صورة واحدة ، قال تعالى :" أفلا يعلم إذا بُعثر ما في القبور " وقوله أيضا :" وإذا القبور بُعثرت "(2) .

ونفس الشيء ينطبق على الأسماء ، فقد جاءت الأسماء الثلاثية كثيرة جدا ، وأقل منها بكثير الأسماء الرباعية مثل برزخ وخردل وسرمد وزخرف وسندس و...وهكذا مع الخماسي والسداسي كلما زاد عدد الحروف كلّما قلّ الاستعمال، قال ابن جني :" ذوات الأربعة مستثقلة غير متمكنة تمكُّن الثلاثي ،ولا شك في ثقل الخماسي وقُوَّة الكلفة به" (3)

1- ينظر: الخصائص، ابن جني، ج1، ص: .62

2- ينظر :دراسات لأسلوب القرآن، محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، ، مج 8 ،القسم 3 ،ج1 ،ص13 .

3- الخصائص ج1، ص61 .

ويأتي المحدثون ليؤكدوا ما ذكره القدماء ، قال هنري فلايش :(h: fleish)

<< وفي العربية عدد قليل من الأصول ذوات الصامتين أي الثنائية ، ...وهناك عدد كبير من الأصول ذات الصوامت الأربعة أي الرباعية ، وهي مسجلة في المعاجم ، ولكن بعض الإحصاءات التي أجريت على النص القرآني كشفت عن وجود خمسة عشر أصلا رباعيا فحسب مقابل 1160أصلا ثلاثيا، وهي نسبة جد ضعيفة في نص يعتبر أساسيا في تراث اللغة ، والجانب الأكبر من المفردة العربية يأتي من أصل ذي ثلاثة صوامت >>(1) .

الاقتصاد اللغوي في القراءات القرآنية:

مفهوم علم القراءات: اختلفت عبارات العلماء في تعريفهم للقراءات ، قال عبد الفتاح القاضي في البدور الزاهرة :"هو علم يعرف به كيفية النطق بالكلمات القرآنية وطريق أدائها اتفاقاً، واختلافاً مع عزو كل وجه لناقله" (2)

وقال الإمام ابن الجزري في منجد المقرئين : هو "علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزو لناقله"(3).

والقراءات القرآنية وردت عن المصطفى–صلى الله عليه وسلم– في تعليمه لصحابته الكرام وثبت عنه أنه قال: ﴿ إنَّ هذه القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه﴾ (4).

وفي حديث المصطفى–صلى الله عليه وسلم –رخصة إلى الأمة العربية تقرأ بما تيسر لها <<والإنزال على سبعة أحرف كان توسعة من الله ورحمة على الأمة إذْ لو كُلِّف كلُّ فريق منهم ترك لغته والعدول عن العادة التي نشأوا عليها من الإمالة والهمز والتليين والمدّ وغيره لشق عليهم>>(5).

—

1– العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد ، هنري فلايش ، تعريب وتحقيق : عبد الصابور شاهين ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان ط2، ص53.

2– البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضين دار الكتاب العربي، ط1، (1401ه) ، ص5 .

3– منجد المقرئين ،الجاحظ محمد بن محمد بن الجزري، تح: د/ عبد الحي الفرماوي، نشر مكتبة جمهورية مصر القاهرة ط1، (1397م)، ص:61 .

4– صحيح البخاري ، البخاري أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن، ط،بولاق (1162ه) ، ج6 ، ص185.

5– البرهان ج1، ص227.

وعلم القراءات يحمل في طياته معاني غزيرة، وفوائد جليلة ، فالمفسّر يَرِدُ إليه فيصدر عن أوجه متعددة في الآية كل منها يفيد معنى، فيزيد تفسيره إشراقاً، والفقيه يقلِّب نظره في الأوجه ، فيستخرج منها أحكاماً غابت عن غيره ممن لم يعرف لهذا العلم فضله (1).

وتعدد القراءات في الآية << فيها من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة الآية، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات ، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يَخْفَ ما كان ذلك من التطويل،وفيها من التهوين والتسهيل والتخفيف على الأمة >> (2) .

فالله سبحانه وتعالى أعلم بحال عباده ، وما هم عليه من اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – بُعث إلى جميع الخلق أحمرها وأسودها عربيها وعجميها،و<<كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم لغاتهم مختلفة وألسنتهم شتى،ويعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها أو من حرف إلى آخر ،بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولا بالتعليم والعلاج لاسيما الشيخ والمرأة ،ومن لم يقرأ

كتاباً كما أشار إليه- صلى الله عليه وسلم - فلو كُلّفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع، وما عسى أن يتكلف المتكلف وتأبى الطباع>> (3).

أثر القراءات القرآنية في اختلاف الأحكام الفقهية:

اختلفت القراءات القرآنية في أوجه عديدة ، فنجم عن ذلك اختلاف في استنباط القواعد الفقهية كقوله تعالى:﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المحِيضِ وَ لَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرنَ ﴾(4)، قرئ بالتخفيف وبالتشديد في حرف الطاء من كلمة "يطهرن" وصيغة المبالغة تفيد وجوباً المبالغة في طهر النساء من الحيض، لأنّ زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، أما قراءة التخفيف فلا

تفيد هذه المبالغة ومجموع القراءتين يحكم بأمرين :

1- أن الحائض لا يقربها زوجها حتى يحصل أصل الطهر، وذلك بانقطاع الحيض.

1- ينظر : جامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو الداني(ت444هـ) ،دراسة وتحقيق :الطالب خالد بن علي بن عبدان الغامدي، إشراف:د/ محمد ولد سيدي ولد حبيب، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة، السعودية ،قسم الكتاب والسنة،(1415هـ، 1995م) .

2- النشر في القراءات العشر، ابن الجزري (ت833هـ) ، ج1، ص: 46.

3 - النشر في القراءات العشر ، ج1، ص24.

4- البقرة: 222 .

2- أنّها لا يقربها زوجها إلاَّ إذا بالغت في الطهر وذلك بالاغتسال، فلا بد من الطّهرين كليهما في جواز قرب النساء، وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه.

وقد يكون النحو عاملاً في اختلاف الأحكام الفقهية كقوله تعالى﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُم وَأَيْدِيكُمْ إِلَى المَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الكَعْبَيْنِ ﴾ (1).

قُرئ بنصب لفظ " أرجلكم" وبجرها(2) فالنصب يفيد طلب غسلها لأنّ العطف يكون حينئذ على لفظ"وجوهكم" المنصوب وهو مغسول، والجر يفيد مسحها لأن العطف حينئذ يكون على لفظ"رؤوسكم" المجرور وهو ممسوح، وقد بيّن الرسول- صلى الله عليه وسلم - أنَّ المسح يكون للابس الخف، وأن الغسل يجب على من لم يلبس الخف (3) فالقراءتان قامتا مقام آيتين ، وفُهم من الأولى معنى، ومن الثانية معنى غير الأول، والسنة الفعلية بيّنت ذلك، وهذا ما يجعلنا نقول إنّ تنوّع القراءات القرآنية يقوم مقام تعدد الآيات، وهذا وجه من وجوه بلاغتها، وهو جانب مهم من جوانب اقتصاد اللغة فيها .

كما أنّ في القراءات تجلية وتوضيحاً لعقيدة ضلّ فيها بعض الناس كقوله تعالى في وصف الجنة ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيْماً وَمُلْكَاً كَبِيْراً ﴾ (4).

جاءت القراءة بضم الميم وسكون اللام في لفظ "مُلْكاً" ، وجاءت قراءة أخرى بفتح الميم وكسر اللام في هذا اللفظ نفسه، فرفعت القراءة الثانية نقاب الخفاء عن وجه الحق في عقيدة رؤية المؤمنين الله تعالى في الآخرة(5)، فالقراءة الأولى " مُلْكًا " أي أنّك ترى رزقا وخيرا كبيرا، والقراءة الثانية " مَلِكَاً" أي أنك ترى نعيما ومَلِكًا كبيرا وهو الحق تبارك وتعالى، والمؤمنون الأتقياء لما يدخلون الجنة يرون من الخير العميم والملك العظيم مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ويُكشف عنهم الحجاب فيرون ربهم وهو أفضل نعيم ،وقد أخبر المولى عز وجل أنّ المؤمنين سيرون ربهم فقال تعالى: ﴿ لِلَّذِينَ

1- المائدة : 06 .

2- الكشاف ، 1/ 106.

3- مناهل العرفان في علوم القرآن،الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، تح: فوّاز أحمد زمرلي،دار الكتاب العربي بيروت،ج ط1، (1415هـ، 1995م) ،ص: 126.

4- الإنسان :20 .

5- مناهل العرفان ج1، ص:126.

أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَة﴾ (1)، وقد قيل- إنّ الحسنى هي الجنة، والزيادة هي النظر في وجه المولى عز وجل (2)، فالكلمة واحدة وبتغيير في الحركات أخبرت عن أمرين سيقعان وسيراهما المؤمنون في الجنة، وهذا لون بارز من ألوان الاقتصاد اللغوي في القراءات القرآنية

وقال تعالى:﴿ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيد ﴾ (3)، قُرئ بفتح الراء وضمها في"يضار" فالفتح على أنَّ " لا" ناهية فالفعل مجزوم بعدها، والفتحة التي على الراء هي فتحة إدغام المثلين، أمّا الضم فعلى أنّ "لا" نافية، والفعل بعدها مرفوع (4)، فالفعل"يضار" فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، ومنه لا يجوز لأي أحد أن يلحق الضرر بكاتب الدين أو الشاهد على كتابة الدين حتى تُحفظ الحقوق ولا تضيع أموال الناس .

والقراءة الثانية جعلت الفعل مرفوعا، و"لا" السابقة له نافية، وعليه يكون المعنى :أنه صار في عرف الناس والمؤمنين أنّ كاتب الدين والشاهد عليه لا يضرهما أحد، لِمَا عرفوا من أمر الله في ذلك، وَلِمَا لهما من دور في حفظ الحقوق والأموال، وكلا الأمرين حاصل فالناس لمّا علموا نهي الله عن إلحاق الضرر بالكاتب والشهيد امتثلوا لأمره، فصار عندهم أمرا مألوفا، كما في قراءة قوله تعالى" واتّخَذوا "و" واتَّخِذُوا " التي

سنتحدث عنها فيما بعد، وهذا كما ترى مظهر من مظاهر اقتصاد اللغة في القراءات القرآنية ، فاللفظ واحد والمعنى متعدد.

وقال تعالى:﴿ فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يُكَذِّبُون﴾ (5)، فكلمة" يَكْذبون"وردت في رواية حفص" يَكْذِبُون"بالتخفيف، أي بسبب كذبهم في قولهم ءامنا بالله وباليوم الآخر، وفي رواية ورشٍ يُكَذِّبُون" بالتشديد والمراد بهاتين القراءتين جميعاً هم المنافقون ، وذلك أنّهم كانوا يَكْذِبُون في أقوالهم

1- يونس : 26 .

2- ينظر : التحرير والتنوير ج11، ص146 ، والبحر المحيط ج5 ، ص149 .

3- البقرة: 282 .

4- مناهل العرفان ، ج1 ، ص: 133.

5- البقرة :10 .

وأخبارهم، ويُكَذِّبون النبي"صلى الله عليه وسلم" فيما جاء به من عند الله تعالى ،فالأمران جميعاً حاصلان منهم (1).

أوجه الاختلاف بين القراءات:

من أوجه اختلاف القراءات القرآنية الاختلاف في اللفظ وفي المعنى جميعاً مع جواز اجتماع القراءتين في شيء واحد، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّين ﴾ (2)، أو﴿مَلِكِ يَوْمِ الدين﴾ بجر مالك، ومَلِكِ صفة رابعة للفظ الجلالة في قوله تعالى:﴿ الرحمن الرحيم ﴾ مع جرِّ لفظ (الدِّين) بالإضافة << لأنّ المراد بهاتين القراءتين جميعاً هو الله سبحانه وتعالى، وذلك أنّه تعالى مالك يوم الدين ومَلِكُه ، فقد اجتمع له الوصفان جميعاً فأخبر بذلك في القراءتين>> (3).

وقد قرأ أنس بن مالك:﴿ مَلِكِ يومِ الدِّينِ﴾ بنصب (ملك) (4)على النِّداء ناظراً إلى مقتضى توجيه الدُّعاء إليه سبحانه بعد ذلك :﴿اهدنا الصراط المستقيم ﴾ (5).

وقرأ جبير بن مطعم (ت 59ه) : ﴿ (مَلَكَ يَوْمَ الدِّينِ) بفتحِ كلِّ حروف كلمة(ملك) على أنَّها فعل ماض ونصب (يوم) على المفعولية حسب مقتضى قراءته هذه(6).

وفي النهاية الله سبحانه وتعالى مالك ليوم الدين ومَلِكِ ولا ملك سواه، وإذا كان كذلك فهو قد مَلَكَ يوم الدين ولا أحد غيره له الحول أو القوة على امتلاكه، فهذه الآية ومن خلال القراءات الثلاث أخبرت عن أمور كثيرة ، فقامت مقام آيتين أو ثلاث، وهذا وجه ظاهر من وجوه اقتصاد اللغة في هذه القراءات .

---

1 – ينظر: تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي ، إشراف الدكتور هاشم محمد علي بن حسن مهدي ، دار طوق النجاة ، ط1 : (1421ه/ 2001م) ، بيروت لبنان ، المجلد الأول ،ص 172 .

2 – الفاتحة :04 .

3– الكشف عن وجوه القراءات السبع، مكي بن أبي طالب، ج1/ 25.

4– ينظر :د/ محمد حسن جبل ، دفاع عن القرآن الكريم – أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللّغة العربيَّة – د/ محمد حسن جبل البربري للطباعة الحديثة، بسيون غربية،(2000م) ، ص81،80 .

5– الفاتحة :06 .

6– شواذ القراءات للكرماني ، ص15.

وكذلك قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الغَيْبِ بِضَنِيْن ﴾ (1)، فقد اختلف القُرّاء في قراءته فقرأه نافع وابن عامر وعاصم وحمزة وأبو جعفر وخلف بالضاد الساقطة التي تخرج من حافة اللسان مما يلي الأضراس، وقرأه الباقون بالظاء المشالة التي تخرج من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، لأنّ المراد بهاتين القراءتين جميعا هو النبي – صلى الله عليه وسلم – وذلك أنه كان غير ضنين به، من الضّنّ بالضاد مصدره "ضَنٌّ " إذا بخل، فيجوز أن يكون معناه الحقيقي ما صاحبكم ببخيل؛ أي: بما يُوحى إليه من الأمور الغيبية طلبا للانتفاع بما يخبر به بحيث لا ينبؤكم به بِعَوَضٍ تُعطونه، وذلك كناية عن نفي أن يكون كاهنا أو عرّافا يسألهم عوضا عمّا يخبرهم به، ويجوز أن يكون "ضنين" مجازا مرسلا في الكتمان بعلاقة اللزوم ، لأنّ الكتمان بخل بالأمر المعلوم للكاتم ، أي ماهو بكاتم الغيب ،أي غير بخيل بتعليم ما علّمه الله وأنزله إليه، ظنين على الغيب، أي غير مُتَّهم فيما أخبر به عن الله تعالى، فقد انتفى عنه الأمران جميعاً فأخبر الله تعالى عنه بهما في القراءتين.(2).

القراءات القرآنية وتعدد المعنى:

اختلاف القراءات ينجم عنه وينبثق منه ثروة علمية هائلة، فالمعاني تتعدد وتتنوع بتعدد واختلاف الكلمات في التخفيف والتشديد وبالزيادة والحذف، و باختلاف الحركات

الإعرابية، فالقراءات القرآنية حقل غني بالمعاني والدلالات ،ويم زاخر تتدفق منه المعاني الغزيرة والمتنوعة في كل وقت وحين .

فالكلمة المخفّفة لها معنى غير المشدّدة، والكلمة التي يحذف منها غير التي يُضاف إليها ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:﴿ وَانْظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ﴾(3)، وردت بالراء" ننشرها"ووردت بالزاي" ننشزها" و المراد بهاتين القراءتين جميعاً هي العظام، وذلك أنَّ الله تعالى أنشرها أي أحياها و أنشزها أي: رفع بعضها إلى بعض حتى التأمت، فأخبر سبحانه أنه جمع لها هذين الأمرين من إحيائها بعد الممات ؛ورفع بعضها إلى بعض لتلتمّ فَضَمَّنَ تعالى المعنيين في القراءتين تنبيهاً على عظيم قدرته(4).

—

1- التكوير : 24 .

2- ينظر: التحرير والتنوير ، طاهر بن عاشور ، ج30، ص 162 .

3- البقرة : 259 .

4- حجة القراءات،لابن زنجلة ، تح: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة ، بيروت،ط2، (1399هـ)، ص:144 .

وقوله تعالى:﴿ وَاتَّخَذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيْمَ مُصَلًّى ﴾(1)، بكسر الخاء على الأمر، وبفتحها على الخبر لأنَّ المراد بالقراءتين جميعاً هم المسلمون، وذلك أنَّ الله تعالى أمرهم باتخاذهم مقام إبراهيم مصلّى، فلما امتثلوا ذلك وفعلوه أخبر به عنهم، فجاءت القراءة بالأمرين جميعاً، للدلالة على اجتماعهما لهم؛ فهما صحيحان غير متضادين (2).

كما تختلف القراءات في وجوه منها اختلاف الحركات أو اختلاف الكلمات في الحروف، مثل قوله تعالى:﴿ وَجَعَلُوا المَلاَئِكَةَ الذِّينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَانِ إِنَاثًا ﴾(3)، قرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج ونافع (عند الرحمن) ظرفا وهو أدلّ على رفع المنزلة وقرب المكانة، والكلام على الاستعارة في المشهور لاستحالة العندية المكانية في حقه سبحانه ، وقرأ أبو عبد الرحمن بالباء (عباد) والمعنى على الجمع بإرادة الجنس"(4).

ومثال اختلاف معنى الآية بسبب اختلاف صيغة الفعل قوله تعالى:﴿ولما ضُرِبَ اِبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّون﴾ (5)، قرأ نافع بضم الصاد في:"يصدون" وقرأ حمزة بكسرها ، فالأولى بمعنى يصدون غيرهم عن الإيمان، والثانية بمعنى صدودهم في نفوسهم وكلا المعنيين حاصل منهم، فهم امتنعوا عن الدخول في الإسلام ومنعوا غيرهم فالآية من خلال هاتين القراءتين أخبرت عنهم بكلمة واحدة فقط، وبتغير حركة الصاد

أثارت وبيّنت معنى جديداً حاصلاً عند الكفار، واختلاف القراءات في القرآن الكريم ينتج عنه العديد من المعاني والدلالات .

والظَنَّ أنَّ الوحي نزل بالوجهين<< وأكثر تكثيراً للمعنى إذا جزمنا بأن جميع الوجوه في القراءات المشهورة هي مأثورة عن النبي- صلى الله عليه وسلم -ولا مانع بأن يجيء ألفاظ

—

1- البقرة: 125.

2- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها مكي بن أبي طالب تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة بيروت ط2، (1402هـ)،263/1.

3- الزخرف: 19 .

4- روح المعاني ، الألوسي ، ج25 ، ص 71.

5 - الزخرف : 57.

القرآن على ما يحتمل ذلك الوجوه مراداً لله تعالى ليقرأ القرآن بوجوه ، فتكثر من جرّاء ذلك المعاني ،وهذا نظير التضمين في استعمال العرب، ونظير التورية والتوجيه في البديع>>(1).

وقال تعالى:﴿ولاَ تْسَأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الجَحِيم﴾ (2)، وفي قراءة أخرى"لا تُسألُ" والمعنى حسب الصيغة الأولى نهي عن السؤال عنهم ما دمت قد أديت واجبك نحوهم ،وحسب الصيغة الثانية إخبار وتأمين من الله لرسوله الكريم بأنه لن يسأله عن أصحاب الجحيم لأنه قد دعاهم مرارا وتكرارا، وحذّرهم فما سمعوا قوله ولا استجابوا لدعوته.

قال صاحب البحر: قراءة الجمهور بضم التاء واللام "ولا تُسألُ"، وقرأ ابن مسعود "ولن تُسألَ" وهذا كله خبر، والمعنى أنك لا تُسألُ عن الكفار مالهم لم يؤمنوا ؛لأنّ ذلك ليس إليك " إن عليك إلا البلاغ " " وإنّك لا تهدي من أحببت "، وقرأ نافع ويعقوب "ولا تسألْ " بفتح التاء وجزم اللام، وذلك على النهي، أي نهي الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يسأل عن أحوال الكفار ... وقيل يحتمل أن لا يكون نهيا حقيقة ؛بل جاء ذلك على سبيل تعظيم ما وقع فيه أهل الكفر من العذاب كما تقول : كيف حال فلان إذا وقع في بلية، فيقال لك : لا تسأل عنه "(3).

وهناك قراءات للصحابة اختلف إعرابها تبعاً لاختلاف مقتضياها ، وكان لها أثر دلالي بارز، يتضح من خلال الأمثلة الآتية:

قال تعالى في أوَّل سورة الفاتحة:﴿ الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمِينَ ﴾، قُرئ برفع لفظ (الحمدُ) وبنصبه، وقراءة (الحمدَ لله) بالنَّصب قرأها هارون بن موسى، وسفيان بن عُيينة ورؤبة وليست من القراءات السَّبع. "(4).

فالرَّفع تعبير بجملة اسمية (مبتدأ وخبر) يدلُّ على ثبوت الحمد لله سبحانه واستقراره له تعالى، والنَّصب على أنَّه مفعول مطلق لفعل مقدر أي:(نَحْمَدُ الحَمْدَ) أو مفعول به كذلك (الزموا الحمد).

—

1- التحرير والتنوير ، ج1 ، ص 58 .
2- البقرة: 119.
3 - البحر المحيط ،ج1 ، ص 538 .
4- معجم القراءات القرآنية 5/1 .

وهذه جملة فعلية تفيد الحدوث والتَّجدد، والتَّعبير بالجملة الاسمية يعني ثبات الحمد من الأزل إلى الأبد قبل حمد الحامدين وبعده، كما أنَّه يعني أنَّ كونه تعالى محموداً لا يتوقف على حَمْدِ أحد، فالحمد لله تعالى ثابت سواء حمدوا أو لم يحمدوا، كما أنَّه يخلو من توهم منْ يحمد أنه وفَّى الله تعالى حقه.. (1).

و قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الحَيَاةِ الدَّنْيا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام ﴾ ([2])، قرئ:(ويُشهدُ الله) بضم ياء المضارعة ونصب لفظ الجلالة والمعنى أنه يستشهد بالله- الذي يعلم ما في القلوب، وهذا كالقسم- على أنه مؤمن ومخلص أي: أخ للمؤمنين، في حين أنه عدو لدود لهم، وقرئ:(ويَشهدُ اللهُ) بفتح ياء المضارعة ورفع لفظ الجلالة([3]).

وعلى هذه القراءة فهو لا يستشهد بالله، ولكن الله يخبرنا أنَّه يشهد و يعلم حقيقة ما في قلبه، وأنَّه خلاف ما يقول، فهو عدو لدود لكنَّه على هذا أقلُّ جرأة على الله.

التصوير الفني في القرآن الكريم:

كلُّ من يمعن النظر في القرآن الكريم ويتدبره يجده يستثير الحواس بواسطة الكلمات فيزداد انتباه القارئ أو السامع بحضور الحواس ، فالعين ترى والأذن تسمع والمشاهد ترتسم في الخيال حتى كأنَّ الحوادث تقع

الآن ، فهي حاضرة أمام عينيك حتى وإن كانت وقعت في غابر الأزمان أو مازالت لم تقع بعد ، فالتصوير يحرك العواطف ويشحن النفس بشتى أنواع الأحاسيس والمشاعر.

كما أنَّ التمثيل هو الآخر ضرب له دوره في رسم الحوادث والشخصيات، والتعبير عن الماضي بالمضارع هو الآخر يجعل الحادثة متجدّدة عبر الأزمان فكلما قرأت قصة تحسب أنها تقع الآن ولأول مرّة، وانظر معي إلى قوله تعالى يحكي عن أصحاب الكهف

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ذَاتَ اليَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَال...﴾ ([4]).

—

1- ينظر : الكشاف، للزمخشري (5/1)، و البحر المحيط ،أبو حيان الأندلسي ،18/1، 19.

[2]- البقرة: 204.

[3] – القراءة نسبت لابن عباس والحسن وابن محيصن وأبي حيوة ((معجم القراءات 1/ 156))، وينظر: تفسير القرطبي (3/ 25).

[4]- الكهف: 17 .

وقوله تعالى حكاية عن المجرمين يوم القيامة ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ المجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسَهُم عِنْدَ رَبِّهِم﴾ ([200]).

هذا التعبير يرسم صورة حية لخزي المجرمين يوم القيامة ، فتمثيل الحال التي هم عليها تجعل العين تبصرهم ، والنفس تجيش بخواطرهم " ناكسوا رؤوسهم "كما أنه تعالى عبّر بلفظ " المجرمون" لتشمل كل مجرم ذكراً كان أم أنثى أبيض أو أحمر ، كبيراً أو صغيراً عالماً أو جاهلاً ..

وانظر إلى قوله تعالى:﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ ([201])

هنا عبّر عن المستقبل بالماضي لإفادة التحقيق والتأكيد، وكأنَّ الأمر تمَّ " نُفخ"" صعق"

حتى لا يبقى أي ريب أو شك في وقوع وحصول ووعد ووعيد الرحمان، ﴿ وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ، أَنْ أَفِيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الماءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُم اللهُ﴾ ([202])

قال صاحب التصوير الفني:" والتصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن ،وهو ليس حلية أسلوب ولا فلتة تقع حيثما اتفق ، إنما هو مذهب مقرّر وخطة موحدة و خصيصة شاملة، يتفنّن في استخدامها بطرائق شتى ، وفي أوضاع مختلفة، والتصوير في القرآن تصوير باللون بالحركة و بالتخييل ([203]).

---

[200] – السجدة : 12 .

[201] – الزمر : 68 .

[202] – الأعراف : 50 .

[203] – التصوير الفني في القرآن، السيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط16،(1423هـ، 2002م) ، ص: 37.

واعتماد القرآن على التصوير الفني في عرض الأحداث والوقائع يساهم بقسط وافر في اقتصاد اللغة ، فهو يبث الحياة في المعاني المجرّدة وفي مشاهد يوم القيامة و قصص الأمم الغابرة ، وينقلك إلى عالمه لترى وتسمع وتعيش المواقف كلّها بمشاعرك وأحاسيسك فترى الكفّار وغطرستهم وكبرياءهم وتمسكهم الشديد بدين آبائهم وأجدادهم و...

فالمشهد يجري أمامك وأهله يغدون ويروحون ، ويقولون ويتعجبون ويطلبون الطلبات المعجزة و يسخرون و... والأنبياء و الرسل يدعون بالحسنى ،فيُرَهِّبون تارة ويُرغِّبون أخرى ، وهذا يساعد كثيرا علىُ فهم المعنى لدى كل من يسمع أو يقرأ هذه المشاهد و تغني هذه الكلمات والجمل ذات الطابع التصويري عن الصورة المجردة، ولبيان ذلك نُعيد صياغة ما تصوِّره هذه الكلمات أو العبارات بألفاظ مجرّدة ،وعندها سترى الفرق واضحاً بين التعبير التصويري في القرآن والتعبير الثاني، فمثلاً:

النفور الشديد من دعوة الإيمان، إذا أردنا أن نعبّر عن هذا المعنى مجرّداً في الذهن يمكن أن نقول: إنهم ينفرون أشدّ النفرة من دعوة الإيمان فيتملّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون، ولمعن النظر في الأسلوب القرآني وهو يصوّر لنا هذا المعنى في الصورة الغريبة :﴿ فَمَا لَهُم عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُم حُمُرٌ مُسْتَنْفَرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾(1).

فتشترك مع الذهن حاسة النظر ومَلَكة الخيال وانفعال السخرية وشعور الجمال والسخرية من هؤلاء الذين يفرون كما تفر حمر الوحش من الأسد، لا لشيء إلاَّ لأنهم يُدْعَون إلى الإيمان، والجمال الذي يرتسم في حركة الصورة حينما يتملاّها الخيال في إطار من الطبيعة تشرد فيه الحمر يتبعها قسورة (2).

وكثيرا ما يستخدم الأسلوب القرآني المثل من أجل تقديم صورة شاملة لما يتحدث عنه والمثل السائر في كلام العرب كثيراً نظماً ونثراً وأفضله وأوجزهُ، وأحكمه أَصْدقه ما كان

منها في القرآن فقد ضمن الإعجاز، وانظر مثلا إلى هذا المثل الذي يصور عجز آلهة الكفار عن القيام بأدنى الأعمال وأبسطها، قال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الذِّينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَن يَّخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اِجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَّسْلُبْهُم الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمِطْلُوب﴾ (3).

ومعنى عجز الآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله يمكن أن يؤدى في عدّة تعبيرات ذهنية مجرّدة كأن يقول: إنَّ ما تعبدون من دون الله لأعجز عن خلق أحقر الأشياء فيصل المعنى إلى الذهن مجّرداً باهتاً ، لكن التعبير القرآني يشخص هذا المعنى ويبرزه في تلك الصور المتحركة المتتابعة"لن يخلقوا ذباباً " ولو اجتمعوا له" درجة أخرى "وإن يسلبهم ...منه" وهذه درجة ثالثة والاقتران بين" الطالب والمطلوب" هي الرابعة، إنه الضعف المزري الذي يثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين(4)

1- المدثر:49/.51

2- ينظر : مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ،ص: 145.

3- الحج : .73

4- مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ،ص: 145. ص: 154.

والصورة الفنية هنا هي الرابط بين قدسية الآلهة المزعومة حيث وُضعت في أذهان معتنقيها في أقدس صورة، والرابط بينها وبين مخلوق صغير حقير وهذه الجموع الضخمة من الآلهة مجتمعة وعاجزة ، ثم في الصورة مشهد آخر وهو أنَّهم عاجزون عن استرجاع ما يسلبه منهم هذا المخلوق الصغير، وفشلهم الذريع مع أتباعهم عن هذا الاستنفاذ، فأية آلهة هذه وأية عقول هذه التي تسمع المثل المضروب لهم ولا ترعوي عمّا هي فيه(1)

وانظر إلى قوله تعالى:﴿ كَمَثَلِ العَنْكَبُوت اتخذَتْ بَيْتاً وإنَّ أَوْهَنَ البُيُوتِ لَبَيْتُ العَنْكَبُوت﴾ (2)، وقوله تعالى:﴿فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ (3) ﴿فمثله كمثل صفوان﴾(4).

وضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منها : التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير وتقريب المراد للعقل ، وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ، من ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي ، والغائب بالشاهد"(5).

وروى صاحب الإتقان أن الأصبهاني قال: الأمثال تريك المتخيل في صورة المتحقق والمتوهم في معرض المتيقن والغائب كأنه مُشاهد ، وفي ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ..ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه وفي سائر كتبه الأمثال ، وفشت في كلام النبي- صلى الله عليه وسلم- وكلام الأنبياء والحكماء"(6).

الاقتصاد وضرب الأمثال في القرآن:

سوق الأمثال في صورة محسوسة يقرر في النفوس الوقائع ويبعث فيها عين الصَّواب فيتسرب إليها الزجر والوعيد في حالة العقاب، ويحدوها الأمل الوطيد، وتعلق بها أطيب
البشائر عند التنويه على فعل الثواب، ولذلك كان المثل القرآني من خير الوسائل على فهم البيان وإدراك متعلّقاته.

—

1- مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ، ص 154 .
2- العنكبوت
3- الأعراف : 176.
4- البقرة : 264 .
5- الإتقان في علوم القرآن ج3 /ص333 .
6- ينظر : الإتقان ج3/ ص334 .

قال الفخر الرازي: << والمقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب مالا يؤثره وصف الشيء في نفسه، وذلك لأنَّ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوع على ماهيته ويصير الحسُّ مطابقاً للعقل، ولذلك هو النهاية في الإيضاح >>(1).

وقال أيضاً : " ألا ترى أنَّ الترغيب إذا وقع في الإيمان مجرداً عن ضرب مثلٍ له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مُثِلَّ بالنور، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول كما يتأكد إذا مُثِّل بالظلمة، وإذا أُخبر بضعف أمرٍ ما مجرداً ،وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته عن الإخبار بضعفه مجرداً، ولهذا أكثر الله تعالى من ضرب الأمثال في كتابه وفي سائر كتبه"(2).

وعدّ ابن الأثير معرفة الأمثال في الرتبة الثالثة بعد معرفة علم العربية من النحو والتصريف ، وهو يتحدث عن آلات علم البيان وأدواته ومعرفة ما يحتاج إليه من اللغة فقال: << أما النوع الثالث: فهو معرفة أمثال العرب وأيامهم ومعرفة الوقائع التي وردت في حوادث خاصة بأقوام... وذلك أنّ العرب لم تضع الأمثال إلاّ لأسباب أوجبتها؛ وحوادث اقتضتها ؛فصار المثل المضروب لأمرٍ من الأمور عندهم كالعلامة التي يعرف بها الشيء وليس في كلامهم أوجز منها، ولا أشدّ اختصاراً >>(3).

وقال أيضاً <<فلمّا كانت الأمثال كالرموز والإشارات التي يُلَوَّحُ بها على المعاني تلويحاً صارت من أوجز الكلام، وأكثره اختصاراً>>(4) .

وانظر إلى قوله تعالى لما يتحدث عن نهاية الكون ، ثم محاسبة الناس على أعمالهم ودخول المحسنين الجنة والمسيئين النار ،ولذة أهل النعيم والترحيب بهم، وشقاء أهل العذاب وتبكيتهم ،كلّ ذلك يمكن أن يفهمها

الإنسان مجرّدة ؛ وهي حقائق لم تقع بعد، فالتعبير عنها بكلمات مجردة تنقل الفكرة إلى الذهن باهتة ، ولكن التعبير القرآني صوّر ذلك في

1- مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ، 1 /198 .
2- المصدر نفسه ، 198/1
3- المثل السائر ابن الأثير ، ج1،ص41 .
4- المصدر نفسه، ج1 ، ص: 41،42 .

مشهد حافل بديع ، فاسمع على قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الأَرْضُ جَمِيْعَا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَّامَةِ وَالسَّمَواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِيْنِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُون ﴾ (1).

إنه مشهد رائع يبدأ متحركاً يسير وئيداً حتى تهدأ الحركة ، ويسكن كلّ شيء ، ويخيم على الساحة جلال الصمت ورهينة الخشوع، ويبدأ المشهد بالأرض جميعاً في قبضة ذي الجلال ، وهاهي السماوات جميعاً مطويات بيمينه.(2)

إنها صورة يرتجف لها الحسّ ويعجز عن تصويرها الخيال ثم ها هي ذي الصيحة الأولى تنبعث فيصعق من يكون باقياً على ظهرها من الأحياء ولا نعلم كم مضى من الوقت حتى انبعثت الصيحة الثانية:" ﴿ونُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَواتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيامٌ يَنْظُرونَ﴾(3)، وفي غير ضجيج ولا عجيج تجتمع الخلائق: " وأشرقت الأرض بنور ربها "، أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض:" وجيء بالنبيئين والشهداء " وطوي كل خصام وجدال في هذا المشهد:" وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون "، وهاهم أهل النار يلجون جهنم في خضوع وذل ويعترفون و يحيبون الملك بالحق.

ثم هاهم أهل الجنة سائرون إلى منازلهم ليستقبلهم خزنتها بالسلام والثناء، وهاهي أصواتهم ترتفع بالحمد والدعاء ﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده ﴾ ثم يختم الشريط المصوّر بما يلقي في النفس من جلال ورهبة (4)

وهناك فن بلاغي له آخر له دور مهم في اقتصاد اللغة ، وهو الاستعارة والمجاز، وهذا الأخير يُعدُّ من الوسائل التي يوظفها التعبير القرآني في توصيف الأحداث والوقائع <<والعرب كثيراً ما تستعمل المجاز، وتعده من مفاخر كلامها فهو دليل الفصاحة>> (6).

—

1- الزمر:67 .
2- ينظر : مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ، ص.157
3- الزمر: 68.
4- مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم ، ص157.
5- العمدة : 224.

المجـاز:

تعدّ اللغة مؤسسة اقتصادية، وذلك أنّنا نتمكن بالقليل من الألفاظ،" أن نستحضر ما لا يحصر من المعاني التي لا يمكن ترويضها إلا بالألفاظ المتناهية عكس المعاني، وعلى هذا فإنّ أيّ معجمٍ في أيّ لغةٍ من اللغات مهما تضخّم، فإنّ ألفاظه ستُعَدّ في النهاية بالآلاف أو الملايين، لكن المعاني لا يمكن عدّها أو إحصاؤها"[204].

ومن هذا المنطلق يرى تمام حسّان: أن اللغات تضطر إلى توخّي الاقتصاد في مجال العلاقة بين اللفظ المعنى، فتلجأ إلى ترشيد استعمال المباني بإزاء ما نسب إليها من المعاني بنقل اللفظ من معناه الأصلي إلى معنى آخر، وهو ما يطلق عليه اسم المجاز والمقصود به (CATACHRÈSE"استعمال الكلمة في غير ما وضعت له في اصطلاح التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادته"[205].

والعرب تفعل ذلك أي تنقل الألفاظ من معانيها اللغوية إلى معانٍ أخرى، قصد التوسع في الاستعمال، للتعبير عن متطلبات الحياة المتعددة والمتجددة، وذلك يكون بوجود قرينة بين المعنى الحقيقي والمجازي حتى يفهم السامع أو القارئ المعنى على الوجه المقصود.

-1 الأصول، دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، تمام حسان، الهيئة المصرية، بدون طبعة، ص:200.
[205] – الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، ص: 394، وخزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجة الحموي، ص: 440.

والقرينة غالبا ما تكون معنوية، تحدّد من سياق الكلام، وقد تكون لفظية تحدّد المعنى المراد وذلك مثل الأمثلة التالية: "نقلهم لمفهوم البلاغة من بلوغ غاية المسير، إلى مفهوم الإيجاز المعجز الرصين، والمنطق الجيّد، ونقلوا مفهوم الفصاحة كميزة للّبن الذي أُزيل رغوه وبقي خالصه إلى مفهوم حُسن الكلام وجودته.

كما نقلوا أيضا مفهوم الشكّ من الوخز بشيء دقيق كالشوكة تؤلم الجسم، إلى مفهوم التردّد والحيرة، وعدم اليقين، ممّا يؤلم النفس والعقل، ونقلوا مفهوم الإبهام من الظلام الكثيف الذي لا يمكن فيه تمييز الأشياء إلى مفهوم الغموض واشتباه المقصود"[206].

والعلاقة التي تربط بين المعنى الحقيقي الذي استُخدم فيه اللفظ أصلا، والمعنى المجازي الجديد هي علاقة مشابهة.

أثر المجاز في الاقتصاد اللغوي:

للمجاز دور كبير في اقتصاد اللغة ومزية حاضرة، وذلك أنّنا نستطيع باستخدامه التعبير بكلمة أو كلمتين عن معانٍ عديدة ومختلفة، ومنه نقلّل من الجهد الذهني والفيزيولوجي أثناء التواصل فإذا أردنا مثلا أن نصف شخصا ما بكثرة العلم، وجودة الحفظ، وإلمامه الواسع بالعلوم والمعارف فإننا نلجأ إلى استخدام التعبير المجازي فنقول: هو بحر أو قاموس فالمتلقي يعرف مباشرة المتحدث عنه من خلال مفردة واحدة "بحر" بعيدا عن الشرح والتفصيل و التطويل، وهكذا مع قولنا "فلان أسد" إذا أردنا وصفه بالشجاعة والإقدام وهو" برق خاطف" إذا كان لا يضاهيه في السرعة أحد.

و إذا كانت ألفاظ أي لغة متناهية، و معانيها غير ذلك فإنه <<لا يمكن لأي لغة أن تقدّم لفظا منفصلا لكلّ معنى يَرِدُ على الخاطر، لأنّ الذاكرة الإنسانية ذات طاقة اختزانية معيّنة لا يمكنها استيعاب ما لا يقع تحت الحصر من الألفاظ، فإذا كان ذلك فلا بدّ من التوسع في استعمال اللفظ بأن نُجوّز به معناه الحقيقي الذي كان له بأصل الوضع ونستعمله بواسطة هذا "الجواز" أو "المجاز" في معنى آخر تطبيقا لفكرة الاقتصاد في الاستعمال اللغوي ، وأي اقتصاد أفضل من أن نعبّر بالقليل من الألفاظ عن الكثير من المعاني>>[207].

ومنه يمكن القول إن الألفاظ المجازية تسهّل الاتصال كثيرا لخفتها، كما يقرر الآمدي أنّ <<الفائدة في استعمال اللفظ المجازي دون الحقيقة لاختصاصه بالخفة على اللسان، أو لمساعدته على وزن الكلام نظما

---

[206] – ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية: أحمد شفيق الخطيب، دمشق، المجلد 75، ج3، ربيع الأول: (1421هـ، 2000م) ص:513.

[207] – ينظر: مقدمة التحقيق، الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، نح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، بدون طبعة، ص: 18.، والصناعتين لأبي هلال العسكري، ص: 268.

ونثرا، والمطابقة والمجانسة والسجع وقصد التعظيم، إلى غير ذلك من المقاصد المطلوبة في الكلام، كالمبالغة في المعنى أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ >> [208].

كما يتمكن من << إثبات الغرض المقصود في نفس السامع بالتخييل والتصوير حتى يكاد ينظر إليه عيانا، ألا ترى أن حقيقة قولنا: زيد أسد هي قولنا: زيد شجاع لكن الفرق بين القولين في التخييل والتصوير، وإثبات الغرض المقصود في نفس السامع، لأنّ قولنا زيد شجاع لا يتخيّل منه السامع سوى أنه رجل جريء مقدام، فإذا قلنا زيد أسد يخيّل عند ذلك صورة الأسد، وهيأته وما عنده من البطش والقوة، ودقّ الفرائس وهذا لا نزاع فيه >> [209].

وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم يوم حُنين "الآن حمي الوطيس" وهذا "لم يُسمع من أحد قبل رسول الله، ولو أتينا بمجاز غير ذلك في معناه فقلنا "استعرت الحرب" لما كان مؤدّيا من المعنى ما يؤديه حمي الوطيس، والفرق بينهما أنّ الوطيس هي التنور، وهو موطن الوقود ومجتمع النار، وذلك يخيل إلى السامع هناك صورة شبيهة بصورته في حميمها وتوقدّها، وهذا لا يوجد في قولنا استعرت الحرب، أو ما جرى مجراه"[210].

واستخدامه كوسيلة لتوسيع أوضاع اللغة يخدم العملية التواصلية أيّما خدمة بحيث نستطيع التعبير عن متطلبات الحياة التي لا تعرف الركود أو السكون، وما يظهر يوميا من معالم حضارية تجلت في المخترعات الحديثة، وتقنيات العلوم المختلفة، التي تطالعنا صباح مساء من العالم الصناعي.

إضافة إلى هذا أنه يعدّ <<وسيلة فنية لإثراء الدلالة، وتحقيق القوة التعبيرية على مستوى التركيب والنص >> [211].

كما تظهر قيمته الفنية أكثر في أثره الكبير على المتلقي، وذلك بما يثيره فيه من الانفعالات المناسبة، حتى أنه ليُغيِّر الطبائع والسجايا، فهو يفعل في النفوس ما يفعله السحر.

قال ابن الأثير: << وأعجب ما في العبارة المجازية، أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعي في بعض الأحوال حتى أنه ليسمح بها البخيل، ويشجع الجبان، ويحكم بها الطائش[*] المتسرع ويجد المخاطب بها عند

---

[208]- الإحكام في أصول الأحكام، تأليف سيف الدين أبي الحسن بن محمد الآمدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، ص: 41.

[209]- المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص: 78، 79.

[210]- المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص: 65.

[211]- البنية الدلالية، رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، سعد أبو الرضا، الإسكندرية، منشأة المعارف، بدون طبعة، ص: 183.

[*]- الطائش: المتسرع الذي لا يحكّم عقله في أموره.

سماعها نشوة كنشوة الخمر، حتى إذا قُطع عنه الكلام أفاق وندم ما كان منه من بذل مال، أو ترك عقوبة، أو إقدام على أمر مهول، وهذا السحر الحلال المستغني عن إلقاء العصا والحبال >> [212].

ففي قوله تعالى حكاية من موسى عليه السلام: ﴿ولّمَا سَكَتَ عَنْ مُوسى الغَضَب﴾[213].

في الآية تشبيه للغضب بالإنسان الذي يكون يتكلم ثم يسكت، قال أبو هلال العسكري: <<معناه ذهب، وسكت أبلغ لأنّ فيه دليلا على موقع العودة على الغضب إذا تُؤمّل الحال ونظر فيما يعود به عبادة العجل من الضرر في الدين، كما أنّ السّاكت يتوقع كلامه>>[214].

وفي قوله تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُه ﴾ (4) حقيقته بل نورد الحق على الباطل فيذهبه، والقذف أبلغ من الإيراد لأن فيه بيان شدة الوقع ، وفي شدة الوقع بيان القهر، وفي القهر ههنا بيان إزالة الباطل على جهة الحجة لا على جهة الشك والارتياب، والدمغ أشد من الإذهاب، لأن في الدمغ من شدة التأثير وقوة النكاية ما ليس في الإذهاب "(5)

والمتأمل في القرآن الكريم يرى أنّ مثل هذا كثير، وقد يجعل السّاكن متحرّكا والصّامت ناطقا والمحسوس ملموسا، وفي هذا اقتصاد في الخيال لأنّك ترى المتحدّث عنه ماثلا أمامك تشاهد أفعاله وحركاته، وتسمع أقواله،وتتحسس مشاعره ورغباته .

---

[212]– المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص: 79.

[213] – سورة الأعراف، الآية: 154.

[214] – الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص:116.

4– الأنبياء : 18 .

5– الصناعتين ، ص 244 .

الفصل الرابع: الاقتصاد اللغوي على المستوى التركيبي

- **المستوى النحوي:**
- **حركات الإعراب واقتصاد اللغة**
- **القواعد النحوية واقتصاد اللغة**
- **العدول**
- **النسبة**
- **الحذف**
- **أسبابه**
- **شروطه**
- **جمالية الحذف الفنية والبلاغية**
- **الإيجاز وأنواعه**
- **جمالية الإيجاز الفنية والبلاغية**

- **الإشارة**
- **الصمت**

الاقتصاد اللغوي في المستوى التركيبي

1- المستوى النحوي:

تُعدّ اللغة أساس الحياة الاجتماعية، أو ضرورة من أهم ضروراتها، لأنّها أساس لوجود التواصل في هذه الحياة، وعنصر مهم لتوطيد سبل التعايش فيها، فهي وسيلة الإنسان للتعبير عن حاجاته ورغباته وأحاسيسه ومواقفه، وطريقة إلى تصريف شؤون عيشه ،وإرضاء غريزة الاجتماع لديه.

وهي كذلك أداة هذا الإنسان للتخاطب مع الآخرين، والتفاهم وتبادل الآراء والمشاعر معهم، وطريقة إلى فهمهم وتحسس أذواقهم، وسبيله إلى معرفة مذاهبهم ووسائل التأثير فيهم، وإيجاد العلاقات وبناء الروابط وتحقيق سبل التعاون والتكافل معهم...[215].

لكنه ليس في مقدور اللغة تحقيق هذه الوظائف ما لم تكن خاضعة لنظام لغوي متعارف عليه بين الجماعة الناطقة بها، يضبط استعمالاتها ، وتراكيبها بما يتيحه من فرص التفاهم بمعنى أن تصاغ الأساليب وتستعمل الألفاظ وتبنى التراكيب وفق نسق معيّن يضمن تحقيق وظائف اللغة.

---

[215]- الحصيلة اللغوية، أحمد معتوق، ص: 35.

ومن هنا << لابدّ من حسن استخدام هذه الألفاظ على نحو ما؛ وفق طُرق معيّنة لاستغلال إمكانية اللغة في التعبير عن شتى المعاني في أساليب مختلفة حسبما يقتضيه المقام والظروف>>[216]، وإلا كانت اللغة ضربا من الفوضى لا ضابط لها، وذلك أنّ اللغة كما يرى علماء التربية وعلماء النفس مرتبطة بالفكر، وفي مقدمتهم كيسلر فهو لا يستبعد أن يكون <<التفكير سوى حركات لاشعورية للأحبال الصوتية، وإنه نوع من الهمس غير المسموع الذي يدور بين المرء ونفسه>>[217].

وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني أثناء حديثه عمّا سمّاه بـ (النظم بحسب المعاني) فبعد أن ميّز بين نظم الحروف وتواليها في النطق، خلص إلى القول:<<وأما نظم الكلام ليس الأمر كذلك لأنك تقتضي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذا نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق>>[1].

وفي هذا –كما نلاحظ– تلميح إلى العقل الذي ما فتئ أن عبر عنه تصريحا قوله: <<والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلام أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها على الوجه الذي اقتضاه العقل>>[2].

والمقصود بالنظم كما هو واضح أن تخضع اللغة إلى قواعد وقوانين تضبط استعمالاتها وما هذه القواعد إلا علم النحو الذي يحدد طريقة اللغة في تأدية المعنى وإدراكه.

والنحو كما عرّفه ابن جني هو<< انتحاء سمت كلام العرب في تصريفه من إعراب وغيره ليلحق مَنْ ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة؛ فينطق بها، وإن لم يكن منهم وإن شّذّ بعضهم عنها رُدّ به إليها >>[3].

أ– حركات الإعراب واقتصاد اللغة:

إذا ما عدنا إلى المراحل الأولى لعلم النحو العربي نجد أنّ أول عمل قام به علماء العربية هو ضبط المصحف الشريف بالشكل، وذلك لعلمهم بأنّ الكلام بدون حركات صعب فهمه فهو كلام منفتح الدلالة، قابل لتعدد المعاني حتى تكون الحركات هي التي توضّح معناه، والحركات الإعرابية في الكلام بمثابة المفاتيح التي تفضّ الأقفال الموصدة، قال أحمد بن فارس:<<من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب الإعراب الذي هو الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما مُيِّزَ فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت، ولا تعجب من استفهام، ولا نعت من تأكيد>>(4).

---

[216]– خصائص العربية، أحمد شامية، ص: 66.

[217]– الحصيلة اللغوية، أحمد معتوق، ص: 36.

ومن هذا يمكن أن نقول إن الحركات الإعرابية هي دوال على معان دخلت لأداء وظيفة أساسية في اللغة؛ إذ بها يتضح المعنى ويظهر، قال الزجاجي:<<إنّ الأسماء لما كانت تَعْتَوِرُها

1- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: .65

2- المصدر نفسه، ص: 65.

3- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 35.

4- الصاحبي ، أحمد بن فارس ،ص 76 .

المعاني، فتكون فاعلة ومفعولة، ومضافة، ومضافا إليها، ولم تكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، بل كانت مشتركة، جُعلت حركات الإعراب فيها تنبئ عن هذه المعاني

فقالوا ضربَ زيدُ عمرا، فدلُّوا برفع زيد على أنّ الفعل له، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به، وقالوا ضُرِبَ زيدُ، فدلُّوا بتغيير أول الفعل ورفع زيد، على أنّ الفعل ما لم يسم فاعله، وأنّ المفعول قد ناب منابه، وقالوا هذا غلام زيدِ، فدلُّوا بخفض زيد على إضافة الغلام إليه، وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتَّسعوا في كلامهم ...>>(1).

فحركات الإعراب ضرب من ضروب الاقتصاد و الإيجاز والاختصار،<< وهي لغة ثانية نضيفها إلى لغتنا الأولى التي هي الألفاظ، فإذا نحن أمام ثروة لغوية لا نفاذ لها، وإذا كانت بعض اللغات مجبرة على أن تبتدع لكل معنى من المعاني لفظا خاصا به فإن العربية تستغني عن الكثير من الألفاظ بتلك الحركات التي تضعها على الألفاظ>>(2).

وهي تخصص المعاني، وتُعيِّن الأغراض بأيسر السبل وذلك كقولهم :

ما أحسنَ زيداً إذا أرادوا التعجب من جنسه، وما أحسنُ زيدٍ إن أرادوا الاستفهام عن أحسن ما فيه، وما أحسنَ زيدُ إذا أرادوا نفي الإحسان عنه . ومنها

حركات التصريف كقولهم :مِفْتَح لآلة الفتح و مَفْتَح لموضع الفتح .

ومنها حركات الفروق التي تُنّوع المعاني كقولهم: الإدْلاج لسير أول الليل .

والإدِّلاج لسير آخر الليل.. ومن هذا الباب قولهم رَجُلٌ لُعْنَةُ وضُحْكَةِ إذا كان يُلْعَنُ كثيراً ويُضْحَكُ منه،و رجلُ لُعَنة وضُحَكة إذا كان هو كثير اللَّعن والضَّحك"(3) .

وبفضل هذه الحركات يمكن للمتكلم التقديم والتأخير في عناصر الجملة فيعرف الفاعل من المفعول والمضاف من المضاف إليه ،وتظهر أهميتها بشكل كبير في القرآن الكريم فهناك آيات كثيرة لا يفهم معناها إلا بعد ضبطها بالشكل،من ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِذْ اِبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَات﴾(4).

—

1- الإيضاح في علل النحو ، لأبي القاسم الزجاجي (ت 337هـ) ، ص 69 .

2- نحو وعي لغوي ، مازن المبارك، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ، ط1، (1390هـ، 1970م)، ص 77.

3- ينظر: تاريخ آداب العرب ، الرافعي، ج1، ص: 187.

4- البقرة : 124 .

وقوله:﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ (1)،وقوله تعالى:﴿إِذَحَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ ﴾(2)

ب- القواعد النحوية واقتصاد اللغة:

بعد ضَبْطِ المصحف الشريف بالشكل من طرف أبي الأسود الدؤلي واصل علماء العربية مسيرتهم العلمية في التقعيد النحوي، فتوصلوا إلى أنّ ثمة قواعد أصلية وقواعد فرعية، وهذه القواعد كما هو معلوم صيغت بعد جمع اللغة وترتيبها، وملاحظتها ملاحظة علمية دقيقة.

فتبيّن للنّحاة آنذاك أنّ الفاعل مثلا يكون دائما مرفوعا، ويأتي بعد الفعل مباشرة والمفعول به منصوبا ورتبته بعد الفاعل، وهكذا مع جميع العناصر المكوّنة للجملة ،سواء كانت أسماء أو أفعالا أو حروفا، أصولا أو فروعا .

فأظهرت هذه الاستنتاجات الأولى القواعد الأصلية التي تنتظم وفقها عناصر الجملة في سياق موحّد، ومنه اتخذت على أنها أسس أصلية لنظام لغة العرب، لا يجوز الخروج عنها أو مخالفتها، لكن ذلك كان يتعارض أحيانا مع الذوق العربي الذي يميل ويحبذ ما خفّ نطقه من الألفاظ، وينفر مما هو ثقيل على اللسان.

فكان ذلك دافعا لصياغة قواعد فرعية مناسبة لأذواقهم ومخالفة للقواعد الأصلية واعتبروا ذلك استثناءاً، فصاغوا قاعدتهم المشهورة التي قالوا فيها:" لكل قاعدة استثناء" وهذا ما يجعلنا نقول إنّ <<الاقتصاد كان

حاضرا في أذهان النحاة وهم يحلّلون كلام العرب ويضعون المقاييس والضوابط، ويفسّرون الظواهر الاقتصادية في التركيب، وهو ما عبّروا عنه بالتخفيف>>[3].

ولا تقتصر قضية الهروب من الثقل إلى الخفة عل الأحكام الصرفية فحسب<<بل تجاوز ذلك إلى الأحكام النحوية من صوّر التأليف التي يحسُّ الإنسانُ بِنُبُوِّهَا على لسانه فيحكم بأنها غير مستساغة>>[4].

1- فاطر : 28 .

2- البقرة : 133 .

3- الاقتصاد اللغوي، فخر الدين قباوة، ص: .40

4- ينظر: القياس في النحو، منى إلياس، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، (1985)، ص: 49.

وهذه القواعد الفرعية المخالفة للقواعد الأصلية هو ما أطلق عليه العدول عن الأصل يقول ابن جني:<<والعدول عن المستثقل هو أصل الأصول في الحديث>> [1].

ج- العدول:

حتى يتسنى لنا فهم معنى مصطلح العدول لابد لنا أن نعرف <<أن أصل وضع الحرف بني على فكرة تذوق الحرف كما حدّدها النّحاة>>[2].

ويكون تذوق الحرف من حيث المخارج والصفات،<< فمثلا التذوق كان يتم بإسكان الحرف بعد همزة مكسورة، وهناك ذوق وعرف لغوي عند العرب جعلهم يكرهون توالي الأمثال، ويألفون توالي الأشتات، فإذا توالى مثلان أو متقاربان كرهت العرب تواليهما ومن ثم عدلوا عن أصل أحدهما، ومالوا به إلى مخرج آخر أو بعض صفاته.

فمالوا بالنطق إلى الإدغام أو الإخفاء أو غير ذلك، وهذا هو معنى العدول أي الخروج والميل عن القاعدة الأصلية إلى قاعدة فرعية وثانوية ،وعلة ذلك هو الذوق>> [3].

وهنا نرى أن الذوق عند العرب يمثل قاعدة أساسية لا يجوز الخروج عنها أو مخالفتها فقد تكون هناك قاعدة أصلية صوتية أو صرفية أو نحوية، لكنه يتم الخروج عنها إلى غيرها إذا تعارضت مع الذوق، فإذا استثقل النطق في التتابع الصوتي لكلمة ما عُدل بالكلمة عن الأصل إلى الفرع بحسب قاعدة تصريفية معيّنة كالإعلال والإبدال أو النقل أو الحذف .

فالأصل فكّ الإدغام ولكن توالي المثلين أدّى إلى إيجاد قواعد فرعية له، والأصل في الكلام ذكر جميع عناصر الجملة – اسمية كانت أو فعلية– وقد يحذف منها عنصر أو أكثر إذا أُمن اللبس، والأصل أن تذكر ياء المتكلّم عند الإضافة لكنها تحذف أحيانا لكثرة الاستعمال ، والأصل أن تذكر حروف الجر وحروف القسم في مواضعها إلاّ أنّه قد يحذف حرف القسم الجارّ كما في قول العرب " الله لأفعلنّ " قال سيبويه:<< جاز حيث كثر في كلامهم فحذفوه تخفيفا >>(4) .

1- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 162.

2- الأصول دراسة ابستمولوجية، تمام حسان، ص: .135

3 - ينظر: الأصول، تمام حسان، ص: .135

4 - الكتاب 3ج، 499.

والأصل أن تبدأ الكلمة (من حيث نظام اللغة) بالساكن في بعض الحالات، ويعدل عن الأصل بقاعدة التوصّل (جعل همزة الوصل في أول الساكن ليسهل التلفظ به) وهذا هو الحال مع مختلف الظواهر اللغوية.

ومن أمثلة العدول عن الثقيل أيضا تحريك إحدى الساكنين عند التقائهما نحو: اردُدِ الباب واصببِ الماء، واكتبِ الدرس، فالأصل في فعل الأمر البناء على السكون؛ لكن لما تلاه اسم مبدوء بساكن تخلينا عن القاعدة الأصلية، وانتقلنا إلى قاعدة فرعية هروبا مما هو ثقيل على اللسان، وطلبا للخفّة،<< ومعنى هذا أنّ الاقتصاد في جهد المتكلِّم أدّى إلى العدول>> (1).

ونظير ذلك النسب إلى قبيلة طيء ،قال صاحب اللباب في علل البناء والإعراب: << وما شذّ في النسب يحفظ ولا يقاس عليه فمن ذلك قولهم: طائي وأصله طيئي لأنّ المنسوب إليه طيء، فحذفت الياء الثانية وأبدلت الساكنة ألفا، وكأنهم هربوا من الأصل لما فيه الثقل بكثرة الياءات>>(2).

والمتأمل في ألفية ابن مالك يجد أن بعض الأبيات يشتمل صدرها على قاعدة أصلية وعجزها على قاعدة فرعية مُستثناه أو مُستدرك عليها مثل قوله في المبتدأ (3):

وَلَا يَكُونُ اِسْمُ زَمَانِ خَبَرَا **** عَنْ جُثَّةٍ، وَإِنْ يُفِدْ فَأَخْبِرَا

وَلَا يَجُوزُ الاِبْتَدا بِالنَّكِرَه **** مَا لَمْ تُفِدْ كَ عِنْدَ زَيْدٍ نَمِرَه

وقوله في الحال:

وَلَا تُجِزْ حَالًا مِنَ المضَافِ لَه **** إِلَّا إِذَا اِقْتَضَى المضَافُ عَمَلَه

أَوْ كَانَ جُزْءَ مَالَهُ أُضِيفَا **** أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلَا تَحِيفَا

و هذه القواعد هي قواعد مطَّردة، إلاَّ أنَّه متى تعارضت مع الذوق العربي نخرج عنها إلى غيرها.

1- الأصول ، ص135 .

2- اللباب في علل البناء والاعراب، أبو البقاء بن الحسين بن عبد الله (ت616هـ)، تحقيق: غازي مختار طليمات، دار الفكر، دمشق، (1995م)، ط1، ج2، ص: 153.

3- ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ابن مالك الأندلسي، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1: (2000م)، ص: 26، 60.

وبعد كل هذا يظهر أن هذه القواعد الفرعية ما جاء بها النحاة إلا تحت ضغط الحاجة والضرورة رغبة في تقليل الجهد وتخفيف وتيسير مؤونة النطق ببعض الحروف أو الكلمات المتجاورة أو المتباعدة أو المتنافرة، وعليه يمكن القول إن التخفيف والاقتصاد في جهد المتكلم هما السبب في العدول، قال أبو البقاء العكبري:<< إنما الغرض العدول عن أصل إلى ما هو أخفّ منه، والخفة تحصل بمخالفة الموضع، لأنّ الحرف قد يثقل بموضعه فإذا أُزيل عنه حصل التخفيف>>[1].

واعتبر تمام حسّان أنّ طلب الخفة في المبنى أحد ثوابت النحو العربي فقال:<< وثوابت النحو العربي أمور ثلاثة:أمن اللبس في المعنى ،و طلب الخفة في المبنى ،والطرد أو الاطراد>>(2)

كما طغت فكرة الخفة والثقل على تعليلات النحاة، فكثيرا ما نجدهم يذكرون علة التخفيف و علة الاستغناء وعلة الاستثقال، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الواسطي الضرير في شرح اللمع لما تحدث عما يدخله الرفع والنصب والجر والجزم فقال:<< والجزم يدخل الأفعال، ولا يدخل الأسماء، وإنما لم يدخل عليها لخفتها >>(3) .

فكأن الأسماء لخفتها آثروا أن تبقى على حالها ولو دخلها الجزم لأخرجها من الحال التي هي عليه إلى حال ربما تكون أثقل، وفي تعليله بناء الفعل الماضي على الفتح قال:<< وأما الفعل الماضي فبني على الفتح لأنه أخف الحركات >>(4).

وفي تعليله لرفع الفاعل قال:<<رفع (أي الفاعل) لأنه واحد و المفعولات كثيرة فأُعطي القليلَ الأثقلَ وهي الضمة، وأُعطي الكثيرَ الأخفَ وهي الفتحة >>(5).

وهو الأمر الذي يُوضّح أكثر أنّ فكرة الاقتصاد اللغوي هي نزعة عربية قديمة تجسدت في أحاديث العرب وخطاباتهم المنظوم منها والمنثور، وهذه الرغبة الملحة أثبتت وجودها في النظام اللغوي العربي على شكل قواعد فرعية وفي كل مستوياته.

1- مسائل خلافية في النحو، أبي البقاء العكبري، تحقيق: محمد خير حلواني، دار النشر العربي، بيروت، ط1 (1992م)، ص: 64.

2- الخلاصة النحوية ، تمام حسان ، ط1،(1420هـ /2000م) عالم الكتب ، ص 15.

3- شرح اللمع في النحو ، تأليف: القاسم بن محمد بن مباشر الواسطي الضرير، تح: د/ رجب عثمان محمد تصدير: د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ، ط1، (1420هـ/2000م) ،ص:09.

4- شرح اللمع في النحو، ص: 12.

5- شرح اللمع في النحو، ص :35 .

2- المستوى الصرفي:

اللغة كغيرها من الكائنات الحية قابلة للموت والزوال ما لم تكن تحمل في طياتها وسائل وسبل نمائها وتطورها، حيث تمدها بالدوام والبقاء، وللعربية من الطرائق والوسائل ما يكفل لها البقاء والخلود والقدرة على مسايرة الركب الحضاري، ومن ذلك القياس والقلب، والإبدال، والاقتراض والاشتقاق.

أ- الاشتقاق:

يقوم الاشتقاق على توليد ألفاظ جديدة للتعبير عن معاني جديدة، وعليه فهو<< نوع من التوسع في اللغة، يحتاج إليه الكاتب، وتلجأ إليه المجامع اللغوية للتعبير عمّا يُستحدث من معان، مما يساعد اللغة على مسايرة التطور الاجتماعي>>[1].

وقد تنبّه القدامى إلى ظاهرة الاشتقاق منذ بداية التأسيس للدرس اللغوي، واشترطوا لصحّته أن يكون مبنيا على جذور، أو موارد تعتبر الأصل في كل اشتقاق، ومن هنا فهو عندهم<< استخراج لفظ من آخر متفق معه في المعنى والحروف الأصلية>> [2].

أنواعه :

1- الاشتقاق الكبير:

يقوم هذا النوع على تقليب حروف المادة الأصلية للفظ، مع إعادة ترتيبها بشكل رياضي، وهناك معنى عام مشترك بين هذه التقليبات، يقول ابن جني:<< الاشتقاق عندي على ضربين:كبير وصغير، فالصغير ما في يد الناس وكتبهم، كأن تأخذ أصلا من الأصول فتقرأه فتجمع بين معانيه، وإن اختلفت صيّغه ومبانيه، وذلك كتركيب، "س ل م" فإنّك تأخذ منه معنى: السلامة والسليم(اللديغ) ، أطلق عليه تفاؤلا بالسلامة، وعلى ذلك بقية الباب إذا تأولته، وبقية الأصول غيره كتركيب "ض ر ب" و "ج ل س" على ما في أيدي الناس من ذلك فهذا هو الاشتقاق الأصغر>> [3].

1- طرائق نمو اللغة، إبراهيم أنيس، ص: .47

2- طرائق نمو اللغة، إبراهيم أنيس، ص: 57.

3 - الخصائص، ابن جني، ج2، ص:136 .

2- الاشتقاق الأكبر فهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحداً تتجمّع فيه التراكيب الستة، وما يتصرف من كل منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدّ بِلُطف الصنعة والتأويل إليه، كما يفعل الاشتقاقيون ذلك في التركيب الواحد نحو: "ك ل م" و"ك م ل" "م ك ل" "م ل ك " "ل ك م" "ل م ك" وكذلك قَوَلَ وغيرها [1].

وتظهر أهمية الاشتقاق بكل أنواعه أنّه يثري اللغة بالمفردات والمصطلحات،ويجعلها ذات قدرة كبيرة على الإنتاجية والوفرة، فمن الجذر الواحد نشتق عدداً كبيراً من المشتقات ،وباستخدام الوجيز من الكلام نوصل إلى السامع الكثير من المعاني، ولغة القرآن الكريم تمتاز باختصار شديد، فالمشتق الواحد يجمع في طياته دلالات متعددة، ويغني عن عدة ألفاظ فاسم الفاعل مثلا: "عالم" تجد في مضمونه الدلالة على إنسان يقوم بوظيفة العلم، ومبالغة اسم الفاعل:"عليم"، تُعطيك صفة عن تناهي في مراتب الإحاطة بالعلوم واسم المفعول: "معلوم"، يتضمّن معاني الشيء الذي جرى فيه العلم، واسم التفضيل: " أعلم"، يدل على مَنْ هو أكثر علما من غيره، وصيغة: " مَعْلَم"، تُقدِّم لك المكان والزمان الذي يكون فيه" العلم" (2).

وقس على ذلك بقية الصيغ والمشتقات تجد في تلك الصيغ المحدودة طاقات دلالية هائلة و هو الأمر الذي يمكّننا من الاقتصاد في اللغة، والتقليل من الجهد الذهني و الفيزيولوجي.

ب- النِّسبة:

النِّسبة عند الصرفيين هي زيادة ياء مشدّدة في آخر الاسم(3)، ذلك أنّ الاسم يدُّل على معنى مفرد لا يزيد عليه شيئاً كـ "محمد وفاطمة "وغيرها من سائر الأسماء ولا يدُّل واحدٍ منها إلاّ على مسَّماه، أي على الشيء الذي سُمِّي به، ولو زدنا في آخر الاسم ياء مشدّدة قبلها كسرة قلنا :" محمدي، فاطمي".

فشيئاً من هذه الزيادة اللفظية الصغيرة زيادة معنوية كبيرة إذ يصير اللفظ بصورته الجديدة مركباً من الاسم الذي يدّل على مسمّاه ،ومن الياء المشدّدة التي تدلُّ على أنَّ شيئاً

1- الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 136.

2- ينظر : الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ، ص 92 .

3- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ،ص 268 .

منسوباً لذلك الاسم أي: مرتبطاً به بنوع من الارتباط يصل بينهما كقرابة أو صداقة .. أو غيرها هذا من أنواع الروابط والصلات (1).

ولقد استعمل سيبويه مصطلح الإضافة للتعبير عن مفهوم النسبة في الأسماء، و هي نوع من الصفة المضافة إلى ما ينسب إليه من أسماء الأعيان والبلدان وغيرها :<< ويشبه الاسم المنسوب صيغة مزدوجة تتكون من عنصرين هما :المضاف والمضاف إليه ،أي المنسوب إليه والنسبة، ويختصر الكلام بواسطة هذا الصنف الاسمي تركيباً يقوم على معنى شيء

منسوب إلى كذا وكذا، فيقول مثلاً تميمي عوض رجل منسوب إلى تميم .

ويقتضي هذا المدلول اختلافاً لفظياً يتمثل في اقتران الاسم بعلامة تلحق طرفاً يتعين بها المعنى المقصود وهذه اللاحقة المفضية إلى الزيادة الدلالية هي ياء مشدّدة ينقل بفضلها الاسم من صنف إلى صنف آخر كنقل الاسم المحض إلى مجال الصفات أو نقل الاسم العلم إلى ما يشبه اسم الجنس>>(2).

وعلى هذا كل من يسمع مثلاً لفظ: محمدي يفهم مباشرة أمرين معاً هما محمد الدَّال على مسمى، وشيء آخر منسوب إليه أي متصل به بطريقة الاتصال كالقرابة أو الصداقة أو التعلم أو غيرها ...ومن

أمثلة ما وردت فيه النسبة في التنزيل العزيز قوله تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَآعْجَمِيٌّ وَعَرَبِي﴾(3) وقال أيضا :﴿ قَالَ هُم أُوْلَاءِ عَلى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾(4)، وقال أيضا:﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُم رَبُّكُم وَعْدًا حَسَنًا أَفطَالَ عَلَيْكُم العَهْدُ أَمْ أَرَدْتُم أَن يَّحِلَّ عَلَيْكُم غَضَبٌ مِنَ رَّبِّكُم فَأَخْلَفْتُم مَّوعِدِي ﴾(5).

1- أثر علوم اللغة في نقد المغاربة القدامى، د/ أمحمد داود، رسالة دكتوراه، جامعة وهران السانية ،(2011 م/2012م)، ص: 191.

2- المنصف عاشور : ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، ص: 160، (في مقولة الاسمية بين النقصان والتمام) منشورات كلية الآداب منوية ، تونس، ط2، (2004 م).

3- فصلت : 44 .

4- طه : 84 .

5- طه :86 .

وقال أيضا:﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ (1)، و السامري " قيل اسمه موسى بن ظفر وقيل منجا وهو ابن خالة موسى أو ابن عمه أو عظيم من بني إسرائيل من قبيلة تعرف بالسّامرة ..."(2)، وقال تعالى:﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًا وَلَا نَصْرَانِيًا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشْرِكِينَ ﴾ (3).

ج- الحذف :

الأصل في كلام العرب هو ذكر ركني الجملة الأساسيين بالتمام لغرض الإفهام، واستيفاء المعنى حقه لكن طبيعة التعبير الأدبي الذي يجاوز المعنى الأولي الوضعي إلى معان أخرى إضافية يقتضي أحيانا التغيير في هذا الحكم إمَا بالحذف، أو التقديم والتأخير في عناصر الجمل، أو التعريف والتنكير، إلى غير ذلك من أنواع التبديل التي تعتري أساليب العربية وما يهمُّنا في هذا الصدد هو الحذف في الكلام الذي سنتطرق إلى معناه وبسط نماذج منه وما يحمله من دلالات ومعان بلاغية، وما يحققه من نتائج إيجابية للعملية التواصلية والحذف في اللغة الإسقاط(*) ومنه حذفت الشعر إذا أخذت منه .

واصطلاحا: هو إسقاط جزء الكلام أو كله لدليل[4].

وقد قال عنه الجرجاني:<< هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن..>> [5].

وهو ضربان:

1- طه :95 .

2- تفسير البحر المحيط ،لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت745هـ) دراسة وتحقيق وتعليق :الشيخ أحمد عبد الوجود وآخرون ،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ط1 ، (1413هـ 1993م)، ج6،ص248 .

3- آل عمران: 67 .

(*)– كما عرفه دي بوجراندروبرت: في كتابه النص والخطاب والإجراء، بأنه "استبعاد العبارات السطحية التي يمكن لمحتواها المفهومي أن يقوم في الذهن، أو أن يوسع أو أن يعدل العبارات الناقصة" دي بوجراند، النص والخطاب والإجراء، ترجمة: تمام حسان، عالم الكتاب، القاهرة، ط: 1؛ (1418هـ، 1998م)، ص: 301.

4 – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، المجلد 3، ط: 03، ص: .102

5- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني: طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة رغاية، الجزائر، (1991م)، ص: 149.

1- ضرب يظهر فيه المحذوف عند الإعراب نحو: أهلا وسهلا أي جئت أهلا.

2- ضرب لا يظهر فيه المحذوف إلا بتصفح المعنى نحو: فلان يحل ويعقد، أي الأمور[1].

وهذه الظاهرة شائعة في لغة العرب، وهي<< ذات اتصال وثيق بالبلاغة حيث إن الكلام أو القول البليغ هو معان عديدة بلفظ قليل>> [2].

والذي يزيد هذه الظاهرة أهمية ويكسوها جمالا، هو استساغة العربية لها وميلها وشغفها بها خاصة في المواضع المحتاج فيها لها، لما فيه من صور فنية بديعة ورائعة، كالتخفيف والإيجاز والاختصار و...إلخ.

ولعل تلك الصوّر الفنية البديعة الموجودة في الحذف هي ما دفعت ابن جني إلى تسميته بـ"شجاعة العربية " في كتابه الخصائص.

1- أسباب الحذف:

نحاول في هذا العنصر حصر ما أشار إليه القدماء من أسباب الحذف في اللغة، وهي أسباب حاول بها النحاة تفسير الظاهرة في مواضعها وأنواعها المختلفة، وهذه الأسباب ليست عللا عقلية بعيدة عن الواقع اللغوي، وإنما هي أحكام ونتائج استخلصوها من بحثهم، واستقرائهم المباشر للغة، ومن معرفتهم بخصائصها.

ولست أذكر الحذف وأسبابه وأغراضه، إلا لأنه مظهر وآلية بارزة من آليات الاقتصاد في اللغة ، ويتضح أثره جليا في العملية التواصلية، من خلال أسبابه التي منها:

أ- كثرة الاستعمال:حينما يكثر استعمالنا لكلمة أو جملة معيّنة أو تركيب ما من التراكيب فإننا نجد الناطقين يحاولون التخلص من بعض أجزائها تخفيفا من استطالتها بشرط ألا يؤدي هذا الحذف والبتر إلى لبس،<< فالكلمة إذا كثر استعمالها جاز فيها من التخفيف ما لم يجز في غيرها >>(3).

وسيبويه يفسر بهذه الظاهرة، ويعلل أنواعا مختلفة من الحذف، ومن أمثلة الحذف لكثرة

---

[1] – علوم البلاغة "البيان والمعاني والبديع"، مصطفى المراغي، ص: 35.

[2] – ينظر: العقد الفريد، تأليف: الفقيه أحمد بن محمد ن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، المجلد 2، تحقيق: محمد سعيد العريان، دار الفكر، ص: 106.

[3] – الأشباه والنظائر للسيوطي ج1 ، ص274.

الاستعمال قوله تعالى على لسان هارون- عليه السلام-:﴿ يَا ابْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي﴾[1] حذفت الياء لكثرة الاستعمال، ولم تحذف في يا ابن أبي لقلة الاستعمال، وكذلك حذف نون المضارعة "يكن" يقول سيبويه: "وغيَّروا هذا لأنّ الشيء إذا كثر في كلامهم كان له نحو ليس لغيره مما هو مثله، ألا ترى أنّك تقول: "لم أك ولا تقل لم أقُ" [2].

وقال ابن الأنباري : في معرض الرد على الكوفيين: الحذف يختص بما يكثر في الاستعمال ألا ترى أنهم قالوا في "لم يكن" (لم يَكُ) ، فحذفوا النون لكثرة الاستعمال، ولم يقولوا في "لم يَصُن" (لم يَصُ)، ولا في "لم يهن" (لم يه) ، لأنه لم يكثر استعماله ، وقالوا في "لم أبالِ" (لم أَبلُ) ،فحذفوا لكثرة الاستعمال، ولم يقولوا في "لم أوال" (لم أُوَل) ولا في "لم أعالِ" (لم أعل)، لأنه لم يكثر استعماله.

وكذلك قالوا في " أيِّ شيء"(أيش) لكثرة الاستعمال وقالوا (عِمْ صباحاً) في" انِعمْ صباحاً" لكثرته ولم يقولوا (عِمْ بالاً) في " أنعم بالاً" لقلته ،وقالوا (ويْلُمِّهِ) ،في " ويل أمِّه" لكثرته ، ولم يقولوا (ويلُخْتِهِ) في " ويل أخته" لقلته (3).

ومن خصائص اللغة العربية مقارنة باللغات<< حذف ما يدل على فعل الكينونة فعلا واسما، وهذه الكينونة يطرد حذفها في كل تعبير عربي أي كان موقعها، ولذلك يحذف خبر "لا" النافية للجنس إذا أريد مجرد الوجود، فقولنا لا بأس، الخبر محذوف تقديره موجود، وحذف خبرها هنا وجوبا>>[4].

كما تشير الدراسات الصوتية الحديثة << إلى أن القطعة النهائية من الكلمة خائرة القوى وأنها كثيرا ما تتعرض للتغير والحذف>>[5].

---

1 – طه: 94.

2 – الكتاب، سيبويه، تحقيق: الأستاذ عبد السلام محمد هارون، القاهرة، (1996م)، ج2، ص: 196.

3– الإنصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، لأبي البركات بن الأنبا ري (ت566هـ) تح: ودراسة: الدكتور جودة مبروك محمد مبروك، راجعه الدكتور رمضان عبد التواب ، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة ط1، (2002م)، ص424 ، وينظر: المقتضب للمبرد 3/ 167، تح: محمد عبد الخالق عضيمة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة، (1392هـ/ 1972م).

و شرح الأشموني على ألفية ابن مالك 1/ 200، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة، بلا تاريخ.

4 – ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حموده ،الإسكندرية، مصر، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بدون تاريخ،ص: 33

5 – علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي: محمود السعران، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: 02، (1997م)، ص: 313.

ونفس الملاحظة قد أشار إليها العلامة ابن جني في الخصائص حينما "ذكر أن الأطراف معرضة للإجحاف والحذف" [1].

والألفاظ إذا كثر ترددها ودوراتها على الألسن تجنح نحو الاختصار فتحذف بعض أجزائها لأن المتحدث العادي<< يريد التحدث بسرعة حتى لا يتوقف بين العبارات طويلا، فينقطع حبل الاتصال بينه وبين السامع من جهة، وحتى لا يدع مجالا لمقاطعته من جهة ثانية، ويوفر جهدا يستخدمه في العبير عن أفكار جديدة>> [2].

كما تعتبر سرعة النطق في مختلف المجالات يوميا سبب من أسباب تطور الأصوات في اللغة، ومن أسباب الحذف أيضا:

ب- طول الكلام:

يعكس حديث النحاة والبلاغيين عن تعليل الحذف في بعض المواضع، ومثاله قوله تعالى:﴿وَإِذَا قِيْلَ لَهُمْ اِتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُم لَعَلَّكُم تُرْحَمُون ﴾(3).

فالجواب لم يذكر وتقديره أعرضوا [4]، وقوله أيضا:﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُم لَهُو خَيْرٌ لِلصَّابِرِين ﴾[5]، أي بمثل ما عاقبكم به المعتدي، ولمّا كان في كلام العرب قرينة تدل على الفاعل اقتضتِ البلاغةُ حذفَه مراعاةً للإيجاز في العبارة.

قال الخطابي(ت388هـ): << وأمّا ما عابوه من الحذف والاختصار في قوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى ﴾، فإنَّ الإيجاز في موضعه وحذفُ ما يُستغنى عنه من الكلام نوع من أنوع البلاغة>>(6) ثم أتى بتعليل لهذا الحذف فقال :<< وإنما جاز حذف الجواب في ذلك وحَسُنَ لأنّ المذكور منه يدل على المحذوف ، و المسكوت عنه من جوابه ،لأنّ المعقول من الخطاب عند أهل الفهم كالمنطوق به، والمعنى: لو أنّ قرآنا سُيِّرت به الجبالُ أو قطّعت به الأرض أو كُلِّم به الموتى لكان

---

[1]- الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 378.

[2]- دراسة الصوت اللغوي: أحمد مختار عمر، القاهرة، عالم الكتب، (1411هـ، 1991م)، ص 376.

[3] - سورة يس: الآية: 45.

4- ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص: 33.

[5]- سورة النحل: الآية: 126.

6- : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي) حققها وعلّق عليها : محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ط3، دار المعارف مصر ، سلسلة ذخائر العرب) ص:51،52.

هذا القرآن ،وقد قيل إنَّ الحذف في مثل هذا أبلغ من الذكر لأنَّ النفس تذهب في الحذف كلّ مذهب (1).

والألسنة كما هو ملاحظ دائمة التطور والتغير تبعا لحاجاتالإنسان وضروراته، ومجاراةً لمقتضيات الزمن، وفي تَغَيُّرِها تطور للألفاظ والمفردات، وكلما ازداد ترداد (Fréquence) وحدة كلامية ما جنح شكلها نحو الاختصار فمثل تسمية: "المملكة العربية السعودية" اسم يعاد يوميا فتحذف منها الأجزاء الأقل أهمية ،ويبقى الأهم وهو السعودية .

وهذا ما برهن عليه هنري فراي حين قال<< إنّ التغيرات تجنح جميعها إلى زيادة مردود الجهد الذي يبذله المتكلم، وينتج الاختصار عن ضرورة تقليل حجم الكلمة بشكل يتلاءم مع ترددها>> [2].

وتحقيقا لمبدأ الجهد الأقل يتم اختصارُ كلِّ كلام طويل قدر الإمكان، مع المحافظة على معناه الأصلي[*]، ومن أمثلة الحذف لكثرة الاستعمال وطول الكلمة: التعبير بلفظ photo بدلا من photographie ، وTV بدلا من Télévision،فتكون التسمية القصيرة المؤلفة من وحدة دالة واحدة اختصارا من تسمية أطول [3].

ت– الحذف للتركيب:

معلوم أنّ في اللغة العربية أربعة أنواع من التراكيب وهي: التركيب الإسنادي والتركيب المزجي: وهو كل كلمتين رُكِّبتا وجُعِلتا واحدة نحو: حضرموت وعبدري...إلخ. والتركيب الإضافي مثل عبد الله ،أما العددي فهو خاص بالأعداد من إحدى عشر إلى تسعة عشر ، وتكون مبنيّة على فتح الجزأين ما عدا اثني عشر فإنها تعرب إعراب المثنى.

ففي التركيب العددي نلاحظ أنّ العدد يحذف التنوين من جزئيه، والأصل في خمسة عشرة هي خمسةٌ وعشرةٌ، فلما حُوِّل إلى التركيب حُذف حرف العطف والتنوين وحذفت
التاء من كلمة "عشرة " لوجود مثيلتها في الجزء الأول.

وكذلك الحال في قولنا: فلان يأتينا صباح مساء، فالأصل فيه صباحا ومساء[1]، وهناك سبب آخر للحذف، وهو لأسباب قياسية صرفية أو صوتية، فالصيغ كما ذكرت يعتريها في بعض المواضع حذف يشكل عند الصرفيين، قاعدة عامة، فينعتون الحذف بأنه قياسي أو يمثل على الأقل مؤشرا من المؤشرات الدالة على الحذف في الكلام.

وفي هذا الصدد لا ينبغي لنا<< أن نفهم الحذف على أنه عنصر كان موجودا في الكلام ثم حذف بعد وجوده، ولكن المعنى الذي يفهم من كلمة الحذف ينبغي أن يكون هو الفارق بين مقررات النظام اللغوي، وبين مطالب السياق الكلامي الاستعمالي[**]>>[2].

---

[1] – ينظر : ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني ، ص.52

[2] – مدخل إلى الألسنية: تأليف بون فابر، وكريستيان بايلون، تر: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط: 1، (1992م)، ص: 48.

[*] – نجد الاختصار أيضا في التنظيمات السياسية أمل = (أفواج المقاومة اللبنانية)، فتح = (حركة التحرير الفلسطينية).

[3] – ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة: أندريه مارتيني، ترجمة: سعدي زبير، دار الآفاق،(1999م)، ص: 181.

[1] – ينظر: اللباب في علل البناء والإعراب، أبو البقاء بن الحسين بن عبد الله (ت 616 ه)، تحقيق: غازي طليمات، دار الفكر، دمشق، ط: 1، (1995م)، ج1، ص: 321، 325.

[**] – الحذف المقصود هنا الذي تقتضيه بلاغة وفصاحة الكلام، ليس كالحذف الذي يقتضيه علم النحو نجد فعلا بدون فاعل فيؤول ويقدر.

[2] – اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط:2،(1418ه، 1998م)، ص: .298

[3] – ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص: 29.

فمثلا نظام اللغة يقرر أن المضارع إذا كان مرفوعا وأسند إلى ألف الاثنين أو واو الجماعة ينتهي بنون تسمى نون الرفع، كما يقرر كذلك أن توكيد المضارع يجري بنون مشددة مركبة من عنصرين، أولهما نون ساكنة، وثانيهما نون متحركة.

ولو أن المضارع المسند إلى ألف الاثنين أو واو الجماعة أكد بالنون الثقيلة لكان معنى ذلك أن النظام اللغوي قضى بتوالي ثلاث نونات (نون الرفع، نون ساكنة، نون متحركة) = نون مشددة، وهذا ما يصطدم بالذوق العربي الذي يكره توالي الأمثال، ومن هنا يتدخل هذا الذوق الاستعمالي بحذف نون الرفع، وترك نونين إحداهما ساكنة، والأخرى متحركة يتداولان معا في صورة وحدة صوتية واحدة مشددة.

و يستعمل هذا الإجراء (أي التغيير في توالي النونات) استعمالا مطردا كلما دعت الحاجة والضرورة إلى ذلك، ومنه تكون قاعدة فرعية أو نظاما فرعيا بالنسبة للنظام اللغوي العام [3] .

ومن هذه القاعدة الفرعية التي فرضت نفسها على النظام اللغوي العام نتبين أن الدافع لهذه الاستثناءات هو الرغبة في تخفيف النطق وتسهيله، ومنه التقليل من الجهد المبذول بنوعيه الذهني والفيزيولوجي، والابتعاد قدر الإمكان عن التكرار الذي تمجه الآذان، ولا تستسيغه الأفهام، وتحت هذه القاعدة الفرعية صيغت قواعد منها:

1- التقاء الساكنين: ويعني أن تتابع ثلاث صوامت في السياق الصوتي دون أن يكون بينهما فاصل بصائت وذلك مثل:"نِعماً" قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾(1)

قال الزجاجي في إيضاح علل النحو:<< ألا تراهم (أي العرب) بنو كلامهم على متحرك وساكن ومتحركين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة ،ولا في حشو بيت ولا بين أربعة أحرف متحركة، لأنهم في اجتماع الساكنين يبطؤون،وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون وتذهب المهلة في كلامهم ،فجعلوا الحركة عقب الإسكان>>(2).

كما يتم حذف لام الفعل الناقص مثل :"يغزو" لأنه مد ساكن، وعند الاتصال بنون الجماعة تصير يغزون، وبتأكيدها تحذف نون الرفع لتوالي الأمثال، وواو الجماعة لالتقاء الساكنين فتصير لتغْزُنَّ [3] ولو لم تحذف لكان البناء على هذه الصورة " لتغزوننن" وهو ثقيل على اللسان ،ومثله في قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُّنَّ الجَحِيْم ثُمَّ لَتَرَوُّنَّهَا عَيْنَ اليَقِيْنِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم ﴾ (4) ، وأمثلته في القرآن كثيرة .

وكذلك في جمع المقصور تحذف الألف الأخيرة لالتقائها بالواو الساكنة أو الياء الساكنة نحو:﴿ أَنْتُم الأَعْلَوْنَ ﴾[5]، حذف للصائت الطويل، ولولم تحذف لكانت على هذا الشكل: الأعلاون، وهذا فيه زيادة جهد مقارنة بالصيغة التي تم فيها الحذف .

أما إذا تعلق الأمر بحروف صحيحة فإنها لا تحذف بل تحرَّك بالكسر لالتقاء الساكنين نحو:

1- البقرة :271 .

2- الإيضاح علل النحو ، أبي القاسم الزجاجي (ت337هـ) تح: د/ مازن المبارك،دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط6، (1416هـ/ 1996م)، بيروت لبنان، ص.71

3 – ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر حمودة، ص: 37.

4- التكاثر : 6، 7، 8.

5- سورة محمد: الآية: 35.

رَمَتِ الأَمَةُ، تحرك التاء بالكسرة لالتقائها مع"أل التعريف"تيسيرا للنطق تحت قاعدة خاصة بذلك وهي " إذا التقى ساكنان وجب التحريك لالتقائهما" [1] .

ومن أمثلته في التنزيل العزيز قوله تعالى على لسان لقمان الحكيم :﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُور ﴾(2) الشاهد في الآية الكريمة هو فعل الأمر" أقمْ" المبني على السكون وحُرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، وقوله تعالى:﴿ اِقْتَرَبَتِ السَّاعَة ﴾ وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّة ﴾ وغيره كثير .

2- توالي الأمثال:

يُقرّر نظام اللغة أنّ التاء حرف من حروف المضارعة، وأنّ صيغة التفاعل تبدأ بتاء التفاعل[*]، ومعنى هذا أنّ التفاعل إذا جاء على صورة المضارع المبدوء بتاء فإنّ الفعل قد تتوالى فيه تاءان ملحقتان بأوله، هما تاء المضارع، وتاء التفاعل "فعندئذ تظهر مطالب الاستعمال الذي يكره توالي الأمثال، فتجعل حذف التاء الثانية خيرا لصياغيتن نحو: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالأَلقَابِ﴾ [3]، حذف تاء التفاعل هنا أفضل من الإبقاء عليها ولو لم تحذف لقلنا: لا تتنابزوا "(4) .

وقوله تعالى: ﴿ مَالَكُمْ لَا تَنَاصَرُون ﴾ (5)، والأمثلة كثيرة في القرآن، قال الفراء"كل موضع اجتمع فيه تاءان جاز فيه إضمار إحداهما " (6).

وروى ابن جني أنّ عمارة بن عقيل كان يقرأ "ولا الليل سابقٌ النهارَ" بالنصب، قال أبو العباس فقلت:ما أردت ؟ فقال:أردت " سابقُ النهار" فقلت له: فهلاّ قلته؟ فقال: لو قلته لكان أوزن، فقوله: أوزن أي : أقوى وأمكن في النفس" (7) .

وفي هذه القراءة مخالفة صوتية بين الأمثال التالية في وسط الكلام وذلك طلباً للخفة ،فلو قرأ بالتنوين كان سينطق نونين، نون التنوين" سابقن" ونون النهار، وفي وصلهما ثقل وصعوبة في النطق لذلك فضّل القارئ المخالفة بينهما عن طريق التخلص من التنوين.

3- حذف المثلين من آخر الكلمة:

من صور حذف المثلين من آخر الكلمة، حذف نون الأفعال الخمسة ونون الإناث عند اتصالها بنون الوقاية نحو: "تريني" أصلها "تريني"، قال تعالى" فبم تبشرون" وأصلها فبم تبشرونني، ومثال حذف نون الأفعال الخمسة: "لتعلمُنَّ" أصلها " لتعلمونَ نْنَ" نون الفعل المضارع المرفوع، ونون التوكيد الثقيلة المكوّنة من نونين، حذف الواو لالتقاء الساكنين وحذفت النون الأولى لتوالي الأمثال، وكذلك " لتبلوُنّ " أصلها " لتبلون نن.

1- التكملة، أبو علي بن أحمد الفارسي، تحقيق: حسن الشاذلي فرهود، المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص: 05.

2- لقمان : 17.

* – التفاعل: صيغة دالة على قيام الفعل من طرفين مثل: تسابق، تفاهم، فالفعل في هذه الحالة واقع من طرفين.

3- الحجرات: الآية: 11.

4- اللغة العربية معناها ومبناها: تمام حسان، ص: 298.

5-الصافات25 .

6- الفراء أبو زكريا يحي بن زياد معاني القرآن ، تح: أحمد يوسف نجاتي، ومحمد النجار، القاهرة، (1955م)، 1/ 284 .

7- ابن جني الخصائص،1/ 125.

قال سيبويه<< وإذا كان فعل الجميع مرفوعاً ثم أُدخلت فيه النون الخفيفة أو الثقيلة حذفت نون الرفع، وذلك قولك: لتفْعَلُنَّ ذلك ولتذهَبُنَّ ،لأنه اجتمعت ثلاث نونات فحذفوها استثقالاً>>(1).

ومن هذا حذف نون الوقاية مع الأدوات الناسخة، وهو أمر شائع وكثير في القرآن الكريم يتضح هذا من خلال الإحصاء الذي قام به الدكتور رمضان عبد التواب، فذكر أنه ورد "أنّا" 17مرة في مقابل "أننا" مرَّة واحدة، و"بأنّا"مرتين في مقابل"بأننا" مرّة واحدة، و"إنّي" 124، في مقابل " إنني" 6مرات ، و" إنّا" 53 مرة في مقابل" إننا" 05 مرات (2).

ومن أمثلة ذلك في القرآن قوله تعالى على لسان يوسف –عليه السلام : " إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً "(3) ، وقوله تعالى:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ القَدْر ﴾، وقوله:﴿ وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِيْنَةِ القَوْمِ﴾ (4)، وقوله:﴿ وَلَكِنِّي رَسُولُ مِن رَّبِّ العَلَمِيْن ﴾(5).

وعمّت هذه الظاهرة (أي حذف نون الوقاية) حتى الأدوات التي لا تنتهي بالنون مثل :

1- الكتاب ، سيبويه ،ج3، 519 .

2- بحوث ومقالات في اللغة ، عبد التواب رمضان ، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، (1982م)، ص37، 38.

3- يوسف: .04

4- طه :87 .

5- الأعراف: 61.

" لعلّ" قال تعالى على لسان النبي موسى– عليه السلام–:﴿ لَعَلِّي آتِيْكُمْ مِنْهَا بِقَبَس ﴾ (1).

والعرب تحذف كلّ ذلك طلباً للخفة وللاقتصاد في المجهود المبذول، والقرآن الكريم جاء على مناهجهم وسننهم، حتى إنك لا تجد فيه ما هو ثقيل أو صعب في النطق ،بل كلماته منسجمة مع بعضها انسجاماً محكماً، وحروفه المستخدمة في هندسة وبناء كلماته منتقاة انتقاءً رائعاً لا تجد حرفاً ينبو به مكانه أو يستثقل على اللّسان نطقه.

والعربية تكره تتابع المتقاربات كما تكره تتابع الأمثال قال الفارسي:<< وقد كرهوا من اجتماع المتقاربة ما كرهوا من اجتماع الأمثال، ألا ترى أنهم يدغمون المتقاربة كما يدغمون المثال؟ فالقبيلان من الأمثلة المتقاربة إذا اجتمعت خُفّفت تارة بالإدغام وتارة بالقلب وتارة بالحذف>>(2).

ومن الأمثلة التي يتم فيها التخفيف بالحذف كلمة استطاع تحذف منها التاء فتصبح اسطاع قال تعالى:﴿ فَمَا اِسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوه ﴾(3).

وإذا توالى في العربية مقطعان صامتاهما متماثلان؛ فإنه كثيراً ما يكتفي بواحد منهما قال بروكلمان:<< إذا توالى مقطعان أصواتهما الصامتة متماثلة أو متشابهة جداً الواحد بعد الآخر في أوّل الكلمة فإنه يكتفي بواحد منهما بسبب الارتباط الذهني بينهما>>(4).

وهذا يكشف عن قانون أصواتهم؛ وتفضيلهم لمتباعد المخارج عن المتقارب، فالعمليات التجميلية تتعدد وتتنوع حسب كل حالة ،فبعض الحالات تحتاج إلى نزع عضو وإزالته وأحياناً يتطلب الأمر تغييراً في أماكن الحروف .

ثم يأتي بعدها القياس فيُعمِّم الظاهرة على كلّ مشابه ومماثل من أجل الانسجام الصوتي في وحدات الكلام .

1- طه: 10 .

2- الحجة في القراءات السبع ، أبو علي الفارسي ،تح:علي النجدي ناصف ،و عبد الحليم النجار و عبد الفتاح شلبي ط1، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ج1/ .

3- الكهف: .97

4- كارل بروكلمان، فقه اللغات السامية، ترجمة : رمضان عبد التواب ، الرياض، (1977م)، ص:79 .

4- الإعلال والإبدال:

الإعلال:

ويقصد به حذف حرف العلة، أو قلبه أو تسكينه، وهو أنواع، فالإعلال بالحذف نحو: الفعل "قَامَ" الأمر منه "قُمْ" وهكذا مع خاف الذي أمره خَفْ وباع بِعْ فحرف العلة يحذف نهائيا"، ومثاله في التنزيل

العزيز قوله تعالى:﴿يا أيُّهَا المدَثِّرْ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ (1) و الإعلال بالقلب مثل: مدائن" أصلها" مداين" انقلبت الياء إلى همزة، ومن أمثلة الإعلال بالتسكين : يَبِيْعُ " أصلها " يَبْيِعُ "، ويَقُوْلُ أصلها يَقْوُلُ قياسا على الفعل الصحيح يَخْرُجُ، ومن أمثلته في القرآن الكريم:﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم وَيَقُوْلُوْنَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُم كَلْبُهُم﴾(2) .

وفي الإعلال بالحذف والنقل نلاحظ أن حذف الحرف، أو قلبه يؤدي إلى حذف الصوت وذلك يبين مدى الارتباط الوثيق بين اقتصاد الأصوات والكتابة، ومثال ذلك الفعل "صَامَ" مضارعه "يَصُومُ"، يقول الصرفيون: إن أصل المضارع "يَصْوُمُ "حاله كحال الفعل الصحيح كَتَبَ يَكْتُبُ، ومنه نلاحظ أن الواو (حرف علة) مضموم والحرف الصحيح قبله (الصاد) ساكن (يَصْوُمُ)، لذلك يتم نقل حركة الحرف إلى الصحيح الساكن قبله، وتعليلهم في ذلك هو أنّ الحرف الصحيح قوي فهو أولى بتحمُّل الحركة من حرف العلة الذي هو حرف ضعيف [3]، فتصبح "يَصُومُ"، ويتصل هذا النقل بأداء الصوت ،حيث يؤدي إلى تجنب الثقل في النطق [*].

وهكذا مع الأفعال المشابهة له نحو: قال، باع، وما هذه القواعد والتعديلات والتعليلات إلا رغبة من أهل اللغة لتيسير وتسهيل استعمالها، وإبعاد كل ما من شأنه أن يعيق توظيفها، أو يمنع تداولها.

—

1- المدثر : 01 .

2- الكهف : 22 .

3 – ينظر: الصرف التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، (1996م)، ص: 303.

* – قال السيوطي في الاقتراح في أصول النحو، فيما يخص الإعلال بالنقل: "وهذا ما لابد للطبع منه كقلب الألف واوا للضمة قبلها، وياء لكسرة قبلها"، السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تحقيق: محمد حسن إسماعيل الشافعي، بيروت، لبنان، دار الكتب، ط:1، (1418هـ/ 1998م)، ص:72.

أما الإبدال:

فهو إزالة حرف ووضع آخر مكانه،دون اشتراط أن يكون حرف علة أو غيره ،هو يُشبه الإعلال بالقلب إلاّ أنّ الإعلال خاص بحروف العلة [1].

إبدال تاء الافتعال طاء:

وذلك إذا كانت فاء الافتعال أحد أصوات الإطباق (ص،ض، ط، ظ) فتبدل تاء (افتعل) ومشتقاتها إلى أختها المطبقة الطَّاء ليكون هناك تناسب بين فاء (افتعل) وتائها فيقال في افتعل من صبر/ اصطبر والأصل: اصتَبَر، أبدلت التاء طاء، والتَّأثر هنا تقدمي ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم، قوله تعالى:﴿ اطّلَعَ الغَيْبَ أَمْ اِتّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدَا ﴾(2) .

ووجه الثِّقل في هذا الأصل أنَّ الصِّفة الغليظة(التّفخيم الذي تتصف به الصَّاد في اصطبر (مثلاً) تحتاج فترة من الدَّوام- أي الاستمرار- لتستوفي حظها من الغلظ، و بذلك يسهل الانتقال منها إلى صفة رقيقة كمرتفعات الطَّريق إذا امتدت تريح، وإذا انخفضت بسرعة أرهقت.

ثمَّ إنَّ سرعة الانتقال من غليظ إلى رقيق تكلف أعضاء النُّطق تحركاً سريعاً يثقل عليها لأنَّه يتعبها، ومن هنا كان قلب التَّاء حرفاً مفخماً يحقق نوعا من التَّناسب وييسر النُّطق معاً، والإعلال والإبدال أصبحا يعرفان بالمماثلة "Assimilation"كمصطلح للحديث عن التبدلات التكييفية للصوت، بسبب مجاورته لأصوات أخرى"(3).

وفي الإبدال يتم تغيير إحدى الفونيمات بذاته لا صفة من صفاته ،<<وسبب ذلك عامل صوتي يليه مباشرة أو يقع بعيدا منه، وهذا ما يمثله إبدال السين صادا نحو: سطح وسراط وأسبغ إذ يقال فيها: صطح وصراط وأصبغ بالصاد الصريحة،أو بين بين، وكذلك قوله تعالى:﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرْ﴾ (4)، أُبْدلت السين صادا فأصبحت بمصيطر>>(5).

1- ينظر: شرح ابن عقيل، بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي المصري الهمذاني (672هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق، ط:2، (1985م)، ج4 ، ص: 210.

2 - مريم:78.

3 - في فقه اللغة وقضايا العربية، سميح أبو مغلي، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص: 47.

4 - سورة الغاشية: الآية: .22

5 - ينظر: مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، د. فخر الدين قباوة، ص: 24.

ث- الحذف للضرورة الشعرية: كقول الشاعر: [1].

لَهَا مَتْنَتَانِ خَظّاتَا كَمَا **** أَكُبُّ عَلى سَاعِدَيْه النَّمِرُ

الحذف وقع في كلمة خَظّاتَا حذفت نون التثنية {خَظّاتَان} في سبيل المحافظة على تفعيلة البحر المتقارب.

وفي سبيل إنجاح العملية التواصلية، وتقيد الشعر بقوانين الوزن والقافية راح الشعراء ينظمون قصائدهم، ويروون أشعارهم كما تمليه عليهم قرائحهم ومواهبهم متجاوزين في ذلك بعض قواعد اللغة، كأن يقدّم أو يؤخّر أو يحذف للضرورة الشعرية، وتصريف ما لا ينصرف.

ووجدوا في ذلك مساعدا ونصيرا لهم من النقاد، وعلماء العربية الذين قعَّدوا قواعد في هذا المجال، وقالوا: يجوز للشاعر ما لا يجوز لغيره، وهذا التجاوز لقواعد اللغة هو ما يسمونه اليوم في علم الأساليب بكسر البناء Rupture de Syntaxe .

<<وهو عبارة عن الخروج عن قواعد اللغة التماسا لجمال الأداء، وروعته، ويُباح هذا لكبار الكتَّاب ؛ بل ويُحمدون من أجله، وهم لا يأتونه عن جهل أو غفلة في العبارة، وإنما يقصدونه لأغراض>>[2].

ج- الحذف للإعراب:

<< ومعناه الأثر الظاهر أو المقدّر الذي تجلبه العوامل في آخر الاسم المتمكن[*]، والفعل المضارع في حالة الجزم>> [3]، مثل: لم أَكْتُبْ، فالحذف يتمثل في صائت قصير، وفي الأفعال الخمسة: لم يكتبا... لم يكتبوا، أو كان من الأفعال الناقصة تحذف حرف العلة منه نحو:

"لم يَرَ"، "لم يقل"، حذف الصامت (الواو) و الصائت (السكون).

وإذا كان الحذف بأنواعه التي ذكرنا والتي لم نذكرها يعتبر آلية بارزة من آليات اقتصاد اللغة فهذا لا يعني أنه قاعدة مطردة، ومذهب مُفَضّل في جميع الأحوال، وعند حدوثه لابدَّ له من دليل عليه يتمثل في قرينة، أو قرائن مصاحبة حالية أو عقلية، أو لفظية.

والقرينة تُعَدّ من أهم شروط الحذف، بشرط ألَّا يؤدي الحذف إلى لُبْس في المعنى؛ لأننا نميل إليه ونحبذه باعتباره وجها أو أسلوبا من أساليب البلاغة المقتصد للطاقة المبذولة والمحقق لأكبر قدر ممكن من المعلومات في عملية التواصل البشري.

أما إذا أدى إلى لبس في المعنى، أو لم تكن هناك قرينة دالة على المحذوف، فإننا وبلا شك سننصرف عنه إلى غيره من الأساليب لتحقيق تواصل فعّال وناجح، ونظرا لأهمية هذه الشروط نتطرق إليها بإيجاز.

1- وجود دليل على المحذوف:

---

[1] -ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقاتها في القرآن الكريم، أحمد ياقوت، جامعة الإسكندرية، ط: (1401هـ/1981م)، ص: 132.

[2] - المرجع نفسه، ص: 136.

* - الاسم المتمكن: المتصرف.

[3] - ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، ص: 64.

أثناء عملية الحذف لابدَّ من قرينة(*) تدل على العنصر أو العناصر المحذوفة التي يريدها المتكلم ويستغني عنها بدلالة القرينة، وقد نبّه ابن جني إلى أهمية الدليل عند الحذف، وذهب إلى أن الحذف بلا دليل يجعل الكلام مستبهما ، وعليه يكون الحذف غير لائق " [1].

والمرسل إليه – سواء كان قارئا أو سامعا– لن يصل بدونها (القرينة)، إلى فهم وتأويل الدلالة إلا إذا قام بعملية تفكيك رموز الخطاب إلى وحدات، ذلك لأنَّ النص ما هو إلا مجموعة من الجمل والكلمات، التي تنتهي بانتهاء حروفها، بالإضافة إلى تفكيك المعنى أو معاني النص المسكوت عنه، ولذلك فهو لا يبحث فيما قد قيل، وإنما يبحث عن وراء ما قيل[2].

ومن هذا نتبين الطريقة أو الكيفية التي يتم الوصول بها إلى معرفة ما سكت عنه، فمن خلال منطوق النص أو بنيته السطحية نستطيع المرور، والغوص في ثناياه لاستنطاق مكامنه وفهم بنيته العميقة.

وهنا لابدّ للنص (المرسلة اللغوية) أن يقود خُطا القارئ، ويضبط مسيرته إلى حد ما، مادام

---

* – القرينة: هي كل أمّارة أو علامة دالة على أمر ما، مثل الفتحة التي فوق العين في : يَسعون تعتبر قرينة على الألف المحذوفة، وكسر الفاء في فعل الأمر : فِ، قرينة دالة على الياء المحذوفة ، والضمة فوق الميم في كلمة " تعلمُنّ " قرينة دالة على أن المحذوف واو.

1– ينظر : الخصائص ، ابن جني ، ج2 ،ص368 .

2 – النص والحقيقة : علي حرب المركز الثقافي العربي، دار الطبع، ط:1، (1993م)، ص: 21.

النص غير قادر على الاستجابة تلقائيا لملاحظات القارئ و أسئلته، وإذا كان الحذف هنا يشكل فراغا في بنية النص، إلا أنه يحتفظ بقيمته الأساسية لعملية الاتصال"[1].

والقرينة تنقسم إلى لفظية وحالية أو مقامية ومقالية، وبعضهم يضيف القرينة العقلية[2]. فاللفظية أو المقالية: تقتضي أن يكون السياق سابقا أو لاحقا من الكلام، وقد لا يحمل سياق اللفظ دليلا، بيد أن طريقة نطق الجملة أو أدائها الصوتي يعين على تقدير المحذوفات وهو خاص باللغة المنطوقة أو يقع الإعراب مقتضيا لبعض التقديرات.

أ– دليل لفظي عام: مثل قوله

تعالى: ﴿وَ قِيْلَ لِلَّذِيْنَ اِتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوْا خَيْرًا﴾ [3]، أي أنزل خيرا فهذا التقدير دل عليه اللفظ العام.

ومن السياق اللفظي اللاحق الدال على الحذف قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الهُدَى﴾ [4]، مفعول شاء تقديره أن يجمعهم[5].

ب– دليل صوتي خاص باللغة المنطوقة:

إذا أراد المرسل حذف بعض الكلام فإن طريقة نطقه ستبين ذلك للسامع، فالأداء الصوتي للعبارة يوحي بما أراده الباث وحذفه، ومن أمثلة ذلك ما حكاه ابن جني في بيان الدليل الصوتي الذي يعتمد عليه في حذف الصفة قائلا:<< وأنت تحس هذا في نفسك إذا تأملته، وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه فتقول: كان والله رجلا فتزيد في تمطيط اللاّم وإطالة الصوت بها أي رجلا شجاعا كريما>>[6].

والقرينة الصوتية تعد عنصرا هاما من عناصر الموقف الكلامي التي ينبغي استحضارها للوصول إلى المعنى.

---

[1]– نظرية التلقي: مقدمة نقدية تأليف روبرت هولب، ترجمة : عز الدين إسماعيل، النادي الثقافي بجدة، ط: (1415هـ/ 1994م)، ص: 22.

[2]– ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، ص: 130.

[3] – سورة النحل: الآية: 30.

[4]– سورة الأنعام: الآية: 35.

[5] – ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص: 117.

[6] – الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 373.

القرينة الحالية:

وهي الظروف الملابسة للنص اللغوي، وقد نبّه الإنجليزي (فيرث) إلى وجوب اعتماد كل نص أو تحليل لغوي على ما يسمى بالمقام أو السياق[1].

فسياق الحال عنده هو جملة العناصر المكونة للموقف الكلامي، ويشتمل الكلام وشخصية المتكلم والسامع، وكذا تكوينها الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم والسامع إن وجدوا إضافة إلى الظروف التي يجري فيها الخطاب، كالأوضاع الاجتماعية والسياسية وحالة الجو وغيرها [2].

والكلام المحذوف إن كان في سياق الحال ما يدل عليه كان في حكم الملفوظ به، كما نصّ عليه ابن جني في الخصائص"باب المحذوف إذا دلت الدلالة عليه كان في حكم الملفوظ(3) ومن الأمثلة التي أوردها في ذلك: أن ترى رجلا قد سدد سهما نحو الغرض، ثم أرسله فتسمع صوتا فتقول: القرطاس والله، أي: أصاب القرطاس، فـ(أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتة،وإن لم يوجد في اللفظ، غير أنّ دلالة الحال نابت مناب اللفظ به، وكذلك قولهم لرجل مَهْوٍ بسيف في يده: زيدا، أي : اضرب زيدا، فصارت شهادة الحال بالفعل بدلا من اللفظ به[4].

القرينة العقلية:

وهي تحتاج إلى تأمل وتدبر لفهم معانيها بما في ذلك مواطن الحذف، ففي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّم﴾ [5]، فالعقل يدل على أنَّ الحرمة إنما تتعلق بالأفعال لا بالذوات والذي يتبادر إلى الذهن قصده التناول [6].أي :أكل الميتة وشرب الدم

والأمثلة على هذا النوع من القرائن كثيرة ومتنوعة في النصوص العربية سواء كانت شعرا أو نثرا.

1- ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص: 130.

2- علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران، الإسكندرية، دار المعارف، (1962م)، ص: 337.

3- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 285 .

4- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 285، 286.

5 - سورة المائدة: الآية: 03.

6 - علوم البلاغة – البيان والمعاني والبديع- مصطفى المراغي، ص: 188، والإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني نشر وتحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، ج1، ص: 291.

وثاني الشروط وهو **ألا يكون المحذوف كالجزء** من المحذوف منه، مثل الفاعل ونائبه

وثالثهما **عدم نقض الغرض**: فإذا أراد المتكلم أو المرسل الحذف من كلامه لا يأتي في حديثه بما ينقض غرضه كالتوكيد مثلا، لأن المؤكّد مريد للطول، والحاذف مريد للاختصار والإيجاز.

كما يقرر ابن جني<< أنّ كل ما حذف تخفيفا لا يجوز توكيده لتدافع حاليه به، والمحذوف إن دلت عليه الدلالة في حكم الملفوظ به>> [1].

ومن الأمثلة التي يوردها قوله لو قلت: الذي ضربت زيد تقول: الذي ضربت نفسه زيد

هذا غير حائز، وذلك أنّ الحذف هنا إنما الغرض منه التخفيف لطول الاسم، فلو ذهبت تؤكده لنقضت الغرض.

ورابع هذه الشروط وهو **عدم اللبس**: أي الغموض في المعنى، فإذا ما علم المرسل أنه يحصل لبس وغموض في الحذف، فالأولى هو سلامة المعنى، وإفهام الطرف الثاني، لذلك كان اشتراط القرائن التي تمكّن السامع أو القارئ من إدراك العناصر المحذوفة، ومثال ذلك يمنع حذف الموصوف مع بقاء صفته- غالبا- نحو: مررت بطويل لأن القرينة العقلية تقتضي رجل أو رمح أو طريق [2].

وهناك شروط أخرى نذكرها دون شرح لقلة أهميتها بالنسبة لهذا المقام، وهي ألا يؤدي الحذف إلى اختصار المختصر، وألا يكون المحذوف عِوضا عن شيء محذوف....إلخ.

جمالية الحذف الفنية والبلاغية:

للحذف أهداف وأغراض مقصودة من طرف الناطقين، عندما يحذفون بعض العناصر والوقوف على أغراض المتكلمين له صلة في تقدير المحذوف أو عدمه، ومن ثَمّ فإنّ له أثرا جماليا وفنيا في الوقوف على المعنى أو عدمه، وتتجلى فاعلية هذه الصورة البلاغية في العملية التواصلية فيما يلي :

---

[1] - الخصائص: ابن جني، ج2، ص: 286، .288

2 - المصدر نفسه ، ج2 ،368 .

أ- التخفيف:

سواء كان المحذوف منطوقا أو مكتوبا فإنه عند حذف إحدى عناصر الكلام فإننا نخفف من الصيغ والتراكيب، فكثرة الاستعمال تجيء معها الرغبة في التخفيف بالحذف ومثال ذلك التقاء الساكنين، يأتي

الحذف في السابق منهما رغبة في التخلص من صعوبة النطق بهما ملتقيين على نحو لم يعتده ناطقوا العربية، وإدغام المثلين، وصرف ما لا ينصرف وحذف بعض الحركات وغيرها، كلُّ ذلك يحدث رغبة في التقليل من الجهد، فالفعل "يَعِدُ" حذفت منه الواو الواقعة بين الياء والكسرة لأنّ أصله يَوْعِدْ وبالحذف تَيَسّرَ النُّطقُ [1].

وهكذا مع الفعل "وزن"، و"وفى"، كما أن التخفيف لا يتحقق بالحذف فقط وإنما قد يحصل بزيادة حرف كزيادة همزة الوصل في بداية الكلمة.

يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) بعد أن بيَّن أنّ كلام العرب مبني على أربعة أصناف من الأفعال ثنائي وثلاثي ورباعي وخماسي<< والألف في اقشعر ليست من أصل البناء وإنما أدخلت هذه الألف في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عمادا، وسُلَّما للسان على حرف البناء، لأنَّ اللِّسان لا ينطق بالساكن من الحروف فيحتاج إلى ألف الوصل>> [2].

ب– التفخيم والإعظام:

يبدو الكلام على ظاهره مبهما عندما نحذف عنصرا من عناصر الجملة ، وبعد تأمل وتدبّر يفهم السامع أو القارئ مراد المرسل، فهو ليس إبهاما يفسد المعنى ويقف كمانع أو حاجز أمامه، بل هو إبهام يذهب فيه الذهن كل مذهب، ويتشوّقُ إلى المعنى المراد، فيرجع قاصرا عن إدراكه، فعند ذلك يعظم شأنه ويعلو في النفس مكانه، يقول السيوطي :<< ألا ترى أن المحذوف إذا ظهر في اللفظ زال ما كان يختلج في الوهم من المراد وخلص للمذكور>> [3].

---

1 – ينظر: الاقتراح في أصول النحو، ص: 72.

2– كتاب العين أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: د/ مهدي المخزومي،

3– البرهان في علوم القرآن، ج3، ص: 104، وينظر : البلاغة العربية أصولها، وامتداداتها: محمد العمري، إفريقيا الشرق الدار البيضاء، المغرب، (1999م)، ص: 185.

ج – زيادة اللّذة:

تحصل بسبب استنباط الذهن للمحذوف، وذلك كلّما كان الشعور بالمحذوف أعسر كان الالتذاذ به أحسن،<< وذهاب النفس فيه كل مذهب، وهو شبيه بالألغاز بحيث لو ذُكر ما كان محذوفا لذهبت بلاغة الكلام>> [1].

ولهذا قال الجرجاني في دلائل الإعجاز إنه شبيه بالسحر وأنّ ترك الذكر أفصح من الذكر.

د– طلب الإيجاز والاختصار:

بالحذف يتم الاقتصاد من الجهد بحيث يحصل المعنى الكثير باللفظ القليل، وهو من وسائل قوة التعبير للصيغ والتراكيب.

هـ – التشجيع على الكلام: ومن ثمّ سمّاه ابن جني "بشجاعة العربية" [*] وموقعه في النفس أبلغ من موقع الذكر، ولذلك قال عنه الجرجاني<< ما من اسم حذِف في الحالة التي ينبغي أن يُحذف فيها إلا وحذفه أحسن من ذكره ولله درُّ القائل>>[2]:

إِذَا نطقَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحَةٍ *** وَإِذَا سَكَتَتْ جَاءَتْ بِكُلِّ مَلِيحٍ.

وقال عنه الجاحظ في البيان والتبيين << اِعلم أن السكوت عن الأمر الذي يغنيك خير من الكلام>> [3].

الزيادة:

وإذا كنا قد تحدثنا عن الحذف بكل أصنافه وألوانه بدءاً من الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين وانتهاءً بالجمل والنصوص، فهذا لا يعني أنّ الحذف قاعدة عامة وقانون مطرّد في كل كلام العرب بل هناك من العرب من ينطق بحروف الكلمة كلها ولا يحذف منها شيئا حتى وإن التقى ساكنان أو همزتان.

وهذا ما نجده عند أهل الحجاز ومن جاورهم فهم لا يبالون إذا التقى ساكنان، ولا يجدون فيه ثقلا في النطق<<لأنهم يتأنون في كلامهم،ومثل هذه العادة النطقية تمكنهم من نطق صوتين ساكنين متتابعين دونما مشقة، أمّا أهل البادية كتميم وغيرهم فهم أكثر ميلاً إلى التخلص من التقاء الساكنين>>(1).

قال الرافعي:<< زعم الخليل أنَّ ناساً من بكر بن وائل يقولون في نحو: ردَدْن، ومرَرْن وردَدْت، ومرَرْتُ، ورُدَّن، ومُرَّن ورَدَّتُ، ومرَّتُ.>>(2).

فأصحاب هذه القبيلة يخالفون ما عليه غالب كلام العرب لأنّ فكّ الإدغام في هذه الأمثلة أسهل وأيسر نطقاً من الإدغام، ومع ذلك فلم يفكُّوا الإدغام، وهذه العادة التي نشأوا عليها وتعوَّدُوها ربما هي الأسهل عليهم من فك الإدغام، لأنَّ ألسنتهم تمرّست وتمرنت على ذلك، فهذا أخف وأيسر مما عليه غالبية القبائل العربية، ومن هنا ترى أنه ليست كل القبائل العربية تنحوا منحى واحداً في التخفيف والتسهيل في النطق، فربما تزيد قبيلة في الكلام رغبة في الاختصار والاقتصاد، وتحذف أخرى لنفس الغرض، وذلك أنّ

---

[1] – البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 185.

[*] – الخصائص، ابن جني، ج2، ص: 362.

[2] – دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص: 150.

[3] – البيان والتبيين: الجاحظ، ج4، ص: 73.

<< الثقل والخفة أمران معنويان في اللغة لا يُقدِّرهما إلاَّ الذوق، وهو ليس من الصفات التي يجمع عليها الناس>> (3).

وعلى ضوء هذا يمكن تفسير كثير من كلام العرب في تحقيق الهمزة أو حذفها أو إبدالها فمن يحقق الهمزتين قرأ :﴿حَتّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُور﴾(4).

و من يحذف الأولى يقول: ﴿ حتى إذا جا أمرنا ﴾ ومن يحذف الثانية يقرأ "حتى إذا جاءَ اَمْرنا " والقرآن إنَّما نزل بلسانهم حروفه حروفهم وكلماته كلماتهم.

الاختصار:

نعني بالاختصار تقصير لعنصر لغوي بحيث لا ينتج عنه إخلال بالمعنى ، وهو: << وقوع عنصر لغوي محل عنصر لغوي آخر بحيث يتضمن الأول معنى الثاني؛ مع اختلافه عنه في عدد حروفه >> (5) .

1- اللهجات العربية في التراث، د/ أحمد علم الدين الجندي ، القسم الأوّل من النظامين الصوتي والصرفي، الدار العربية للكتابة (1983م)، ص 76 .

2- تاريخ آداب العربية ، الرافعي ، ج1ص85 .

3- تاريخ آداب العربية ، الرافعي ، ج1، ص84.

4- هود : 40.

5- ظاهرة التخفيف في النحو العربي ، د/ أحمد عفيفي ، ص 351 .

مثل وقوع الضمير موقع الفعل وفاعله، وهو كثير في القرآن الكريم وفي كلام العرب، وهذا ما جعل السيوطي يؤكد أنّ الاختصار:<< هو جلّ مقصود العرب وعليه مبنى أكثر كلامهم ومن ثَمّ وضعوا باب الضمائر لأنَّها أخصر من الظواهر خصوصاً ضمير الغيبة، فإنَّه يقوم مقام أسماء كثيرة>> (1).

فإذا قلت: قاموا أو عادوا ، فإنّ هذا الضمير " الواو" قام مقام عدد كثير من الرجال ،ولو عددتهم بأسمائهم لاستغرقت وقتا طويلا، وكلّفت نفسك جهدًا كبيراً، وعلى هذا يرى الإمام السيوطي أنّ الضمير"هم" في قوله تعالى:﴿ أعدَّ الله لهم مغفرة﴾ قام مقام عشرين ظاهراً" و كلّ من يقرأ هذه الآية من سورة الأحزاب يرى أنّ الضمير "هم" في "لهم "قد قام مقام عشرين اسما ظاهرا ،لأنّ الآية تتحدث عن أصناف عديدة من عباد الله الصالحين، قال تعالى:﴿ إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالمُسْلِمَاتِ وَالمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ وَالقَانِتِينَ وَالقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالخَاشِعِينَ وَالخَاشِعَاتِ وَالمُتَصَدِّقِينَ وَالمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالحَافِظِينَ فُرُوجَهُم وَالحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمَا ﴾ (2).

ولذا فكل موضع أمكن أن يؤتى فيه بالضمير المتصل لا يجوز العدول عنه إلى المنفصل وهذا ما أشار إليه ابن مالك حينما قال (3):

وَفِي اِخْتِيَارٍ لَا يَجِيءُ المُنْفَصِل **** إِذَا تَأَتَّى أَنْ يَجِيءَ المُتَّصِل

وهذه القاعدة النحوية جاءت تلبية لرغبة العربي الذي يفضل الإيجاز والاختصار، قال ابن جني :"والسبب في ذلك أنّ المتصل أخف عليهم وآثر في نفوسهم "(4).

وهناك حروف تنوب عن الجمل، وهو ما اصطلح على تسميته بحروف المعاني، قال السيوطي :<< وباب الحصر بإلاَّ وإنَّما، هو الآخر تنوب الجملة فيه مناب جملتين، وباب العطف لأنَّ حروفه وُضعت للإغناء عن إعادة العامل، وباب التثنية والجمع لأنَّهما أغنيا عن

1- الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، ج1 ، ص35 .

2- الأحزاب : 35 .

3- ألفية ابن مالك ، ص 16 .

4- الخصائص ، ج2 /192 .

العطف، وباب النداء لأنَّ الحرف فيه نائب مناب أدعو وأنادي وأدوات الاستفهام والشرط (1) >>، وأمثلة ذلك في التنزيل العزيز كثيرة جدا منها قوله تعالى :﴿وَالعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ﴾(2)، فالمولى عز وجل استثنى الذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات بالحرف " إلا" فقام مقام فعل وفاعل . وقال تعالى :﴿ فَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهْ وَمَن يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهْ ﴾(3)، فمن أغنت عن ذكر جميع بني البشر، وغيرها كثير.

الإيجاز:

يعتبر آلية من آليات اقتصاد اللغة، استخدمه العرب كثيرا ودعوا إليه،واعتبروه بلاغة أحيانا، ومن ذلك اهتموا به، يقول "ابن منظور":<< وَجُزَ الكلام وجَازَةً ووِجْزًا، وأَوْجَزَ قلّ في بلاغةٍ، وأوجزهُ اِختصره>> [4].

وهو عند ابن الأثير:<< دلالة اللفظ على المعنى من غير أن يزيد عليه>>[5]، وعلى هذا فهو باب من أبواب الفصاحة، وركن ركين في تكوين البلاغة، لذلك اعتنت به بلغاء العرب وفصحاؤها كثيرا، حتى نُقل عن بعضهم أنه قال:<< البلاغة إيجاز في غير عجز،وإطناب في غير خطل>> [6].

ونظرا لقيمته الفنية والبلاغية اعتمده الشعراء والكتاب والخطباء، في كثير من المواطن <<وكانوا إذا قصدوا الإيجاز أتوا بألفاظ استغنوا بواحدها عن ألفاظٍ كثيرة كأدوات الاستفهام والشرط وغيرها>>[7].

قال ابن جني في الخصائص مبينا فضل أسماء الاستفهام والشرط:<< ألم تسمع إلى ما جاؤوا به من الأسماء المستفهم بها، والأسماء المشروط بها كيف أغنى الحرف الواحد عن الكلام الكثير

—

1- الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي ، ج1، ص35 .

2- العصر: 1،2،3 .

3- الزلزلة :7/8 .

4 – لسان العرب: ابن منظور جمال الدين محمد مكرم، دار صادر، بيروت، ط:06، ج5، (1994م)، ص: 427.

5 – المثل السائر، ابن الأثير، ج2، ص: 70.

6 – العقد الفريد: تأليف الفقه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت 328هـ)، تح: محمد مكرم، دار صادر، بيروت ط:06، ج5، (1944م)، ص:427.

7 – المصدر نفسه، ص: 427.

المتناهي في الأبعاد والطول، فمن ذلك قولك: أعشرةٌ مالُك؟ أم عشرون أم ثلاثون، أم مائة أم

ألف؟ فلو ذهبت تستوعب الأعداد لم تبلغ أبداً لأنّه غير متناه، فلمّا قُلتَ: "كم" أغنتْك هذه اللفظة الواحدة عن تلك الإطالة غير المحاط بآخرها>> [1].

وقولك أين زيد ؟ مُغْنٍ عن قولك: أزيد في الدار؟ أم في المسجد؟ أم... إلى أن تذكر كل الأماكن، وقول أحدنا: من يقم أقم معه: مُغْنٍ عن قولنا: أن يقم زيد أو عمرو، أقم معه وما بالدار من أحد مُغْنٍ عن قولنا: ليس فيها زيد ولا عمرو، و لا...وغالب كلام العرب مبني على الإيجاز، والاختصار، وأداء المقصود من الكلام بأقل من عبارة [2] .

وقياسا على هذا يمكن القول إن الضمائر المنفصلة والمتصلة والمستترة[*] شبيهة إلى حد بعيد بأسماء الاستفهام والشرط، فلما أتحدث عن نفسي أقول: "أنا"، فالضمير "أنا" أغنى عن ذكر اسمي ولقبي، ولما أقول: "نحن" أكتفي به عن ذكر جميع أسماء من هم معي فلان وفلان، وكذلك مع الضمائر المتصلة فمثلا لما أقول: نجحا ونجحوا ونجحْن، فالألف والواو والنون أغنوا عن ذكر أسماء من نجح .

ونقل السيوطي عن ابن يعيش أنه قال: المضمرات وُضعت نائبة عن غيرها من الأسماء الظاهرة لضرب من الإيجاز والاختصار كما تجيء حروف المعاني نائبة عن غيرها من الأفعال فلذلك قلّت حروفها كما قلّت حروف المعاني ،و يوضع المفرد موضع الجمع والنكرة موضع المعرفة للعلم وطلباً للاختصار، ونظير هذا قولك: كلّ رجل يفعلُ هذا ،و الأصل كل الرجال يفعل هذا فاستخفُّوا فوضعوا المفرد موضع الجمع والنكرة موضع المعرفة لفهم المعنى وطلباً للاختصار (3)، ومثاله في القرآن قوله تعالى:﴿كلّ نفسٍ ذائِقَةُ الموت﴾، فكل من ألفاظ العموم تستغرق جميع النفوس ، فما من نفس مخلوقة إلا وستموت، سواء كانت نفس إنس أو جن أو حيوان أو نبات أو غيرها .

والإيجاز في الكلام بمثابة الملح والتوابل في الطعام، فليست العبرة بكثرة الطعام، وإنما بجودة صنعه وتحضيره، فرغم قلته إلا أنّه ينفرد بطعم ولذّة خاصة لا يتوفر عليها كثير الطعام والإيجاز << من أبرز خصائص اللغة العربية نجده في حروفها وألفاظها، وتراكيبها منطوقة أو مكتوبة>> [1]، ومن ذلك مثلا:<< أننا لو ترجمنا كلاما مكتوبا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية خُمْسُ الأصل أو أكثر>> [2].

---

[1] – الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 83.

[2]– ينظر: خزانة الأدب وغاية الأرب: تأليف تقي الدين أبي بكر، المعروف بابن حجة الحموي، بيروت، لبنان،نشر: عصام شعيتو، منشورات دار الهلال، ط:1، (1981م)، ج2، ص: 274.

[*] – الضمائر المتصلة: هي ما لها صورة في اللفظ، وتكون متصلة بالفعل نحو: التاء في قمّت، والواو في قاموا...

– الضمائر المنفصلة: وهي ما لها صورة في اللفظ إلا أنها منفصلة عن الفعل مثل: هو يسمع، أنتم، أنتن...

– الضمائر المستترة: وهي ما خفيت، ولم تظهر صورتها في اللفظ نحو: فعل الأمر "قم" الفاعل ضمير مستتر تقديره أنت...

3– الأشباه والنظائر ، ج1،ص35.

وابن الأثير يشبّهه بالجوهرة؛ بالنسبة للدراهم الكثيرة، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها، ولهذا سمَّى صلى الله عليه وسلم سورة الفاتحة بأم الكتاب، وإذا نظرنا إلى مجموعها وجدناه يسيرا وليست من الكثرة إلى غاية ما تكون بها سورة البقرة وآل عمران، فعلمنا حينئذ أنّ ذلك الأمر يرجع إلى معانيها وليس إلى ألفاظها [3].

كما ينبغي أن يكون الإيجاز وافيا بالمراد لفائدته، فإذا لم يف بالمراد كان إخلالا وحذفا رديئا كقول الحارث بن حِلْزة اليشكري:

وَالعَيْشُ خَيْـرُ فِي ظِلالِ **** النَّوك[*]مِمَّن عاشَ كَـدَّا.

يقول مصطفى المراغي: لا شك أنه يريد: والعيش الرغد الناعم خير في ظلال النوك والحمق من العيش الشاق في ظلال العقل، لكن لحن كلامه لا يدل على هذا إلا بعد التأمل وإمعان النظر(4)، وعلى هذا نتبين أن الإيجاز يحسن إذا كان ينمي عن مقدرة المتكلم، وتمكن من تحقيق مراده، وإلا فهو عَيٌّ : أي دلالة على ضعف في قدرة الباثّ على إيصال المعنى المراد[5]، والإيجاز عند علماء البلاغة نوعان: إيجاز قصر، وإيجاز حذف.

– إيجاز القصر:

وهو تقليل في الألفاظ وتكثير في المعاني [1]، وفي هذا النوع تُشْحَن الكلمات بمعان، تربو عن طاقتها العادية، والقارئ أو السامع يكتفي بها دون السعي إلى اكتشاف ألفاظ أو مفردات قد يظنها محذوفة، أو مُقدّرة، وهو ما يشبه جوامع الكلم الذي قال فيه رسول الله– صلى الله عليه وسلم- أُوْتِيْتُ جَوَامِعَ الكَلِم[**]،وَاخْتُصِر لِيَ الكَلامُ اِخْتِصَارا" [2].

---

[1] – ينظر: نحو وعي لغوي/، مازن المبارك، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، ص: 51.

[2] – المرجع نفسه، ص: 52.

[3] – ينظر: المثل السائر، ابن الأثير، ج2، ص: 68.

[*] – النّوك: بضم النون وفتحها: الحمق.

4– علوم البلاغة ، مصطفى المراغي ، 183 .

[5]– العقد الفريد: ابن عبد ربه، ص: 107.

العيّ": عكس البلاغة فهي (البلاغة) تعني القدرة على الإيضاح، وبلوغ القصد والهدف، وهو عدم القدرة على توصيل المقصود إلى المخاطب، لذلك قيل:

خير الكلام قليل *** على كثير دليل

والعي معنى قصير *** يحويه لفظ طويل.

1 – الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية، بيروت، لبنان، عالم الكتب، ص: 84، والصناعتين أبو هلال العسكري، ص:175.

والقرآن الكريم فيه المنزلة التي لا تُسامى، والغاية التي لا تدرك، ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [3]، يقول أبو منصور الثعالبي: "استقاموا" كلمة واحدة تُفصح عن الطاعات كلِّها في الائتمار و الانزجار، وذلك لو أنّ إنسانا أطاع الله مائة سنة ثم سرق حبَّةً واحدةً لخرج بسرقتها عن حد الاستقامة، ومن هذا أيضا قوله عز وجل: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُون﴾ [4].

فقد أدرج فيه ذِكْرَ إقبال كل محبوب عليه ،وزوال كل مكروه عنه، لأنَّ الحزن يتولد عن مكروه ماض أو حاضر، والخوف يتولّدُ من مكروه مستقبل، فإذا اجتمعا على امرئ لم ينتفع بعيشه بل يتضجّر بحياته [5]، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَاب﴾ [6]، فهذه الآية تُعدّ عند جميع البلاغيين أحسن نموذج لإيجاز القصر، وإعجابهم بها له أكثر من مبرر.

يقول مصطفى الصغير بناني:<< فهي تُلَخِصُ الإيجاز شكلا ومضمونا، وذلك أنّ لفظي قصاص وحياة يتضمّنان من المعاني أكثر ممّا يدلاّن عليه صراحة لإمكانية حملها على المعنى الظاهري والباطن معا، فالقصاص قد يكون معناه الحقيقي (القطع)، كما يمكن أن يكون بمعنى تطبيق الحدود الجزائية.

وكذلك لفظة "حياة" فإنها صالحة لأن تكون بمعنى الحياة الحقيقة المادية، وبمعنى الحياة المعنوية الروحية، ومهما يكن فإنَّ الجمع بين المعنيين في آن واحد قد يبدو لأول وهلة محالا لأنّ القطع أو القص لا يتأتيان مع الحياة والبقاء لتناقضهما، إلاّ أنّه وبعد التأمل، وإدامة النظر ندرك أنّ ذلك ليس تناقضا؛ وإنما حقيقة طبيعية وقانون كوني نشاهده في كل شيء فتقضيب الأشجار إنماء لفروعها وعقاب الظالم حماية لحقوق المظلوم>>[1]، كما أنَّ الحكمة تقتضي أنَّ قَتْلَ البعضِ إِحْياءٌ للجميع [2].

وهذه الآية الكريمة أبلغ وأوجز من كلام "أزدشير الملك"[*] حينما قال:" القتل أنفى للقتل" ففي كلام الله سبحان وتعالى ما في كلام أزدشير، وفيه زيادة معان حسنة إضافة

** – جوامع الكلم: الكلم جمع الكلمة، والجوامع جمع جامعة، والجامعة اسم فاعلة من جمعت فهي جامعة، والمراد بذلك أنه أوتي الكلم الجوامع للمعاني، المثل السائر، ابن الأثير، ج1، ص:65.

2 – علوم البلاغة، مصطفى المراغي، ص: 189.

3 – سورة فصلت: الآية: 30.

4– سورة البقرة: الآية: 262.

5– الإعجاز والإيجاز: أبو منصور الثعالبي، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي، ط2، (1403هـ، 1983م)، ص: 10.

6- البقرة : 179 .

1 – ينظر: النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ، من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني، بن عكنون، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، ط:(1944م)، ص: 169.

2- البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص: 229.*

إلى البُعد عن التكثير الذي يشق على النفس في قوله"[3].

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيْهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيْهَا وَلَا تَضْحَى﴾ [4]، يقول سعيد رمضان البوطي:<< تأمل في هاتين الجملتين، وألفاظها وكيفية صياغتهما وكيف أنهما جمعتا أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب ومأوى، وانظر كيف عبّر عن تأمين حاجته إلى المسكن والمأوى بقوله: "ولا تضحى" أي : لك ألّا تصيبك شمس الضحى، أو يؤذيك لفحها بما نهيؤه لك من المسكن الذي يأويك >>[5].

ومن الأمثلة كذلك قوله : ﴿خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِين﴾ [1]،

يقول ابن قتيبة: "تدبّر كيف جمع بهذا الكلام كل خُلُقٍ عظيم لأنّ في "أخذ العفو" صلة القاطعين، والصفح عن الظالمين، وإعطاء المانعين، وفي "الأمر بالعرف" تقوى الله، وصلة الأرحام وصون اللسان عن الكذب، وغض الطرف عن المحارم و....إلخ، وفي "الإعراض عن الجاهلين" الصبر، والحلم وتنزيه النفس عن مماراة السفيه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾[2]، كيف دلّ بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتا ومتاعا للأنام من العشب والشجر والحَبِّ والثَّمَر والحطب واللباس والنار، والملح، لأنّ النار من العيدان والملح من الماء"[3].

ومن كلام المصطفى-صلى الله عليه وسلم - الموجز البليغ قوله: "إِيَّاكُمْ وَخَضْرَاءِ الدِّمَن"

وقوله أيضا: "لَا يُلْدَغُ المؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْن"، وقوله: "لَا تَرْفَعْ عَصَاكَ عَنْ أَهْلِكَ"[4].

وهذا الضرب من الإيجاز لا يتأتّى إلا باللجوء إلى الوسائل البلاغية المختلفة كالمجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها، ومن ثَمّ لم يكن في متناول الجميع إلا لمن أوتي حظا وافرا من علوم البلاغة والبيان[*].

(*)- أزدشير: هو أحد ملوك الفرس اشتهر بالعدل والإنصاف وفي آخر حياته زهد حينما ظهر له غرور الدنيا، وتوج ابنه سابور، وأجلسه مكانه على السرير وأوصاه قائلا: يا بني "إن العدل والملك أخوان لا يفترقان"، وقد فاضل ابن القيم الجوزية بين هذه الآية، وقول أزدشير في كتابه الفوائد المشوق إلى علوم القرآن ص: 83، بأكثر من عشرة أوجه منها: 1: ألفاظ الآية أقل من ألفاظ أزدشير. 2: الآية بعيدة عن التكرار الموجود في قوله. 3: تتميز الآية بحسن التأليف وشدة التلاؤم.. 4: الآية بخلاف المثل فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون أدعى له،وهو القتل ظلماً ، 5: الآية مستغنية عن تقدير محذوف بخلاف قولهم فإنّ فيه حذف"من"التي يعد أفضل التفضيل. 6: الآية اشتملت على فن بديع وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء والموت محلاً ومكاناً لضده .

3- الإعجاز والإيجاز للثعالبي، ص: 11.

4 - سورة طه: الآية : 118-119.

5 - من ورائع القرآن: محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفارابي للمعارف، مكتبة الفارابي، ط1، (1425هـ/2004م)، ص: 172.

1- سورة الأعراف: الآية: 199.

يقول ابن الأثير في المثل السائر:<< هذا النوع من الكلام شريف لا يتعلق به إلا فرسان البلاغة ومن سبق إلى غايتها، وضَرَبَ في أعلى درجاتها بالقدح المعلّى، وذلك لِعُلُوِّ مكانه وتعذر إمكانه>>[5]، ومن أمثلة ما ورد عن العرب في هذا الفن رسالة طاهر بن الحسين إلى المأمون عند لقائه عيسى بن ماهان وهزمه إياه وقتله فكتب إليه:<<كتابي إلى أمير المؤمنين

ورأس عيسى بن ماهان بين يدي، وخاتمه في يدي وعسكره مصرف تحت أمري، والسلام>>[1].

وهذه الرسالة من الكتب المختصرة التي حَوَت الغرض المطول، وكذلك لما أرسل المهلب ابن أبي صفرى أبا الحسن المدائني إلى الحجاج بن يوسف يخبره أنّ الحجاج سأله فقال: <<كيف تركت المهلّب؟ فقال: أدرك ما أمّل وأمن ممّا خاف، فقال: كيف هو لجنده؟ قال: والد رؤوف ، قال: كيف جنده له؟ قال: أولاده بررة، قال: كيف رضاهم عنه؟ قال وسعهم بفضله، وأغناهم بعدله>>[2]، فصاحب هذا الحديث كما ترى أوتي عارضة من البيان، وله خبرة كبيرة بمسالك الوصول إلى المعنى من أيسر السبل، فعبّر بالقليل من اللفظ عن الكثير من المعنى .

وقال أعرابي:<< أما بعد: فَعِظِ النَّاسَ بِفِعْلِكَ، وَلا تَعِظْهُم بِقَوْلِكَ، وَاسْتَحِ مِنَ اللهِ بِقَدْرِ قُرْبِهِ مِنْكَ، وَخِفْهُ بِقَدْرِ قُدْرَتِهِ عليك ، وقيل لآخر يسوق مالاً كثيرًا: لمن هذا المال؟ فأجاب: لله في يدي >>[3].

فمعاني هذا الكلام أكثر من ألفاظها كما يرى العسكري<<وإذا أردت أن تعرف صحة ذلك فحُلّها وابنها بناء آخر فإنّك تجدها تجيء في أضعاف هذه الألفاظ >> [4].

2- إيجاز الحذف:

وهو ما يحذف منه كلمة واحدة أو جملة أو أكثر مع قرينة تُعيِّن المحذوف ولا يكون إلا فيما زاد عن لفظه[5]، وحذف المفرد أوسع مجالا من حذف الجملة إذ هو أكثر استعمالا وهو على صور[*]منها:

---

[2] – سورة النازعات: الآية: 31.

[3]– تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ) شرحه ونشره السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، ص: 4، .5

[4] – الإعجاز والإيجاز: أبو منصور الثعالبي، بيروت، لبنان، دار الرائد العربي، ط2، (1403هـ/ 1983م)، ص: 11.

الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار والمزبلة، وخضرة الدمن: مثل يضرب به لحسن الظاهر وقبح الباطن، أي احذروا من أن تخدعوا بما يترائ لكم، فليس من يعجب بالظاهر بحكيم، ويلدغ: يلسع ويعض، والجحر: مخبأ الهوام: أي أن الإنسان إذا أتته إذاية من جهة لا يصح أن يعود إليها ثانية، لا ترفع: لا تعل، عصا: آلة للضرب، عن: بمعنى على، أهلك: عشيرتك.

[*] – البيان: من الإبانة عما في النفس بألفاظ سهلة، بليغة وبعيدة عن اللبس والغموض.

[5] – المثل السائر: ابن الأثير، ج2، ص: 109.

6- المثل السائر: ج2، ص: 109.

1- المثل السائر: ج2، ص: 109

[2]– المصدر نفسه، ج2، ص: .109

- حذف المسند إليه - حذف الموصوف - حذف حروف المعاني
- حذف المسند - حذف الصفة - حذف جواب القسم
- حذف المفعول -حذف المضاف إليه - حذف جواب الشرط

أما حذف الجمل فهو أكثر ما يرد في القرآن الكريم، وفيه تتجلى مراتب الإعجاز ويظهر مقدار التفاوت في صنعة الكلام.

2-1- حذف المسند إليه: يحذف هذا الركن من الجملة لأسباب ودواعي منها:

أ- ظهوره بدلالة القرائن: وذكره حينئذٍ يُعَدُّ عبثا نحو قوله تعالى:﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [1]: أي أنا.

ب- ضيق المقام عن إطالة الكلام: إما لتوجّع وإمّا لخوف فوات فرصة، ومن أمثلة حذف المبتدأ لضيق المقام للتوجّع قول الشاعر[2]:

قَالَ لِي كَيفَ أَنتَ؟ قَلْتُ: عَلِيل **** سَهْرٌ دَائِمُ وَحُزْنٌ طَوِيلُ.

أي قلت: أنا عليل ومن أمثلة حذفه لضيق المقام خوفا من فوات فرصة قولنا عند رؤية شخص يكاد يغرق غريق..غريق..أي هنا أو هذا غريق.

ج- المحافظة على السجع في الكلام المنثور:

مثل قولهم: "مَن طَابتْ سَرِيرَتُه حمُِدَتْ سِيرَتُهُ" إذ لو قيل حمد الناس لضاع السّجع وهناك أغراض أخرى لا داعي لذكرها[3].

2-2- حذف المسند:أ- قصد الاختصار: والاحتراز من العبث وذلك **بعدم ذكر ما لا** ضرورة لذكره،وهذا من شأنه أن يُكسب الأسلوب قُوَّةً، ويضفي غليه جمالا، ومثال ذلك أن يسألك سائل فيقول:من عندكم؟ فتجيب: ضيفٌ، دون أن تعيد العبارة كاملة: عندنا ضيفٌ.

2-3- حذف المفعول:

يُحذف المفعول به من الكلام لدواعي وأغراض تقتضيها بلاغة الكلام وظروف المخاطبين (الباث والمستقبل) ، ومن اللطائف البلاغية التي يحذف من أجلها ما يلي :

---

[3]- المصدر نفسه ج2، ص: .109

[4] - المصدر نفسه ج2، ص:.109

[5]- في البلاغة العربية، علم المعان: عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط: (1405ه/ 1982م)، ص:175.

(*)- وفي هذا نجد صاحب نظرية اللغة الأدبية: خوسيه ماريا بوثويلو إيفاتكوس يقسم إيجاز الحذف إلى ثلاثة أقسام: 1: الحذف: يتمثل في اقتصاد عناصر الجملة التي تكون مطلوبة عادة، 2: الإضمار: وهو حذف كلمة أو مجموعة من كلمات ثم التعبير بها على شكل مطابق أو مشابه في جملة سابقة، 3: حذف حروف العطف، ترجمة: حامد أو أحمد، مكتبة غري، ص: 204.

1- الذاريات: الآية: .29

[2]- ينظر: ظاهرة الحذف في الدرس اللغوي، ص: 64.

[3] - المرجع نفسه، ص: 64.

أ- حذفه لإفادة **التعميم مع الاختصار** كقوله تعالى: ﴿واللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلام﴾[1]، أي: يدعو جميع عباده[2].

ب- الإيجاز والاختصار: نحو قوله تعالى:﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾[3]، أي أرني ذاتك.

2-4- حذف المضاف: وهو كثير ، قال الزركشي : قال ابن جني:<< إنَّ في القرآن منه زُهاء ألف موضع، واشترط المبرّد لجوازه وجود دليل على المحذوف من عقل أو قرينة، وهو عام في المحذوفات كما في المحذوفات التي مرّت معنا>>[4].

ومن أمثلته في القرآن الكريم: ﴿ولقد همَّتْ بِهِ وهَمَّ بِهَا﴾[5]، أي همّ بدفعها تنزيها ليوسف عليه السلام، وكقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[6]، أي من أثر حافر الرسول وهذا الضرب أكثر اتساعا[7].

مثال للحذف: قال تعالى: ﴿وَسِيْقَ الذَّينَ اتَّقَوا رَبَّهُم إِلَى الجَنَّةِ زُمَرًا حَتىَّ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِّحَت أَبْوَابُهَا وَقَالَ لهَم خَزَنَتُهَا سَلاَمٌ عَلَيْكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ([8])، في هذه الآية حذف الجواب، قال الزمخشري:<<"حتى" تُحْكَى بعدها الجمل، والجملة المحكية بعدها هي الشرطية إلاَّ أنَّ جزاءها محذوف، وإنَّما حُذف لأنّه ثواب أهل الجنة ؛فدلَّ بحذفه على أنّه شيء لا يُحيط به الوصف>>(9).

و حذف الجواب في مثل هذه المواضع له أثر تخيّلي في ذهن المتلقي؛خاصة وأنَّ المحذوف لا يحيط به الوصف فتطير العقول متصوّرة ماذا يجدُ المتَّقُون إذا دخلوا الجنة، وإن كان المبرّد

---

1 – سورة يونس: الآية: 25.

[2] – الإتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن (ت 911هـ)، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان ج3، ص: 192.

[3] – سورة الأعراف: الآية: 143.

[4] – البرهان في علوم القرآن: الإمام الزركشي، ج3، ص: 165 ومعنى اللبيب عن كتب الأعاريب: جمال الدين ابن هشام الأنصاري (ت761هـ)، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي، راجعه: سعيد الأفغاني، دار الفكر، بيروت، ط:6 (1985م)، ص: 814.

[5] – سورة يوسف: الآية: 24.

[6] – سورة طه: الآية: 96.

[7] – المثل السائر، ابن الأثير، ج2، ص: 93.

8– الزمر: الآية:73.

[9]– الكشاف، الزمخشري 149/4.

يُقَدِّر أنَّ المحذوف، "سَعدوا" أي: حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها سعدوا ،وقيل الجواب : وقال لهم" على زيادة الواو"(1) .

2-5- حذف حروف المعاني:

حروف المعاني هي الأخرى كثيرا ما تتعرض للحذف باعتبارها أدوات ربط بين الجمل مما ينتج نوعا من سرعة الإيقاع، وديناميكية التعبير، ويكون ذلك في الشعر و النثر[2].

ومن النصوص التي حُذفت منها أدوات الربط خطبة عبد الله بن مسعود –رحمه الله–<<مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى، نَفْسٌ تُنْجِيْهَا خَيْرٌ مِنْ أَمَارَةٍ لَا تُحْصِيْهَا، خَيْرُ الغِنَى غِنَى النَّفْسِ، خَيْرُ مَا أُلْقِيَ إِلَى القَلْبِ اليَقِيْنُ، الخَمْرُ جِمَّاعُ الآثَامِ، النِّسَاءُ حَبالَةُ الشَّيْطَانِ الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الجُنُونِ، حُبُّ الكِفَايَةِ مِفْتَاحُ المعْجِزَةِ، مِنَ

النَّاسِ مَنْ لَا يَأْتِي الجَمَاعَةَ إِلاّ دُبُراً (*)، وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ إِلَّا نَزْراً (**) أَعْظَمُ الخَطَايَا اللِّسَانُ الكَذُوبُ، سِبَابُ المؤْمِنِ فِسْقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْر>>[3].

فعبد الله بن مسعود حذف أدوات الربط في خطبته، فجاءت وجيزة بليغة، تعطي إيقاعا خاصا ونغما موسيقيا يشدّ انتباه المتلقي.

2-6- حذف الجملة:

قد تحذف الجملة برمتها من الكلام وذلك رغبة في الاختصار، كأن يسأل سائل فيقول: أسافر محمد؟ فتجيب: نعم، أو يقول: ألم يقم عمر؟ فتجيب: بنعم: إن أردت تصديق النفي،وبلى إن أردت إبطاله، ومنه قوله تعالى:﴿فانْفَجَرَت مِنْهَا اثْنَتَا عَشَرَة عَيْناً﴾ [4] فالفاء تدخل شيء مسببٍ عن شيء، ولا سبب إلا وله مُسبّبٌ أوجب المسبّب تقدير السبب ضرورة، فيُقدّر: فضرب فانفجرت[5].

---

[1]- البحر المحيط ، أبو حيان النحوي ، مج7، .425

[2] - بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل، ص: 276.

* - دُبراً: أي آخر الوقت.

** - نُزراً: أي لا يذكره إلا قليلا.

3 - البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص: 68.

4 - سورة البقرة: الآية: 60.

[5]- فقه اللغة وأسرار العربية: تأليف أبي منصور الثعالبي (ت430هـ)، منشورات دار الحياة، بيروت، لبنان، ص: 224.

وهذا النوع من الحذف (أي حذف الجملة) كثير في كلام العرب.

حذف الجمل:

تزداد نسبة الحذف في الكلام بدءاً من الحرف ثم الكلمة والجملة وصولا إلى الجمل والنصوص، ومن أمثلة حذف الجمل في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ قُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كذلكَ يُحْيِي الله المؤْتَى﴾ [1].

والتقدير:فضربوه فحيّ فقلنا:كذلك يُحي الله الموتى[2]، وقوله أيضا: ﴿فَأَرْسِلُوْنِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِيقُ﴾ [3].

والتقدير:فأرسلون إلى يوسف لاستعبره الرؤيا، فأرسلوه إلى ذلك، فجاءه وقال له: أيّها الصديق.....إلخ، و قال تعالى: ﴿وَ لَوْ شَاءَ اللهُ لجَمَعَهُم عَلى الهُدَى ﴾ [4]، والأصل" لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى

لجمعهم"، وقوله :﴿ وَلَو شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴾[5]، والتقدير" ولو شاء أن يهديكم جميعاً لهداكم " إلاَّ أنَّ البلاغة في أن يُجاء به كذلك محذوفاً" [6].

ومن الجمل المحذوفة في كلام العرب، ما رواه معن بن زائدة أنَّ أبا جعفر المنصور سأله : أيُّهُمَا أَحَبُّ إليك دولتنا أم دولة بني أميّة؟ فقال: ذاك إليك، وهذه العبارة لا يمكن التعبير عن معانيها إلاّ بألفاظ أكثر من ألفاظ صاحبها لأنّ معنى قوله "أحب إليك" أي زاد إحسانك عن إحسان بني أميّة فأنتم أحبُّ إليّ، ففي هاتين الكلمتين معنى عشر كلمات، وهي أوجز وأبلغ في موضعها [7].

والحذف يُتيح للحركة الذهنية أن تنشط وتمارس فاعليتها في استكشاف المحذوف ، وملء الفراغ كلُّ حسب تصوّره وفهمه.

---

[1] – سورة البقرة: الآية: 73

[2]– فقه اللغة وأسرار العربية، الثعالبي، ص: 224.

[3]– سورة يوسف: الآية: 73.

[4]– الأنعام: الآية118.

[5] – النحل: الآية 09.

6 – دلائل الإعجاز ، ص: 132.

7– ينظر: المثل السائر: ج2، ص: 118.

وهذا ما قصده الجرجاني حينما قال :إنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر و<<المحذوف متى أظهر صار الكلام إلى شيء غث لا يناسب ما كان عليه من الطلاوة والحسن>> [1].

فالإيهام يُؤدِّي إلى عدم التحديد، وهذا ما تختلف فيه العقول إلى أكثر من اتجاه، وهو الأمر الذي جعل علماء البلاغة يولون الحذف اهتماماً بالغا، ويحثون عليه خاصة في الأماكن المناسبة له .

ومن الذين تحدثوا عنه وبيّنوا فوائده الإمام الجرجاني في دلائل الإعجاز، فبعدما ذكر جملة من الأبيات المتنوعة والمتضمنة للحذف أشار في ختام تحليله لتلك الأبيات إلى دور المتلقي في عملية الاستكناه واستشعار جماليات الحذف.

<<فتأمّل الآن هذه الأبيات كلَّها وَاسْتَقْرِهَا واحداً واحداً وانظر إلى موقعها من نفسك، وإلى ما تجدُه من اللُّطْفِ و الظَّرْف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها ،ثم فليت النفس عمّا تجد ،و ألطفت النظر فيما تُحِسُّ به ،ثم تكلّف أنْ تَرُدّ ما حَذَفَ الشّاعر، وأن تُخْرِجَه إلى لفظك ،وتُوْقِعَه في سمعك، فإنّك تعلم أنَّ الذي قُلتُ كما قُلتُ، وأنّ رُبَّ حذفٍ هو قلادة الجِيد ،وقاعدةُ التَّجويد>>[2] .

ومن حذف الجمل في كلام العرب أيضا ما رواه الجاحظ أن المهاجرين قالوا: يا رسول الله ،إنّ الأنصار فضلونا بأنهم أووا ونصروا، وفعلوا وفعلوا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتعرفون ذلك لهم؟ قالوا: نعم، قال: "فإنّ ذاك" ليس في الحديث غير هذا، يريد أنّ ذاك شكر ومكافأة.

ولما كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب في أمر الطاعون، قرأ عمر الكتاب واسترجع[*] فقال له المسلمون: مات أبو عبيدة؟، قال: "لا وكأنّ قد"[3].

ففي كلام رسول الله وخليفته عمر حذف لغالبية الكلام، ولم يبقيا إلاّ على حروفٍ بيَّنت للمسلمين المعنى المراد، وحذفها هذا اقتضته بلاغة الكلام، لعلم رسول الله، وعمر، ودرايتهم التامّة بنفسية مخاطبيهم، ودقائق أحوالهم وظروفهم، وثقة منهم بفهمهم حذفوا ما شاؤوا، وتحقّق لهم ما أرادوا.

فالمسلمون انطلقوا من البنية السطحية للنص، التي هي عبارة عن حروف فقط، ومن سياق الكلام استطاعوا أن يتوصّلُوا إلى بنيته العميقة، وهو ما أراده رسولهم صلى الله عليه وسلم، وخليفته عمر، فتحقّق التواصل بأسمى مراتبه وبأقلّ جهد وتكلفة، وحذف الجمل كثير في الذكر الحكيم ، وخاصة في قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم.

جمالية الإيجاز الفنية والبلاغية:

يعدّ أسلوب الإيجاز أحد أساليب اللغة العربية الممتع والمميّز، وما أكسبه هذه الميزة هو قيمته التعبيرية الشيّقة.

كما تتجلى فاعليته البلاغية في العملية التواصلية، حينما يتم التعبير عن المعاني الكثيرة بألفاظ قليلة، وهو ما يلائم طبيعة الإنسان التي تميل إلى تقليص النشاط الذهني والجسدي للحد الأدنى، بحيث لا يكلّف الإنسان نفسه وفقه إلا بالمقدار الذي يبلّغ به أهدافه المرسومة[1].

---

[1]- المثل السائر 2/ 279..

[2] – دلائل الإعجاز، عبد القاهر بن عبد الرحمان الجرجاني ، اعتنى به محمد زينو، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، (1426هـ2005م)، ص:123

[*] – استرجع: أي قال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

[3] – البيان والتبيين: الجاحظ، ج2، ص: 206.

وقد ذكر الجاحظ << أنّ أحسن الكلام ما كان قليلُه يغني عن كثيره>> [2] وهذا دليل على علم ودراية العرب بأهمية وفاعلية هذا الضرب من الأساليب في التواصل البشري بحيث يُعبّر المرسل عن أفكاره ورؤاه وحاجات مجتمعه المتغيّرة والمتجدّدة بأقل جهد ممكن.

ولسمو مرتبته، وعلوّ شأنه <<عدّه بعض العرب مرادفا للبلاغة التي هي مطابقة الكلام لما يقتضيه حال الخطاب، مع فصاحة ألفاظه مفردها ومركبّها فقال: البلاغة الإيجاز فقيل له: ما الإيجاز؟ قال: حذف الفضول وتقريب البعيد، أي فضول الكلام وهو الزائد الذي يُفْهم المعنى المراد من دونه>>[3].

---

[1] – ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه مارتيني، ص: 153.

[2] – ينظر: علم البيان بين النظريات والأصول، ديزيره سقال، دارالفكر العربي، بيروت، ط:1، (1997م)، ص: 20.

[3] – الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص: 173، والعقد الفريد: ابن عبد ربه، ص: 105، وجواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد الهاشمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط:12، ص: 33.

وسمع رسول الله –ص- رَجُلاً يقول لرجل: كفاك الله ما أهمّك.فقال:هذه البلاغة [1]، ولأنه أسلوب يجمع المعاني العديدة في عبارة وجيزة،<< كانت الحكمة مرادفة له لأنّها تجمع في ألفاظ قليلة حقائق كثيرة>> [2].

إضافة إلى هذا أنَّ مثل هذه التعابير الجاهزة <<كالحكمة والمثل التي تتميّز بالإيجاز يسهُل استخدامها في الوقت المناسب، كما أنها ذات تأثير قوي على المتلقي>>[3]، ويستأثر هذا النمط من أنماط التعابير أيضا بفائدة تعليمية كبرى، وهي سهولة الحفظ والاستظهار فالخطب الطوال كما يقرر الجاحظ<< ليس فيها شيء يستحق الحفظ، وإنّما حظّها التخليد في بطون الصّحف، أما الخطب القصار فإنّ رواة العلم إلى حفظها أسرع>>[4].

ومن هذا يبدو أن هناك ارتباطا وصلة وثيقة بين الإيجاز كأسلوب بلاغي وقضايا التعليم والتواصل، وما يشهد ويؤكّد فعاليته هو تجربة فحول الأدباء والشعراء، فهذا الفرزدق يُجيب حينما سُئِل:<< ما صَيّرَكَ إلى قصار القصائد بعد الطوال؟ فقال: لأني رأيتها في الصدور أوقع، وفي المحافل أجول>> [5].

<< وقيل لبعض المحدِّثين مالك لا تزيد عن أربعة واثنتين؟ فقال: هنّ بالقلوب أوقع، وإلى الحفظ أسرع، وفي الألسنة أعلق، وللمعاني أجمع، وصاحبها أبلغ، وأوجز>> [6].

وليس معنى هذا أننا نقصي أسلوب الإطناب، ولا فائدة فيه في مجال التعليم والتواصل – سواء المباشر أو غير المباشر– وإنما يفضل الإيجاز ويُستجب استخدامه في الحياة اليومية للمتكلمين متى حقّق أهدافه المتوخّاة، وإلاّ تجاوزناه إلى غيره في سبيل إفهام المخاطب وتحقيقا لتواصل أفضل، مستخدمين في ذلك أفضل سبل الإقناع والتأثير في الطرف الآخر لأنّه قد يكون الحق معنا ولا نحسن تقديمه للآخرين فنبدوا وكأنّنا على خطأ، وقد يكون الباطل مع غيرنا لكنهم يحسنون تقديمه لغيرهم فيبدو الحق في صورة الباطل،و الباطل في صورة الحق.

---

[1] – الصناعيتين: أبو هلال العسكري، ص: 173، والعقد الفريد: ابن عبد ربه، ص: 105.

[2]– البيان والتبيين: الجاحظ، ج1، ص: 153.

[3] – البيان والتبيين: ج1، ص: 7، 8.

[4] – المصدر نفسه، ج2، ص: 08.

[5] – الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص: 174.

6 – المصدر نفسه، ص: 174.

وباتِّباع إحدى الأسلوبين مع الحجة والبرهان يمكن التأثير والإقناع، وعلى المرسل أو المتكلم ألاّ ينحاز لواحد دون الآخر، وإنّما يستخدم كل أسلوب في الموقف أو الظرف الذي يراه مناسبًا <<فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة في الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن وجهته واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ >>[1].

فإذا كان المرسل يريد إيصال فكرة معينة إلى صنفين من الناس أحدهما سريع الفهم والثاني ليس كذلك، فعليه أن يوجز للفئة الأولى، ويشرح ويفصّل للفئة الثانية حتى تفهم، وبهذا يكون قد أوصل رسالته بالأسلوب المطلوب، فكلا الطريقتين في موضعهما المناسب هو اقتصاد، وروي عن جعفر بن يحي أنه قال:<< متى كان الإيجاز أبلغ كان الإكثار عيا، ومتى كانت الكناية في موضع الإكثار كان الإيجاز تقصيرا>> [2].

<< وقد رأينا الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب فرسان البلاغة، وأرباب البيان،أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعل الكلام
مبسوطاً .... وها هو ذا عمر بن عبد العزيز يقول لرجل أحسن في طلب حاجته وتأتّى لها بكلام وجيز ومنطقٍ حسن: هذا والله السِّحر الحلال>>[3].

فشدّة إعجاب الأمير بهذا الكلام الذي يأخذ بالألباب ويشدّ بالسّحر الذي يؤثّر في أسماع وأبصار، وأفئدة المتلقين، فيأخذ عليهم عقولهم، ويجعلهم مذهولين أمامه، معجبين به، وزيادة على ذلك أنه حلال فهو ليس كالسحر الحرام، بحيث يستحب التماسه، والبراعة فيه.

كما أن الألفاظ والمعاني التي رُكّبت منها هذه الرسالة كانت مطابقة لبعضها البعض متميّزة بالخفّة والاقتصاد، وذلك لم يكن ليتأتّى له إلاّ بحسن انتقائها وتركيبها مع بعضها البعض في سياق واحدٍ حتى تجلب لصاحبها المعاني الشوارد التي لا يمكن إلا التخليد الإحاطة بها، لأنّها كثيرة لا تحصى أو أنّها حادثة تتجدّد كل يوم"[4].

كما تتجلى فاعلية الإيجاز في سرعة التواصل، فهو يراعي البعد المكاني، ومنه يتعيّن على

---

[1] – الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص: 190.

[2] – المصدر نفسه، ص: 190.

[3]– المصدر نفسه، ص: 190.

[4] – النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية: محمد الصغير بناني، ص: 256.

الباث أو المرسل التقصير من حجم رسالته قدر المستطاع خاصة إذا كان ذلك يكلّفه جهدا أومصاريف.

وقد قال جعفر بن يحي لكُتابه:<< إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا>>[1]. وهو بطبيعة الحال يقصد بالكتب الرسائل، فالمسافة الطويلة وعناء السفر، ومخاطره جعلته يوصى كتابه بالتقليل من حجم رسائلهم، لدرجة أنه لو كان بمقدار الواحد منهم أن يختزل كل أقواله في توقيع لكان ذلك أفصل وأحسن.

ويفهم من هذا أن التوقيع إذا كان متفقا عليه بين طرفي العملية التواصلية فهو رسالة، ويؤدي اتصالا جيّدا، وذلك لأنه غير مكلّف من جهة، ولا يُفهم من طرف غير المعني ،فهو أحفظ و أأمن في نقل الأخبار من جهة أخرى.

وهو لغة ما دام أنه حامل لمعنى أو معان متّفق عليها، وهذا يوضّح مدى عناية العرب وإحاطتهم بوسائل التعبير، فكل وسيلة أو طريقة تم بها التواصل في موقف معيّن، فهي أسلوبهم المفضّل.

وهذا ما توصل إليه فعلا علماء اللسانيات في العصر الحديث، بل و<< راح مهندسوا المواصلات السلكية، واللاسلكية في هذا الزمن يبحثون عن أيسر السبل، لتقليل المصاريف وربحا للوقت فقدّم مندلبورت (1954م) فكرة تخفيض تكاليف الاتّصال للحدّ الأدنى MINIMISATION DE COUT "فكرة تخفيض تكاليف التشفير، وفكّ التشفير، وانطلاقا من افتراض أن تكلفة كلمة- مكتوبا أو منطوقا- توصّل إلى أن استعمال كلمة طويلة تكلّف أكثر من كلمة قصيرة من جهة المصاريف، وبذل الجهد أكبر حين التلفظ بها أو تدوينها. وللتخلص من ذلك (أي من كثرة المصاريف) يتمّ البحث عن زوايا إضافية مثل استعمال الكلمات القصيرة بدل الطويلة ما دامت تحمل نفس المعنى>>[2].

وبالإضافة إلى ما ذكرته في فاعلية الإيجاز هناك جانب مهمّ، وميزة خاصة ينفرد بها هذا الأسلوب الاقتصادي،<< وهو المحافظة على نشاط السامع، وشدِّه إليه، وذلك أن الكلام متى كان موجزا دون إخلال، ومؤديا للغرض، وموصلا للمعنى بأقصر عبارة، كان أدعى

1- الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص: 173.

2 - ينظر: مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه ماتيني، ص: 157، واللغة والاقتصاد: فلوريال كولماس، ص: 303، 304.

للمحافظة على نشاط المتلقي في متابعته وإبعاد السأم والملل عنه، وعندئذ يكون النص أكثر قابلية على التأثير>>[1].

وقد أدرك القدامى من علماء اللغة العرب هذا العامل، وبيّنوا قيمته وما يجب على المتكلمين في الكلام، فقال أبو هلال العسكري:<< للكلام غاية، ولنشاط السامعين نهاية وما فَضُل على مقدار الاحتمال دعا إلى الاستقلال، صار سببا للملال، فذلك هو الهذر(*) والإسهاب(*)، والخطل (*) وهو معيب عند كلِّ لبيب>>[2].

فالزيادة في الكلام من دون حاجة حسب رأيه، تجعل المتلقي يستثقل كل زائدٍ وتسبب له الملل، والضجر فينتج عنه الخلل في التواصل، إن لم يؤدِّ إلى قطعه نهائيًّا، وهو أمر لا يفضله العقلاء ولا يقبل به مَنْ له نصيب من البلاغة والبيان ، وهذا ما جعل العرب تدعوا إلى الابتعاد عن كل إطالة لا فائدة من ورائها في المقولة الشهيرة "خير الكلام ما قلّ ودلّ وجلّ ولم يملّ" [3].

وفي هذا المقام ينبغي أن نفهم أن الإطناب في موضعه لا يتعارض والنزعة الاقتصادية للغة قال أبو هلال العسكري:<< والإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام وكل نوع منه ولكل واحد منهما موضع ، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه>>(4) .

فلكل جنس من القول أسلوب يناسبه، ولا شكّ أنّ في <<الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة والفتوح الجليلة، وتفخيم النعم الحادثة والترغيب في الطاعة والنهي عن

---

[1] – ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، مجيد عبد الحميد ناجي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، (1404هـ/ 1984م)، ص: 127.

*– الهذر بفتحتين هو الهذيان وهو هذِر: أكثر في كلامه، مختار الصحاح، أبو بكر الرازي (ت666هـ) مادة: هذر، ص: 595.

* – الإسهاب: الإطالة، والإطناب في القول.

* – الخطل: المنطق الفاسد المضطرب، وقد خطل في كلامه: أي أفحش.

* – كل لبيب: كل عاقل.

[2] – الصناعتين: أبو هلال العسكري، ص: 180.

[3] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني(ت 456هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ج1، ص:246.

4- الصناعتين : ص171 .

المعصية، سبيلها أن تكون مُشبعة مستقصاة، تملأ الصدور وتأخذ بمجامع القلوب>> (1) .

وبعد هذا يذكر العسكري عدة أقوال وخطب لملوك وأمراء ثم يعلّق عليها قائلا" فالإطناب بلاغة والتطويل عي، لأنّ التطويل بمنزلة سلوك ما يبعُد جهلا بما يقرُب، والإطناب بمنزلة سلوك طريق بعيد نَزِه يحتوي على زيادة فائدة ... والإطناب إذا لم يكن منه بدّ إيجاز، وهو في المواعظ–خاصة – محمود كقوله تعالى:﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَّأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَو أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَن يَّأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاّ القَوْمُ الخَاسِرُون ﴾(2) .

الإشارة: Gesture:

تعتبر الإشارة من الأدوات الخارجة عن اللغة، تُتّخذُ كوسيلة اقتصادية حيث يمكن أن تساعد على فهم مقصد المتكلم، وهي الإيماء والوحي وقوله:<< فأوحى إليهم أي أشار إليهم والعرب تقول: أوحى إليّ وأومأ وومى بمعنى واحد>>[3].

وعرّفها الباقلاني بأنها " اشتمال اللفظ القليل على المعاني الكثيرة"(4) ومثّل لها بقوله تعالى:﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ المَوْتَى﴾(5)، وتكون الإشارة عادة إلى شيء ما<< باليد وبالرأس، وبالعين والحاجب والمنكب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب وبالسيف، وقد يتهدّد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرا ومانعا رادعا، ويكون وعيدا أو تحذيرا>> [6].

وتعتبر وسيلة من وسائل الاتصال الحركي الذي يستغني جملة وتفصيلا عن الكلام وتستخدم في مواقف وظروف نيابة عن الكلام، كونها توصل المعنى كما يريده صاحبه وتؤثر في الآخرين سواء تمّ الاتصال بشكل فردي أو جماعي وجها لوجه، أو عن بُعد

1- الصناعتين : ص171 .

2- الأعراف : 97، 99 .

3- معاني القرآن، الفراء، عالم الكتب، بيروت، (1403ه/1983م)، ط3، ج2، ص: 163.

4- إعجاز القرآن ، الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403ه)ط،(3 1415ه/ 1994م) ، دار إحياء العلوم بيروت – لبنان ،، ص 138 .

5- الرعد :31 .

6 – البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 7.

كما أنها تستخدم كمساعد للفظ خلال عملية التواصل، ولذلك قيل:<< الإشارة واللفظ شريكان نِعْمَ العونُ هي له، ونِعْم الترجمان هي عنه>> [1]، ذلك أنه في كثير من المواقف قد تكمل ما نقص من اللفظ، أو توضّح ما غمض منه، أو تقود إلى المراد من اللفظ الذي صاحبته.

وقد وعى رواد التراث العربي هذا الجانب وعيا كبيرا، فمن ذلك ما أورده الجاحظ في قوله:<<دخل الأحنف بن قيس على معاوية بن سفيان، فأشار له إلى الوساد وقال له: اجلس..>> [2]، الرواية طويلة، لكننا أوردنا ما يخدم مقصدنا فقط، فقول معاوية: اجلس وهو يقصد اجلس على الوساد، مستخدما الإشارة إلى الموضع الذي كان يريده، فكانت وسيلة ساعدت على بلوغ المعنى المراد، ومن أجل ذلك قيل<< وحسن الإشارة باليد والرأس، من تمام حسن البيان>>[3]، بمعنى أن ما يحقق البيان أكثر هو صدور القول مرافقا للإشارة التي تبين المعنى حينا، وتزيد من إبانته أحيانا أخرى.

وهي تختلف باختلاف الثقافات من بلد لآخر فمثلا:<< الإشارة بالأصبع تدل على أنك تحتقر الشخص الذي أمامك وفقا للثقافة الصينية، والإشارة بالأصبع الأكبر تعبر على أنك راض تمام الرضا وفقا

للثقافة الأمريكية، وهزّ الرأس يعني أنك غير موافق وفقا للثقافة الفرنسية، في حين تعني أنك موافق في الثقافة العربية والهندية>>[4].

وتدرج الدلالة الإشارية العضوية حديثا ضمن ما يسمى اليوم بعلم الحركة الجسيمة (la kinésique- علم الكينات) و<< علم الكينات هو مجموع نشاطات الإنسان الحركية الإرادية، التي تتنوع بطبيعتها وشكلها من ثقافة إلى أخرى (إشارات، حركات)

---

[1]- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 78.

[2]- المصدر نفسه، ج1، ص: 53.

[3]- المصدر نفسه، ج1، ص: 79..

[4]- ينظر: التواصل الفعّال، سلسلة الإدارة المثلى، مكتبة لبنان، ط:1، (2001م)، ص: 12، والتواصل غير الكلامي بين الخطاب العربي القديم والنظر الراهن، الفكر العربي المعاصر، محمد نادر سراج، مركز الإنماء القومي لبنان، رقم 80، 81 سبتمبر، أكتوبر، (1990م)، ص: 84، وأسس تعلم اللغة وتعليمها، دوجلاس براون، تر: عبد الراجحي، و علي أحمد شعبان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (1994م)، ص: 258.

والإشارة أنواع مختلفة، وضعيات الجسم المختلفة)>>[1]، منها ما يستعمل للقريب، ومنها ما يستعمل للبعيد بحسب الأغراض << فأقرب المفهوم منها رفع الحواجب، وكسر الأجفان، وليّ الشفاه وتحريك الأعناق، وقبض جلدة الوجه، وأبعدها أن تلوي بثوب على مقطع جبل تجاه عين الناظّر>>[2].

فطبقة الحركات التي تتمّ عن قرب حسب رأي الجاحظ هي:

- رفع الحواجب -كسر الأجفان- ليّ الشفاه - تحريك الأعناق- قبض جلدة الوجه.

أما طبقة الحركات التي تتمّ عن بعد فهي:

- لوي الثوب، وباليد، وبالسيف والسوط[3].

والإشارة مثل اللفظ تتعدد وتتغير مدلولاتها، فقد تدل إشارة اليد على أمر بالتوقف عن الحديث أو عن الصمت أو عن الانصراف أو غير ذلك، فقد روى الجاحظ أن رجلا من أهل العسكر نزل<< وغدا بين يدي المأمون، وشكا إليه مظلمته فأشار بيده: أنْ حَسْبُكَ فقال بعض مَنْ كان بقرب المأمون، يقول لك أمير المؤمنين: اركب، فقال المأمون لا يقال لمثل هذا اركب ،وإنما يقال له انصرف>> [4].

وربما أدّت حركة وضع اليد على الفم معنى قريب وهو "الصمت "...قال عيسى بن عمر:<< قال لي ذو الرمة ارفع هذا الحرف، فقلت له: أتكتب؟ فقال بيده على فيه، أي : اكتم عليّ فإنه عندنا عيب>> [5].

فقد دلّت الإشارة باليد على الأمر بالتوقّف عن الكلام، ودلّ وضع اليد على الفم على الأمر بالصمت والكتمان، فالمعنيان متقاربان مع فارق بسيط، وهذا شبيه بما نلاحظه في اللغة من تقارب بعض ألفاظها في دلالاتها.

—

1- rey débove, la sémiotique. Presses universitaires de France ; p u f ; 1ère édition ; Paris 1979, p 68.

2 – الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط:3، ج1، ص: 48.

3 – ينظر : البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 77.

4 – المصدر نفسه، ص: 378.

5 – الشعر والشعراء، ابن قتيبة، دار إحياء العلوم، بيروت، ط5، (1994م)، ص: 525.

أمّا إشارة العين فهي تؤدي معنى بعيدا عن ذلك، قال الشاعر:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيْفَةَ أَهْلِهَا *** إِشَارَةَ مَذْعُورٍ وَلَمْ تَتَكَلَّم

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَالَ مَرْحَبَا *** وَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالحَبِيْبِ المُتَيَّم[1].

فالإشارة هنا أبلغ حيث دلّت على الترحيب وحسن الاستقبال، وجرى بها التواصل في موقف لا يمكن فيه اللفظ أو الكتابة.

ومن خلال ما سبق نستنتج أن الإشارة قد تكون بحركة، وقد تكون بأكثر من ذلك، ويكون مجموع الحركات المستخدمة لإيصال رسالة ما، ثم ترتيبها بطريقة مخصوصة هو المواصل إلى المعنى ثم تكرار نفس الإشارة في المواقف المشابهة وثبوتها كلما تكرر ذلك الموقف هو الذي يجعلها ذات صورة معروفة كما عبّر عن ذلك الجاحظ[2].

والحقّ أنه قد يلجأ إلى الإشارة في مواقف كثيرة، لأداء معاني أدق من أن يؤديها اللسان، وذلك أنها تختص بميزات لا توجد في اللسان ففي<< الإشارة بالطرف والحاجب وغيرها من الجوارح مرفق كبير، ومعونة

حاضرة في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخفونها من الجليس وغير الجليس، ولولاها لم يتفاهم الناس خاص الخاص>>[3].

فقد تستعمل للتفاهم بين شخصين أو أكثر في وجود مجموعة من الناس بحيث لا يصل المعنى إلا إلى الشخص المقصود بالذات، فيكون بذلك معنى خاص بهما فقط لا يتلفت إليه أشخاص آخرون غير باث الرسالة ومستقبلها، وهو موضع يتطلب الإشارة، ولا يمكن أن تتولاها اللغة، خصوصا المنطوقة منها إلا إذا كانت همسا، وفي هذه الحالة قد ينتبه الجلوس أو الحضور إلى حديث الشخصين الهامس والمستمع له.

ولأهميتها كان رسول الله- ص- يوظّفها مع الكلام نحو قوله:<< بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار بالسبابة والوسطى>>، وقال:<< الإيمان هاهنا وأشار بيده إلى القلب>> وغيرها كثير وجاءت في القرآن الكريم حاملة لأسمى الدلالات ومحققة لأعلى الغايات نحو

---

[1]- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 78.

[2]- ينظر: التواصل غير الكلامي، محمد نادر سراج، الفكر العربي المعاصر، رقم 80-81، سبتمبر،أكتوبر، (1999م)، ص:87،88.

[3]- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 78.

قوله تعالى:﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ المَوْتِ ﴾[1]، ومن أنواع الإشارة التفخيم والإماء، فأما التفخيم كقوله تعالى: ﴿ القارعة ما القارعة ﴾ [2].

وأما الإيماء كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ اليَمِّ مَا غَشِيَهُم﴾ [3]، قال صاحب روائع البيان في إعجاز القرآن قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَبِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (4)، وقال:﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(5)، هاتان الآيتان مع قصرهما، وقلة ألفاظهما إلاَّ أنهما يعتبران في قمة البلاغة الدالة على إعجاز القرآن الكريم حيث تضمنتا الإشارة في إيجاز إلى كثير من العلوم التي استنبطها العلماء من القرآن الكريم (6).

ففي القرآن إشارات إلى كثير من العلوم وخصائص المخلوقات ومنافعها ، وقد تترجم الإشارة من المعاني، والظروف والأحوال النفسية ما لا تستطيعه الألفاظ والكلمات، قال الشاعر:

وَعَينُ الفَتَى تُبْدِي الّذِي فِي ضَمِيرِهِ *** وَتَعْرِفُ بِالنَّجْوَى الحَدِيْثَ المعَمّسَا[7].

وقال آخر:

العَيْنُ تُبْدِي الَّذِي فِي نَفْسِ صَاحِبِهَا *** مِنَ المحَبّةِ أَوْ بُغْضٍ إِنْ كَانَا

ًوالعَيْنُ تَنْطِقُ وَالأَفْوَاهُ صَامِتَةُ *** حَتّى مِنْ ضَمِيرِ القَلْبِ تِبْيَانَا[8].

فالإشارة تفصح عمّا بخاطر الإنسان وما يكنّه لغيره من محبة أو كره، وتترجم الخواطر التي ربما تعجز الألسنة عن تبليغها، فهي تغني في بعض المواقف عن كل الكلام.

ولهذا اعتبرها فندريس لغة ما دامت تستخدم في توصيل الأفكار بين المتخاطبين، حيث يقول:<< كلّ ما بوسعه أن يستخدم كوسيلة للتواصل، فعطر ينشر على ثوب أو منديل

1- البقرة: الآية 19 .

2- القارعة: الآية2./1

3- طه: الآية :.173

4- الأنعام28 .

5 -النحل 89 .

6- روائع البيان في إعجاز القرآن، محمد سالم الحسين، دار محيسن للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، ط1، (1423ه)، ص55 .

7- الحديث المعمّس: الحديث الغامض.

8- البيان والتبيين، الجاحظ، ج1، ص: 58.

أحمر، أو أخضر يطل من جيب سترة، أو ضغطة على اليد يطول أمدها أو يقصر، كلّ هذه تكون عناصر من لغة ما دام هناك اتفاق بين المرسل والمرسل إليه على معانيها>>[1].

ومن هنا يبدو أثرها في العملية التواصلية واضحا بحيث نجدها أكثر وأحسن اقتصادا من الآليات المذكورة سابقا، فهي البيان من غير لسان، فأثناء استخدامها في التعبير لا تنطق بتاتا، فهي تبلغ المعاني لأصحابها دونما كلفة أو مشقة ولذلك قيل:<< البلاغة لمحة دالة على ما في الضمير>> [2] وقالوا: ربّ إشارة أبلغ من عبارة [3].

الصمت واقتصاد الأداء :

الصمت هو الإمساك التام عن الكلام أو عن بعض منه ، ولا يكون الصمت آلية من آليات اقتصاد اللغة يؤدي وظيفته التواصلية في مطلق الأحوال، وإنما ثمّة مواطن وظروف يكون فيها أبلغ وأوجز.

يتضح ذلك من قول الجرجاني في ثنايا حديثه عن الحذف<< فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصّمت عن الإفادة أفيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن>>[4]، ويمكن تمثيل جدلية الصمت والكلام في العملية التواصلية بالمخطط التالي:

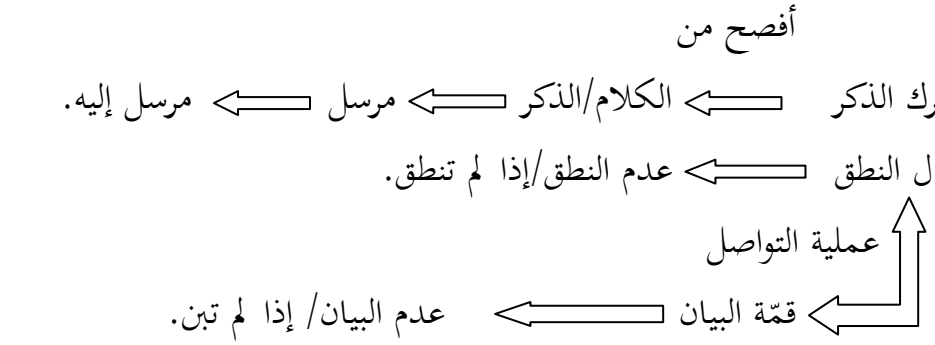

1- ينظر: اللغة، لجوزيف فنرديس، تعريب: الأستاذين: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، (1950م).

2 – العقد الفريد، ابن عبد ربه، ص: 107.

3- الخصائص، ابن جني، ج1، ص: 81.

4- دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني، ص: 149.

وإذا لم يحقق الصمت غرضه في العملية التواصلية، فتركه أوْلى، ونذهب إلى الذكر والإفصاح بوسائل أخرى كالإشارة أو الكلام .

والصمت في المواطن التي يجب فيها الذكر دليل على العي، وعدم القدرة على الإفصاح وتوصيل المعلومات بطرق أخرى، وإذا كان المقام يتطلب الإمساك عن الكلام ولم يلتزمه المتكلم فهو جهل بما يناسب المقامات.

وهو<< خاص بالنسّاك والمتعبّدين، لأن التخلي عن الكلام عند هؤلاء معناه الاتصال المباشر بالمعاني والحقائق، وشتّان بين من يدرك الحقائق بنفسه ومن يدركها بواسطة غيره>> [1].

ونظرا لقيمته الفنية البلاغية عدّه ابن المقفع وجها من وجوه البلاغة؛ حيث قال:<< البلاغة اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة. منها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع. >>[2].

يوضح أبو هلال العسكري معنى هذا القول"ومنها ما يكون في السكوت" السكوت يسمى بلاغة مجازا، وهو في حالة لا ينجح فيها القول ولا ينفع فيها إقامة الحجج، إمّا عند جاهل لا يفهم الخطاب، أو وضيع لا يرهب الجواب، أو ظالم سليط يحكم بالهوى، ولا يرتدع بكلمة التقوى، وإذا كان الكلام يعرى من الخير، أو يجلب الشر فالسكوت أولى"[3]، وروي أنَّ الإمام الشافعي- رحمه الله- خاصمه شخص فلم يرد عليه لعلمه بطبيعة الخصم ، فتعجب الناس كيف لا يرد على مَنْ خاصمه فقال:(4).

قالُوا سَكَتَّ وَقَدْ خُوصِمْتَ قُلْتُ لهم **** إِنَّ الجَوابَ لِبَابِ الشَّرِّ مِفْتَاحُ

وَالصَّمْتُ عَنْ جَاهِلٍ أَوْ أَحْمَقٍ شَرَفٌ **** وَفِيهِ أيضا لِصَوْنِ العِرْضِ إِصْلاحُ

ومن أبرز مظاهر الاقتصاد الأدائي في السرد القرآني تركه لتلك التفصيلات التي يدركها المتلقي عبر المشاهد المعروضة ، وبهذا يحقق السرد اقتصادا فنيا في التعبير ، وخفة أسلوبية في العرض، وكثيرة هي المواقف التي سكت عنها القرآن الكريم وضرب عنها صفحا

---

[1] -النظريات اللسانية والبلاغية، محمد الصغير بناني، ص: 271.

[2]- الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 14.

[3]- الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص: 14.

4- ديوان الإمام الشافعي ، لأبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي (150هـ-204) دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، ص40.

لأغراض بلاغية، ومثال ذلك تركه تفاصيل القصص، والحديث عن ما يخدم الموضوع فقط ففي قصة يوسف الصديق- عليه السلام- اختزل النص تفاصيل الخُطّة التي اتفق عليها إخوته، وما دار بينهم من حوار، والطريقة التي رموه بها في الجب والمكان والزمان الذي نفذوا فيه جريمتهم، وما كان منه من نجدة واستغاثة وخوف ووحشة و...فالسرد سكت عن كل هذا وعن غيره، ولم يبرزه للعيان، مما جعل التعبير يتسم بالإيجاز والاختصار .

وقد يتمّ إرجاء الذكر، ويُفضّل الصّمت على البيان في بداية القصة، لأنّ النهاية تتضمن التصريح بالمسكوت عنه، وقد روعي هذا الأسلوب في مشهد الحوار الجاري بين موسى وفتاه ،عندما عزم السفر إلى مجمع البحرين، قال تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البَحْرَينِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبَا ﴾([1])، فقام السرد بـ<< حذف الغرض الذي سار لأجله موسى- عليه السلام- لأنه سيُذكر بعد، وهو حذف

إيجاز وتشويق له موقع عظيم في حكاية القصة لإخراجها عن مطروق القصص إلى أسلوب بديع الحكم والأمثال، قضاءً لحق البلاغة والإعجاز >>([2]).

وإذا تأملنا في قصة آدم – عليه السلام– نجدها تنتهي في جميع سياقاتها في السرد القرآني بالهبوط تاركا الحديث عن ملابسات النزول على الأرض، وسكت عن كل ما وقع له من مشاق ومصاعب، وهذا ما<< ترك القصة مفتوحة بعد للخيال يتبع آدم المسكين وزوجه في الأرض غريبين لم يعرفا أقطارهما، ولم يتعودا حياتهما، وليس لهما من خبرة بالمعاش فيها

... إلى آخر ما يتملاه الخيال من مشاهد يقضي على جمالها الفني كل إسهاب في القصة بعد هذا الختام >>([3]).

وبهذا يبقى النص متجاوبا مع المتلقي، فبإمكان أي قارئ لقصة آدم أن يتصور المساحات السردية المتروكة ،ويتخيلها حسب مرجعيته الثقافية والفكرية .

ومما يُوضّح فاعلية الصمت كذلك هو ما يتركه في النفوس والأفئدة من الأثر البليغ خاصة إذا تزامن مع مواقف تستدعي ذلك ،كبعض المواقف المحزنة

---

[1] - الكهف: 60.

[2]- تفسير التحرير والتنوير ج15/.361

3- التصوير الفني في القرآن ، ص 136 .

أو غيرها<< فالإسكندر لما مات وقف عليه بعض اليونانيين وقالوا: طالما وعظنا هذا الشخص بكلامه، وهو اليوم لنا بسكوته أوعظ>> [1].

ومن هنا يمكن القول إنَّ كلَّ صامت فهو ناطق من جهة الدلالة، وهذا ما نص عليه اليونانيون عند موت هذا الرجل فهو ناطق بصمته، وبالتأمّل في حاله يمكن للناظر إليه أن يأخذ العبر والعظات التي لا يمكن الحصول عليها بالكلام.

كما جعل ابن المقفع من السكوت بلاغة رغبة في الإيجاز، وقال الشاعر:([2]).

واعلمْ بأنِّ مِنَ السُّكُوتِ إِبَانةً *** وِمِنَ التَّكَلُّمِ مَا يَكُونُ خَبَالاَ

الزيادة والتكرار في القرآن هل تتعارض مع الاقتصاد؟

إذا كان أسلوب القرآن يتميز بالإيجاز والحذف، ففيه تكرار وزيادة لكنها ليست بالزيادة التي يمكن الاستغناء عنها فتطرح ولا بالتكرار الممل الذي لا فائدة من ورائه، فالقرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين

والعرب توجز في مكان وتطيل وتزيد في أماكن ليُفهم كلامها ، وأوصوا بهذا وألحوا عليه نقل السيوطي عن الزمخشري أنه قال:<<كما أنه يجب على البليغ في مظانّ الإجمال أن يُجمل ويوجز، فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يُفصِّل>>(3) .

والقرآن كلام الله الذي عنده كل شيء بمقدار وضع كل كلمة وكل عبارة في مكانها

فأوجز في مقام الإيجاز ،وأشار في موضع الإشارة ،وأكَّد الكلام في موضع الشك والارتياب ،وبسط القول وكرّره في الأمور المهمّة التي قد تَعْظُم العناية بها ويخاف بتركه وقوع الغلط والنسيان فيها ، والاستهانة بقدرها(4).

و القرآن يجاري بين الأقوال و المقامات، والنزعة الاقتصادية بادية الصفحة فيه لكل متأمل ،ومن المواضع التي كررت فيها قصص الأنبياء مع أقوامهم.

---

1 - العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، تأليف أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، شرح وضبط: د/عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت لبنان، (463/390هـ)، ط1، (1424هـ/ 203م)، ص:204. 15/2

2- الصناعتين، أبو هلال العسكري ، ص: .15

3- الاتقان في علوم القرآن ج3، ص 137.

4- ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص : 52 .

و الزيادة والإطناب إذا كانت في غير القرآن كانت غير مستحبة خاصة في غير مواضعها وهي في التنزيل العزيز غاية في الشرف والبلاغة ؛لأنَّ الله خاطب بهذا القرآن أقواماً كثيرة وأصنافاً مختلفة وعقولا متفاوتة في الفهم والتلقي .

والإطناب فيه اقتصاد لأنه لو حذف أو أُنقص لمآ أدّى المقصود، ولو أفاض أو أطنب لكان زيادة لا حاجة إليها، فناسب بين المقامات وما تحتاجه من مقالات، فكان في الزيادة والإطناب فائدة يستدعيها المقام، وهذا لا يتعارض مع مبدأ الاقتصاد، وانظر مثلا إلى قوله تعالى:﴿ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعِين﴾(1)، إذ تجد أنه على الرغم من إفادة " أل" استغراق جنس ما دخلت عليه، جيء بعده بتوكيدين ، فلولا الأول لاحتمل المعنى أنّ الاستغراق عُرفي لا حقيقي؛ وأنّ السجود كان لبعض الملائكة دون بعض آخر، ولما قيل"كلهم" زال هذا الاحتمال، ولولا الثاني" أجمعين" لما تحقق سجودهم معا دفعة واحدة وهكذا ترى أنّ التوكيدين نابا عن جمل مطوّلة(2).

ومن مقامات الإطناب مقامات توصيف الأحوال التي يُراد بوضعها إدخال الروع في

قلب السامع مثل:﴿كَلاّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ وَقِيْلَ مَنْ رَاق ...بالساق﴾(3)، وقوله:﴿فَلَوْ لَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِيْنَئِذٍ تَنْظُرُون﴾(4)، قال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن: وأمّا تكرار الكلام من جنس واحد وبعضه يجزئ عن بعض كتكراره :﴿ قل يا أيها الكافرون﴾ و﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾، فقد أعلمتك أنّ القرآن نزل بلسان القوم وعلى مذاهبهم

ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام،كما أنَّ من مذاهبهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز(5).

والزيادة في التوكيد كقوله تعالى:﴿ يَقُوْلُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم﴾(6)، لأنّ

1- الحجر: 30 .

2- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد ،ص390 .

3- القيامة :26 .

4- الواقعة : 84/83 .

5- تأويل مشكل القرآن، أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، تح: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث القاهرة، ط2، (1973م)، ص:.235

6- آل عمران :167 .

الرجل قد يقول بالمجاز "كلّمت فلاناً"، وإنما كان ذلك كتاباً أو إشارة على لسان غيره

فأعلمنا أنهم يقولون بألسنتهم، وكذلك قوله:﴿ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيْهِم﴾(1)، لأنّ الرجل قد يكتب بالمجاز، وغيره الكاتب عنه (2).

وقد ذكر الزركشي والسيوطي(3) فوائد كثيرة للتكرار نذكر منها :**التقرير**:وقد قيل الكلام إذا تكرّر تقرّر، وقد نبّه الله تعالى عن السبب الذي لأجله كرّر الأقاصيص والإنذار في قوله بقوله:﴿وَصَرَّفْنَا فِيْهِ مِنَ الوَعِيْدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرا﴾ (4).

زيادة التنبيه على ما ينفي التهمة ليكمل تلقي الكلام بالقبول،ومنه قوله تعالى:﴿وَقَالَ الذِّي آمَنَ يَا قَوْمِ اِتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيْلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاع﴾(5)، فإنّه كرّر فيه النِّداء لذلك.

وإذا طال الكلام وخشي تناسي الأول أعيد ثانيا تطرية له، وتجديدا لعهده، مثل قول:﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيْم﴾(6)، ومنها التعظيم والتهويل، نحو قوله تعالى:﴿الحَاقَّةُ مَا الحَاقَّة ﴾(7)﴿القَارِعَةُ مَا القَارِعَة ﴾(8)، وقوله تعالى:﴿وَأَصْحَابُ اليَمِيْنِ مَا أَصْحَابُ اليَمِيْن﴾ (9) .

1- البقرة :79 .
2- تأويل مشكل القرآن: ص241.
3- البرهان في علوم القرآن ص 632 ، والإتقان في علوم القرآن ج3 ،ص 170
4- طه 113
5- غافر 38 39
6- النحل 119.
7- الحاقة 1،2 .
8- القارعة 1،2.
9- الواقعة 27.

الخاتمة :

إن البحث في قضايا اللغة العربية يورّث الدّارس العلم والمعرفة بكثير مما تتميز به من خصائص ومميزات،وما تنطوي عليه من أنماط وأساليب في التعبير،فيتعرّف على قوانينها وسنن تطوّرها ،وفي هذا البحث وقفت على جانب من جوانبها؛ وهو الاقتصاد اللساني أو ما يعرف بمبدأ الجهد الأقل ، فألفيته حاضرا في جميع مستوياتها، وقد توصلت إلى عدة نتائج منها:

– الاقتصاد اللغوي مصطلح منتقل من الاقتصاد المادي إلى اللغة، وهو يعني أن يكون هناك تكافؤ وتوازن بين المجهود العضلي أو الفكري، وبين الفائدة المرجوة من ذلك أثناء عملية الاتصال.

– لا يفهم الاقتصاد على أنه تقليل أو تقليص في المصاريف في جميع الظروف والأحوال وإنما ينبغي على المرسل تنظيم مصاريفه اللغوية وفق كل ظرف يكون فيه حتى يتمكن من إعطاء لكل مقام ما يناسبه من مقال.

– الاقتصاد اللغوي مصطلح عرفه العرب القدامى، وتجسّد في الواقع العملي للغة نطقا واستخداما ،وظهر في السلوك اللغوي للناطقين بالعربية، كما ظهر من خلال الإشارات والتلميحات المتناثرة في قواعد النحاة والبلاغيين، إلاّ أنّه لم يكن معروفا بهذا المصطلح وإنما كان يطلق عليه التخفيف والاستغناء ،و الملاءمة،

والهروب من الثقل، ومن العلماء الذين سموه باسمه نجد ابن الأثير في المثل السائر قد تطرّق إليه، وجعله وسطا بين الإفراط والتفريط، أما الإمام القزويني فقد سمّاه إيجاز التقدير؛وذلك في كتابة إيضاح البلاغة.

– العلاقة بين مبدأ الجهد الأقل والاتصال اللغوي وطيدة وقديمة قدم الحياة البشرية .

– تعتبر مبادئ الاقتصاد مبادئ راسخة في النظام اللغوي على كل مستوياته .

– اللغة العربية لغة اقتصادية وذلك لاشتمالها على وسائل وآليات الاقتصاد وتوزيع الحروف على طول الجهاز الصوتي، وتمييزها بخاصية التمفصل المزدوج الذي يتيح للإنسان من خلال استعماله للغة أن يعبر عن آلاف المعاني المتنوعة بواسطة الوحدات الصوتية Les phonemes

– ثراء اللغة بالألفاظ والمفردات يجعلها أكثر اقتصادا، وعلى المرسل اختيار المفردة المناسبة للمعنى الذي يريده، كما أنّ حسن الاختيار للوسائل اللغوية يساعد على وضوح المعنى بدقة، وبالتالي تحقيق مبدأ الجهد الأقل بالنسبة للمرسل والمرسل إليه.

– الصيغ المجهدة إما أن تتحجر في نادر المفردات مثل: ابيضض وجحلنجع، وإما أن تخضع للصقل والتهذيب الذي يُسهِّل انزلاق الأصوات فيها، ويُحقق للفظها الانسياب والسلامة مثل: مصون، مقول.

– للاقتصاد اللغوي قيمته البلاغية في الرفع من مستوى تراكيب اللغة،فهو يقوم على التكثيف ، بحيث يُخرج من اللفظ القليل المعنى الكثير .

– تختلف أساليب الكلام باختلاف الظروف والأحوال التي يجري فيها الخطاب اللساني والمقياس الذي على أساسه تقوم العبارة هو مراعاتها لمن تتوجه إليهم بالكلام ، بحيث لا ينقطع حبل التواصل بين المتكلم والسامع بسبب ما قد يتسلل إلى نفس السامع من الملال الذي يهدد عملية الكلام في جملتها .

– وغاية البلاغة القرآنية هي شد انتباه السامع، وإعانته على الوصول إلى متعدد المعنى بالكلام الوجيز، دون أن يصيب المعنى أي غموض .

– لا يقتصر مفهوم الاقتصاد على الإيجاز فقط، وإنما قد يشمل الإطناب أيضا إذا كان المقام يستدعيه ويطلبه ،فأحيانا يكون الفائض على أداء المعنى آتيا لفائدة،كالترويج للمعنى المقصود ، أو تهيئة الجمهور، أو التقرير أو التأكيد أو غيرها من الأغراض .

– في القرآن الكريم آليات و مظاهر عديدة للاقتصاد اللغوي كالإيجاز والمجاز والإشارة والحذف ، والإعلال والإبدال وغيرها .

– الاقتصاد اللغوي وسيلة من وسائل نمو اللغة وتطورها، ومطلب دعت إليه روح العصر وهو ظاهرة عامة تشترك فيه جميع لغات البشر ؛باختلاف مشاربهم وألوانهم وثقافتهم.

– الألفاظ والمصطلحات كثيرة الاستعمال والدوران على الألسن تتعرض لحذف بعض أجزائها من أجل تخفيف نطقها ؛وربحا للوقت ، إذا كانت تحتفظ بمدلولها الأصلي.

– اقتصاد اللغة هو نتيجة للاقتصاد في الكلام؛ لأنّ الطريقة التي يستعمل بها كل شخص الكلام تنتقل إلى الخصائص النظامية للغة ؛أي: إلى اقتصادها الداخلي.

– للكفاية اللغوية والأداء الكلامي دورهما البارز في اقتصاد اللغة بحيث يستطيع من هو على علم ودراية بمفردات اللغة وأنساقها أن يقتصد من الكلام كلما سمحت ظروف التخاطب بذلك، كما أنّ الاتصال الشفهي يَسْهُل الاقتصاد فيه بنسبة أكبر من الاتصال عن طريق الكتابة.

– تتميز بنية الكلمة بحركية داخلية، تتمثل في التفاعلات الصوتية بين وحدات بنائها فيحصل التأثر والتأثير بين الأصوات التي من نفس المخرج أو من مخرجين متقاربين ،وكما يكون بين الصوتين المتلاصقين؛ يكون كذلك بين المنفصلين ،وقد يكون تقدميا أو رجعيا –قد يتحوّل الصامت المهموس الواقع بين صائتين إلى مجهور بتأثيرهما ، وأحيانا يحدث العكس .

– الهمز حرف فيه كلفة ومشقة على اللسان ،لذلك كان بعض القُرّاء يُبدلونه من جنس حركة ما قبله، ويجعلونه حرفَ مدٍّ ، أو يحذفوه ،أو يُسهِّلوه بين بين ،وإذا التقت همزتان يُفصل بينهما بفاصل بُغية التخفيف من ثقل تتابع مثلين في السياق.

– يساهم كل من التنوين والتنغيم والإدغام والإخفاء بقسط وافر في اقتصاد اللغة ،كما أنّ الإقلاب هو الآخر من الظواهر الصوتية التي تعد وسيلة من وسائل الاقتصاد ،لأنه هروب من ثقل تجاور حرفين متقاربي المخرج .

– انفتاح دلالة الألفاظ في القرآن الكريم بسبب المشترك اللفظي ، وتناوب الصيغ الصرفية وألفاظ العموم ؛ يفتح الباب أمام التعدد والاحتمال في معاني آياته ، وهذا ما يكسبه صفة التجدد والاستمرار .

– يتَّخِذ الانسجام الصوتي في القرآن الكريم مظاهر عديدة وطرائق مختلفة، منها التماثل والإتباع، التجانس، والتقريب والإمالة والحذف .

– تكثر نسبة ترداد الحركات والحروف والألفاظ الخفيفة ، ويقل ترداد الثقيل منها ،وقد تبيّن جليا أن نسبة الثلاثي أكثر من غيره، لخفّته واعتداله .

– تعدد القراءات القرآنية للآية الواحدة جعلها في نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة آية، و تنوّع اللفظ بكلمة يقوم مقام آيات.

– اعتماد القرآن على التصوير الفني في عرض الأحداث والوقائع يساهم بقسط وافر في اقتصاد اللغة ، فهو يبث الحياة في المعاني المجرّدة وفي مشاهد يوم القيامة و قصص الأمم الغابرة ، وينقلك إلى عالمه لترى وتسمع وتعيش المواقف .

– تلجأ اللغة العربية إلى حذف كل ما يمكن الاستغناء عنه، من حرف أو كلمة أو جملة أو نص ، من أجل تيسير النطق وتقليل الجهد .

وفي الختام نسأل الله العزيز القدير أن ينفع بهذا البحث، والله من وراء القصد، والحمد لله رب العالمين.

فهرس المصادر والمراجع

– القرآن الكريم برواية حفص .

1– الأشباه والنظائر في النحو جلال الدين عبد الرحمن بن بكر السيوطي دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، م1/ج1.

2– الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تح: أحمد بن علي، دار الحديث القاهرة ،(1427هـ/2006م)،ج.1

3– أثر القوانين الصوتية في بناء الكلمة، د/ فوزي الشايب عالم الكتب الحديث،أربد الأردن ط1/(2004م).

4– الإحكام في أصول الأحكام، تأليف سيف الدين أبي الحسن بن محمد الآمدي، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج.1

5– أسرار البلاغة، الجرجاني، تحقيق: محمد الفاضلي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الثانية: (2001م).

6- الأسس الجمالية للإيقاع البلاغي في العصر العباسي، د/ ابتسام أحمد حمدان، مراجعة وتدقيق، أحمد عبد الله فرهود، دار القلم العربي، حلب سوريا، ط1، (1418هـ/1997م).
7- أسس تعلم اللغة وتعليمها، دوجلاس براون، تر: عبده الراجحي، وعلي أحمد شعبن دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط: (1994م).
8- الأصوات اللغوية، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، بدون طبعة.
9-أصول تراثية في علم اللغة،د/كريم زكي حسام الدين، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2(1985م).
10-الأصول، دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، النحو، فقه اللغة، البلاغة، تمام حسان، الهيئة المصرية، بدون طبعة.
11- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس (ت328هـ)، تح:محمد محمد تامر وآخرين، دار الحديث، القاهرة ، ج1، (2007م).
12- الاقتراح في أصول النحو، عبد الرحمن السيوطي، تح:حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1،(1998م) .
13- الاقتصاد اللغوي في صياغة المفرد، فخر الدين قباوة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان (2001م).
14- الإقناع في القراءات السبع ،ابن الباذش أحمد بن علي الأنصاري، (ت540هـ) تح: د/عبد المجيد قطامش، مطبعة ركابي ونصر، دمشق، ط1، (1971م)، ج.1
15- الإكسير في قواعد التفسير، سليمان بن عبد القوي، تح: د/ عبد القادر حسين، نشر مكتبة الآداب بمصر.
16- الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ط2:(1982م).
17- الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة)، ميشال زكريا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1:(1403هـ /1983م).
18- الألسنية العربية:ريمون طحان، المكتبة الجامعية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط:2 (1981م).
19- ألفية ابن مالك في النحو والصرف، ابن مالك الأندلسي، دار ابن جزم للطباعة والنشر والتوزيع ط1: (2000م).

20- الإنصاف في مسائل الخلاف بين الكوفيين والبصريين، لأبي البركات بن الأنبا ري (ت566هـ) تح: ودراسة: الدكتور جودة مبروك محمد مبروك، راجعه الدكتور رمضان عبد التواب، الناشر :مكتبة الخانجي، القاهرة ،ط1، (2002م) .
21- أهمية الوسائل التعليمية في عملية التعليم عامّة وتعليم اللغة العربية للأجانب خاصة، محمود طاوس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1988م).
22- إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزّ وجل تأليف أبي بكر محمد بن قاسم بشار الأنباري النحوي (ت328هـ) تح: محي الدين عبد الرحمان رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ج1، (1971م).
23- الإيضاح في علل النحو، لأبي القاسم الزجاجي(ت 337هـ)، تح: د/ مازن المبارك، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ط6، (1416هـ/1996م).
24- الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني ، شرح وتعليق :د/ محمد عبد المنعم خفاجي دار الكتاب اللبناني .
25- البحث اللغوي عند العرب مع دراسة لقضية التأثير والتأثر، أحمد مختار عمر، طبعة دار المعارف (1971م).
26- بحوث ودراسات في اللسانيات العربية د/عبد الرحمان الحاج صالح،ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، (2007م).
27- بحوث ومقالات في اللغة، عبد التواب رمضان، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة ودار الرفاعي بالرياض، (1982م).
28- البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، عبد الفتاح القاضين دار الكتاب العربي ط1، (140هـ).
29- البرهان في تجويد القرآن، محمد الصادق قمحاوي، دار العقيدة،ط2، (1426 هـ/2005م).
30- البرهان في علوم القرآن، تأليف الإمام بدر الدين عبد الله الزركشي (ت 794هـ) تح: أبي الفضل الدمياطي ، دار الحديث القاهرة،ج.1
31- بلاغة الوفرة وبلاغة الندرة ، نور الهدى باديس ،(مبحث في الإيجاز والإطناب) ط1، (2008م) تونس .
32- البلاغة والاتصال، جميل عبد المجيد، دار غريب، (2001م).
33- البنية الدلالية، رؤية لنظام العلاقات في البلاغة العربية، سعد أبو الرضا، الإسكندرية منشأة المعارف، بدون طبعة.

34-البيان والتبيين لأبي عمرو الجاحظ (ت255هـ)، اعتنى به الشيخ زكريا عميرات، دار الفكر العربي بيروت لبنان، ط1، (2000م) .
35- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، راجعه وضبطه: عبد الله المنشاوي، مهدي البحقيري،مكتبة الإيمان المنصورة،أمام جامعة الأزهر،ط1، (1418هـ/1997م)،ج1.
36- تاريخ آداب اللغة العربية، جورجي زيدان، تقديم: إبراهيم صحراوي، موفم للنشر،ج.1
37- تاريخ البلاغة العربية،عبد العزيز عتيق،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت لبنان.
38- تاريخ الفكر الاقتصادي، د/ عادل أحمد مشيش، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت ، لبنان.
39- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، نشر الدار التونسية، (1984م).
40- التحليل الإحصائي لأصوات اللغة العربية ، الدكتور محمد علي الخولي ، مجلة معهد اللغة العربية بأم القرى السعودية ، العدد الثاني لعام، (1404هـ/1984م).
41- التصريف العربي من خلال علم الأصوات الحديث، الطيب البكوش الشركة التونسية بتونس، (1973م).
42- التصوير الفني في القرآن، السيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط16، (1423هـ/ 2002م).
43- التطبيق الصرفي، عبده الراجحي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1 (1426هـ/2004م).
44- التطور اللغوي ومظاهره وعلله وقوانينه، عبد التواب رمضان، مكتبة الخانجي، (1981م) القاهرة.
- تفسير ابن كثير، قدم له عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن باديس، الجزائر، ط:02 المجلد2
46- تفسير البحر المحيط ،لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (ت745هـ) دراسة وتحقيق وتعليق :الشيخ أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ط1، (1413هـ/1993م) ج2 ،ج6.
47- تفسير الطبري، الطبري أبو جعفر محمد بن جرير(ت 310 هـ) تح: محمود شاكر دار المعارف القاهرة ، (1969م). مج14 .
48- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، الرازي فخر الدين محمد بن عمر التميمي (ت606هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، (2000م)، ط1،: ج.4
49- التفسير اللغوي الاجتماعي للقراءات القرآنية، هادي نهر، عالم الكتب الحديث (2008م).
50- التفسير اللغوي للقرآن الكريم ،د/ مساعد بن سليمان بن ناصر الطيار ، دار ابن الجوزي ط1،(1422هـ) .

51- تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف الدكتور هاشم محمد علي بن حسن مهدي، دار طوق النجاة، بيروت لبنان ط1: (1421هـ/2001م)، المجلد الأول.
52- تفسير عبد الرزاق الصنعاني،ج2 تح: عبد المعطي قلعجي، نشر دار المعرفة بيروت، ط، (1411هـ)
53- تفسير مجاهد بن جبر، تح: د/ محمد عبد السلام أبو النيل .
54- التكرير بين المثير و التأثير، د/ عز الدين علي السيد، ط1، عالم الكتب،بيروت، (1398هـ/ 1978م).
55- التكنولوجيا والتربية، حسن حمدي الطويجي، دار القلم، الكويت، ط3 :(1983م).
56- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني (في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي) حققها وعلّق عليها : محمد خلف الله و محمد زغلول سلام ط3، دار المعارف مصر ، سلسلة ذخائر العرب.
57- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي محمد بن أحمد (671هـ)، تح: أحمد نجاتي ومحمد النجار الدار المصرية القاهرة، (1955م)، ج 20 .
58- حجة القراءات للإمام أبي زرعة عبد الرحمن بن أحمد بن زنجلة (ت 403هـ)، تح: سعيد الأفغاني مؤسسة الرسالة بيروت، ط5 ، (1997 م).
59- الحجة في القراءات السبع ، أبو علي الفارسي، تح:علي النجدي ناصف، و عبد الحليم النجار و عبد الفتاح شلبي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة ، ط1، ج1 .
60- الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه (خلفيات وامتداد) د/مكي درار منشورات اتحاد كتاب العرب ، دمشق، (2007م).
الحصيلة اللغوية (مصادرها، وسائل تنميتها)، د: أحمد محمد معتوق، عالم المعرفة، الكويت، طبعة: (1996م).
61- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي تقي الدين أبي بكر ، شرح :عصام شعيتو ، منشورات دار الهلال ، بيروت ، لبنان ،ط1، (1987م)، مج2.
62- خصائص الحروف العربية ومعانيها -دراسة- عباس حسن، منشورات اتحاد كتاب العرب، (1998م) .

63- خصائص العربية والإعجاز القرآني في نظرية عبد القاهر الجرجاني، أحمد شامية، سلسلة المعرفة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ط: (1991م).
64- الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، الهيئة المصرية للكتاب، ط4، (1999م).
65- دراسات لأسلوب القرآن،محمد عبد الخالق عضيمة،دار الحديث، القاهرة،القسم2 ج1.
66- دراسات لسانية تطبيقية، مازن الوعر، ط1، دمشق.
67- دراسات لغوية ونحوية، د/خالد أحمد المشهداني، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط1،(2010م).
68- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر،عالم الكتب، القاهرة، (1991م).
69- دراسة المشتقات العربية وآثارها البلاغية في المعلقات العشر الجاهلية- دراسة إفرادية تحليلية- ابن عزوز زبدة ،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، (1989م).
70- دروس في علم أصوات العربية، جان كانتينو أوفست، الشركة التونسية، تونس (1966م).
71- دفاع عن القرآن الكريم- أصالة الإعراب ودلالته على المعاني في القرآن الكريم واللّغة العربيَّة، د/ محمد حسن جبل البربري للطباعة الحديثة، بسيون غربية، (2000م).
72- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية، الجزائر، طبعة: (1991م).
73- ديوان الأعشى، شرح وتقديم: مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، (1993م).
74- ديوان الفرزدق، دار بيروت للطباعة،ج2، (1980م).
75- ديوان المتنبي أبي الطيب، شرح: أبي البقاء العكبري، ضبط: كمال طالب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، (1997م)، ج.4
76- ديوان امرئ القيس، شرح: محمد الإسكندراني ود/ نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، (2004م).
77- ديوان طرفة بن العبد، شرح وتقديم، مهدي محمد ناصر الدين، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط1: (1987م).
78- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم لشهاب الدين السيد محمود الألوسي ،إدارة الطباعة المنيرية، دار إحياء التراث العربي،ج1.

79- روضة الأنوار في سيرة النبي المختار، صفي الرحمن المباركفوري، طبع ونشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط.1
80- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد، بيروت المكتب الإسلامي، (1404هـ)، ط.3
81- سر الفصاحة، تأليف: ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ)، قدّم له واعتنى به إبراهيم شمس الدين ، بيروت لبنان ،ط1، (2010م).
82- سر صناعة الإعراب، ابن جني، تح: مصطفى السقا وزملائه، القاهرة، (1954م)،ج1.
83- شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلي، نشر دار الأفاق الجديدة ، بيروت، لبنان .
84- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، القاضي بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلي الهمداني المصري (ت769 هـ)، دار المعرفة بيروت، لبنان، ط2 ، (1426هـ/2005م).
85- شرح التصريح على التوضيح، خالد الأزهري،مطبعة عيسى الحلبي، مصر بدون تاريخ ج3
86- شرح الشافية، الرضى الاستراباذي، تح: محمد نور الحسن، ومحمد الزفزاق ومحي الدين عبد الحميد،ط2، بيروت، (1975م).
87- شرح اللمع في النحو، تأليف: القاسم بن محمد بن مباشر الواسطي الضرير، تح:د/رجب عثمان محمد، تصدير:د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، (1420هـ/2000م).
88- شرح المفصل لابن يعيش، بيروت، دار الكتب ج8 .
89- شرح طيبة النشر قي القراءات العشر، الإمام شهاب الدين أبي بكر ابن الجزري الدمشقي (835هـ)، ضبطه وعلّق عليه: الشيخ أنس مهرة منشورات علي بيضون دار الكتب العلمية بيروت لبنان
90- لشفاهية والكتابة، والترج أونج، تر:د/حسن البنا، عالم المعرفة، عدد (182)، الكويت، (1994م).
91- الصاحبي في اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ،ابن فارس أبو الحسين أحمد، (395هـ)، تح: عمر الطباع، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، (1993م).
92- صحيح البخاري، البخاري أبو عبد الله محمد بن أبي الحسن، ط، بولاق سنة، (1162هـ)، ج6 .
93- الصرف التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، محمود سليمان ياقوت، دار المعرفة الجامعية، (1996م).
94- الصناعتين الكتابة والشعر، أبو الهلال العسكري، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم المكتبة العصرية بيروت، لبنان، (1406 هـ/ 1986م).

95- الصوائت وأشباهها في العربية الفصحى(دراسة صوتية إحصائية)، محمد أمنزوي، نظام كلية الآداب، مطبعة دار وليلي للطباعة والنشر مراكش، المغرب ط1، (2000م).
96- ظاهرة الاسم في التفكير النحوي، المنصف عاشور، (في مقولة الاسمية بين النقصان والتمام)، منشورات كلية الآداب .
97- العربية الفصحى نحو بناء لغوي جديد، هنري فلايش، تعريب وتحقيق: عبد الصابور شاهين، دار المشرق، بيروت، لبنان ط.2
98- العقد الفريد في شرح القصيدة الجزرية وعلم التجويد برواية حفص عن عاصم، تأليف الحاجة الجامعة مريم جندلي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، (2008م).
99- علم اللغة في القرن العشرين، جورج مونان، ترجمة: د/نجيب غزاوي، سلسلة الكتب العلمية، مطابع مؤسسة الوحدة، (1982م).
100- علم اللغة، د/ عبد الله عبد الحميد سويد ،د / عبد الله علي مصطفى، دار المدينة القديمة للكتاب طرابلس ط1، (1993م).
101- علم المعاني، د/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، بيروت، (1985م).
102- علم قراءة اللغة العربية، د/ حسني عبد الجليل يوسف، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع القاهرة ط2، (1426هـ/ 2005م).
103- العمدة في نقد الشعر وتمحيصه، تأليف: أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، (ت463هـ)، شرح وضبط: د/عفيف نايف حاطوم، دار صادر، بيروت، لبنان ط1،(1424هـ/2003م) .
104- العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تح:د/ عبد الله درويش، مطبعة العاني، بغداد (1967م)، ج.1
105- الفائق في غريب الحديث، محمود بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ)، تح:علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، لبنان، ط:02.
106- الفروق اللغوية: أبو هلال العسكري، تح: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، بدون طبعة.
107- فقه اللغات السامية، كارل بروكلمان، ترجمة : رمضان عبد التواب، الرياض، (1977م).
108- فقه اللغة وأسرار العربية، أبو منصور الثعالبي (ت430هـ)، منشورات مكتبة الحياة، بيروت لبنان، بدون طبعة.

109- الفنولوجيا وعلاقتها بالنظم في القرآن الكريم ، تأليف: د/ محمد رزق شعير، تقديم: الدكتور تمَّام حسَّان، مكتبة الآداب، ميدان الأوبرا، القاهرة، الطبعة الأولى: (1429هـ/2008).
110- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي،
(ت597هـ)، تح: د/ حسن ضياء الدين عز، دار البشائر الإسلامية، بيروت لبنان ط1، (1408هـ/1987م).
111- في إعجاز القرآن، الباقلاني، تح:السيد أحمد صقر، القاهرة، دار المعارف، (1977م).
112- في التحليل اللغوي- منهج وصفي تحليلي-، د/ خليل عمايرة مكتبة المنار الأردن ط1 (1407هـ/1987م).
113- في النحو العربي قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث، د/ مهدي المخزومي مطبعة مصطفى الحلبي، ط:1، (1966م).
114- القراءات القرآنية بين العربية والأصوات اللغوية، منهج لساني معاصر، د/ سمير شريف استيتية عالم الكتب الحديث، أربد، (2005م).
115- القياس في النحو، منى إلياس، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، (1985م).
116-كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل بن أحمد، دراسة تحليلية،د/ محمد إبراهيم عبادة منشأة المعارف بالإسكندرية .
117-كتاب الطراز المتضمِّن لأسرار البلاغة وحقائق الإعجاز، يحي بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني، مكتبة المعارف الرياض، مج .2
118- الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، ط3 (1983م) .
119- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه الأقاويل لجار الله الزمخشري مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر (1948م)، ج.2
120- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، مكي بن أبي طالب، تح: محي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، (1402هـ)،ج1.
121- الكنز في القراءات العشر، أبي محمد عبد الله بن عبد المؤمن الواسطي، (ت740هـ) تح: د/ خالد أحمد المشهداني، دار المصري للطباعة، القاهرة، (2002م).
122- اللباب في علل البناء والإعراب، أبي البقاء محب الدين عبد الله بن الحسين بن عبد الله(ت616هـ)، تح:غازي مختار طليمات ، دار الفكر ، دمشق ،ط1، (1995م)،ج2 .

123- لحن العامة، د/ عبد العزيز مطر، طبعة دار المعارف، (1981م).
124- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد مكرم، دار صادر بيروت ط1: (2000م)، ج.12
125- اللسانيات (النشأة والتطور)، أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر.
126- اللسانيات من خلال النص،جمع د/عبد السلام المسدي، الدار التونسية للنشر (ط:1984م) .
127- اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة ،ط2 (1998م).
128- لغة القرآن، لغة العرب المختارة، د/ روّاس قلعجي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، ط1، (1988م).
129- اللغة والاقتصاد، فلوريال كولماس، تر: أحمد عوض، مراجعة: عبد السلام رضوان، عالم المعرفة ، طبعة، (2000م).
130- اللغة والتواصل، (اقترابات لسانية للتواصلين:الشفهي والكتابي)، د/عبد الجليل مرتاض، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر .
131- اللغة، جوزيف فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، (1950م).
132- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنّشر ط4، (2007م).
133- اللهجات العربية في التراث، د/ أحمد علم الدين الجندي، القسم الأوّل من النظامين الصوتي والصرفي، الدار العربية للكتابة (1983م).
134- ما وراء اللغة- بحث في الخلفيات المعرفية، د/عبد السلام المسدي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس .
135- مباحثات لسانية في ظواهر قرآنية، د/ مهدي أسعد عرار، دار الكتب العلمية لبنان بيروت ط1، (2008م).
136- مبادئ في الاقتصاد الجزئي، د/ السيد محمد أحمد السريتي، جامعة الإسكندرية، الدار الجامعية للنشر والتوزيع، مصر، ط1، (2000م) .
137- مبادئ في اللسانيات البنيوية (دراسة تحليلية ابستمولوجية)، الطيب دبه، جمعية الأدب للأساتذة الباحثين.
138- مبادئ في اللسانيات العامة، أندريه مارتينيه، تر: سعدي زبير، دار الآفاق (1999م).

139- المثل السائر في آداب الكاتب والسائر، ابن الأثير، (ت637هـ)، تح: محي الدين عبد الحميد المكتبة العصرية، بيروت ج2.
140- محاضرات في علم النفس اللغوي، حنفي بن عيسى، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، ط5، (2003م) .
141- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، (ت666هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، (1979م).
142- المخصص، أبي الحسن علي ابن إسماعيل بن سيده، تح: لجنة إحياء التراث العربي منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت لبنان، ج1.
143-مدخل إلى الألسنية: تأليف بول فابر، وكريستيان بايلون، تر: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، ط: 1،(1992م).
144- المدخل إلى علم اللغة، كارل ديتر بوتبخ، ترجمة وتعليق: د/سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، القاهرة، ط1، (2003م).
145- المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، شرح وتعليق: محمد جاد المولى بك، محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية بيروت ج1، ط (1408هـ/1987م).
146- مسائل خلافية في النحو، أبي البقاء العكبري، تحقيق: محمد خير حلواني، دار النشر العربي بيروت، ط1، (1992م).
147- مسند الإمام أحمد، تح: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط:1، (1416 هـ 1996م) ج11 .
148- مشكلة العامل النحوي ونظرية الاقتضاء، فخر الدين قباوة، الشركة المصرية العالمية لونجمان، (2002م).
149- معجم الإعراب، إميل بديع يعقوب، المؤسسة الحديثة للكتاب طرابلس، لبنان، بدون طبعة.
150- معجم اللسانيات الحديثة، عربي- انجليزي، د/سامي عيّاد حنا، و د/كريم زكي حسام الدين و د/نجيب جريس، مكتبة لبنان .
151- معجم المصطلحات الألسنية، مبارك المبارك، فرنسي- عربي- إنجليزي، بدون طبعة.
152- المفصل في صنعة الإعراب أبو القاسم بن عمر الزمخشري، (ت 538هـ) تح:د/ عليب أبو ملحم، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط:1، (1993م)، ج.1

153- المقتضب للمبرد تح: محمد عبد الخالق عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة،(1392هـ/ 1972 م).
154- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن ابن خلدون، (384هـ /808هـ)، ضبط وشرح وتقديم،
155- مقدمة في صناعة النثر والنظم، شمس الدين التواجي، تحقيق:د/ محمدبن عبد الكريم، منشورات دار الحكمة، بيروت .
156- المكتفي في الوقف والابتداء، أبو عمر الداني، تح: جايد زيدان مخلق، مطبعة وزارة الأوقاف بغداد،(1983م)، ج.1
157- من وظائف الصوت اللغوي، محاولة لفهم صرفي ونحوي ودلالي، د/ أحمد كشك ،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (2006م).
158- مناهل العرفان في علوم القرآن،الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، تح: فوّاز أحمد زمرلي،دار الكتاب العربي بيروت،ج ط1، (1415هـ/ 1995م).
159- منجد المقرئينن ،الجاحظ محمد بن محمد بن الجزري، تح: د/ عبد الحي الفرماوي، نشر مكتبة جمهورية مصر القاهرة ط1، (1397م).
160- النجوم الطوالع على الدرر اللوامع في أصل مَقَرْ الامام نافع للعلامة الشيخ سيدي إبراهيم المارغني دار الفكر للطباعة والتوزيع، (1415هـ/ 1995م)، بيروت لبنان.
161- نحو وعي لغوي، مازن المبارك، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، (1390هـ/1970م).
162- النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية، ين عكنون، الجزائر، طبعة (1994م) .
163- نظرية التلقي: مقدمة نقدية تأليف روبرت هولب، ترجمة: عزالدين إسماعيل، النادي الثقافي بجدة، ط:(1415هـ).
164-النقد الأدبي، أحمد أمين، تقديم: محمد الطاهر مدور، موفم للنشر، (1992 م).
165- النكت في تفسير كتاب سيبويه، أبي الحجاج بن عيسى الأعلم الشنتمري (ت476هـ) منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط (2005م)، ج2 .
166- النمو النفسي، د/ عبد المعجم المليجي، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الخامسة .

167- الوجوه والنظائر لكتاب الله العزيز، تأليف: أبي الله الحسين بن محمد الدّامغاني (ت478هـ) تح: عربي عبد الحميد علي، دار الكتب العلمية .

المجلات والمحاضرات :

1- مجلّة البيان الإلكترونية، المشكلة الاقتصادية وعلاجها من المنظور الإسلامي، د: محمد بن عبد الله الشباني، العدد 81، جمادي الأولى (1415هـ/ أكتوبر، نوفمبر 1994م).

2- مجلة اللغة والأدب، الخطاب الأدبي وثروته اللغوية على ضوء اللسانيات وعلم النص، رابح بوحوش، جامعة الجزائر، العدد: 12شعبان، (1418 هـ/ 1997م).

3- مجلة مجمع اللغة العربية:د/ أحمد شفيق الخطيب، دمشق، المجلد 75، ج3، ربيع الأول: (1421هـ/2000م).

4- مجلة مجمع اللغة العربية، عماد صابوني، منهج مقترح لوضع المصطلح، المجلد 75، دمشق.

5- مجلة مجمع اللغة العربية، في الطريق إلى مصطلح علمي، محمد الدالي، المجلّد 75، دمشق.

6- الندوة الدولية حول مكانة اللغة العربية بين اللغات العالمية، اللغة العربية وتحديات العصر في البحث اللغوي وترقية اللغات، عبد الرحمن الحاج صالح، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر2001م)، الجزائر، أيام (10-12 شعبان 1421هـ الموافق: 8/6 نوفمبر 2000م).

7- سيكولوجية القصة، الحوار في قصص القرآن، د/ نقرة التهامي، رسالة دكتوراه، الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، الشركة التونسية للتوزيع .

8- جامع البيان في القراءات السبع لأبي عمرو الداني(ت444هـ) رسالة ماجستير، دراسة وتحقيق الطالب: خالد بن علي بن عبدان الغامدي، إشراف: د/ محمد ولد سيدي ولد حبيب، جامعة أم القرى مكة المكرمة، السعودية قسم الكتاب والسنة، (1415هـ، 1995م).

9- إعجاز القرآن الكريم (محاضرة لـ: د-لخضر حداد)، دار الإمام، المحمدية، الجزائر، من(19/17 ماي 2004م).

10- أثر علوم اللغة في نقد المغاربة القدامى، د/ أحمد داود، رسالة دكتوراه، جامعة وهران السانية (2011م/2012م).

المراجع الأجنبية:

[1] - Dictionnaire de didactique des langues R/ galisson et D/eost .
[2] - Dictionary of modern linguistics english-arabic, dr, sami a. hanna librair du liban publishers

الجمهورية الجزائرية اليمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

الطالب : غربي بكاي

عنوان الرسالة : الاقتصاد اللغوي في القرآن الكريم – دراسة دلالية –

الأستاذ المشرف : أ. د. أحمد عرابي

ملخص الرسالة بالفرنسية

Résumé en français:
Coran un livre de la législation avec les dispositions et les lois qui régissent la vie humaine, et décrit la manière dont un livre de langue et environ; les mots et le vocabulaire et l'argent structures se passer de lui l'un, dans lequel la preuve de la grammaire et la rhétorique et l'argumentation, et les nouvelles et les histoires de l'immémorial-Unis, et de leurs reliques et Oukaúahm et leurs jours et un échange interactif, ... Et la médecine, la sagesse, de proverbes et de la géométrie et l'algèbre, dans laquelle les actifs des Métiers et des noms de machines telles que la couture, la menuiserie, la construction, le tissage, l'élevage, la pêche, la navigation et la rédaction, l'écriture, et achat et vente ....
Un aspect de miracles dans le Aziz Télécharger est inclus, il a excellé dans les méthodes de la déclaration de la rhétorique Il ya beaucoup de livres qui parlent de l'abondance de la parole, et la précision de sens, et la versatilité de son style, et accablé par les variétés et les couleurs de la rhétorique et l'argumentation, et il ya un aspect important de l'éloquence du Coran: l'économie du langage , je n'ai pas trouvé qui l'a écrit ou résumée par le droit d'auteur, et dans laquelle il déclarait fraction a été éparse dans les ventres des mères a écrit la rhétorique et de l'interprétation, la grammaire, et je voulais former la dispersion, et Asper Oguarh et interrogé Mkamenh, et a expliqué son concept, et de montrer les manifestations, les mécanismes et l'utilité.
Entré objet de recherches marquée par B: «L'économie de la langue dans le Coran - Lignes directrices étude - et le problème posé est: Quel est le sens de l'économie de langage Que veut le faire est d'économiser de la langue ou dans le discours est-il possible pour toutes les variétés de l'économie humaine dans la langue ou est-il plus personne?? ? Quelles sont les manifestations et les mécanismes dans le Coran?
Pour répondre à ces questions a suivi l'approche descriptive et analytique, parce que le sujet a besoin d'introduire une certaine terminologie et des concepts, a tracé la déclaration dans les versets du Coran de l'économie de la langue comme un résultat de facteurs d'aide audio ou morphologique ou grammaticales ou rhétoriques d'inclure dispersés dans les livres d'interprétation et de la rhétorique, puis debout sur le témoignage d'analyse et de débat, en raison de l'absence d'apport, et la façon d'Ur, et le manque d'études sur ce

sujet, vous n'avez pas intervenir adéquatement analysé certaines des questions, mais il suffit pour ce que les savants de la langue et l'interprétation de crainte de dérapage dans le livre d'Allah, en vers, et dans le lancement de la règle.

Obligatoires et la nature de la recherche et de l'article pour être dans l'introduction, préambule et les sections, chaque section comporte deux chapitres, et l'épilogue, et les index.

Vttrguet dans la préface de ce concept de communication et d'éléments de base de Kalmrsl et le destinataire et un canal de communication et autres, et les conditions devant être fournis dans chacun de ces articles jusqu'à ce que la connexion est bonne et claire. On signale également que les langues peuvent différer dans l'expression des idées et des significations; dont certains ont tendance à élaborer et détails, dont certains préfèrent l'économie de parler, et de s'éloigner de ce qui ne sert à rien de mentionner ou non il prend la place du moderne.

Le premier chapitre consacré à la définition du terme économie de la langue pour les Arabes, anciens et modernes, et ses termes sont synonymes, c'est à dire lorsque les érudits occidentaux de la linguistique, et a montré sa relation à la langue, et a offert des exemples, et les conditions et les contrôles nécessaires.

D'un actif à l'économie de la langue et l'économie de la parole, ce qui montre à partir de laquelle parle de plus en plus économique que la langue, comme un langage individuel et social.

Et a conclu que l'économie de la langue pénètre dans le système de haut-parleur et comprend tous les niveaux de la voix et le morphologique et sémantique et la grammaire.

La conversation était au deuxième trimestre pour l'économie de la langue au niveau vocal, débuté lorsque l'économie de la langue et la voix appropriée, puis la manifestation de la voix de l'harmonie dans le Coran et dont la similitude entre les lettres dans les mots et les structures, avec une représentation de son des versets du Coran en indiquant les raisons de l'impact et de vulnérabilité parmi les personnages de bâtiments, ensuite parlé de la hamza et subissent pour atteindre et quand vous alléger les grammairiens et les lecteurs, et a montré l'atténuation et l'enquête citoyenne, en citant les mots dans tout ce que les savants arabes, et quelques lectures.

Et puis a touché un certain nombre d'aspects de l'économie de la langue dans le Coran, y compris: Tilt et les personnages spéciaux et tonifiant et empâtement et Alaqlab et appliquées et suivies, et les fonctions affichées et les résultats.

Chapitre III: parlé de l'économie de la langue sur le plan sémantique, et était initialement partagé avec la multifonctionnalité des mots et des modes d'expression, et il a une connotation différente sont des modèles prêts à construire sur plusieurs bâtiments, et il ya plusieurs mécanismes qui peuvent être utilisés pour diversifier l'importance, y compris la suspension, et les formules de rotation mots morphologique, et en général, et la diffusion de privés ou de l'allocation de l'année.

Ensuite déménagé aux versions linguistiques et varient en usage, et constaté qu'il ya des mots fréquemment parroted et de spin sur les langues, et il ya des mots de moins utiliser, et a commencé dans ce mouvement, et les lettres, puis des mots et, finalement, ont montré que la raison en est: la légèreté et le poids et la facilité et la difficulté, Vaharkat, lettres, mots et la lumière sur la langue plus courante que d'autres.

L'origine d'une économie de langage dans les lectures, sa mère lui a dit, et ont montré le bénéfice de plusieurs lectures, et ce qui ressort de cette diversité de sens multiples de ce verset, et a utilisé les dispositions de la jurisprudence, et conclu par le chapitre d'imagerie technique dans le Coran, et la présentation des événements et des porte-parole de faits signalés.

Le chapitre IV a attrapé l'économie du langage au niveau de synthèse, et a commencé à parler dans lequel le rôle des mouvements d'exprimer à clarifier le sens, et que dans un discours que les clés qui ont conduit les verrous les règles fermé, et grammaticales

développée par les grammairiens sont tous orientés vers la réduction de la prononciation, et loin que possible de tous est difficile ou dur et lourd sur la langue, et si le conflit entre les règles générales avec goût arabe, il est d'inverser à l'autre, puis déplacé à parler du rapport, et la suppression et de ses causes et de conditions et Jamalith techniques et rhétoriques, puis touché à la brièveté et de types: aperçu court et concis Supprimer. Conclure le chapitre de référence et le silence, avec une indication de leur rôle dans la clarification du sens et de Tglath, et fournir le temps et l'effort.

الجمهورية الجزائرية اليمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

الطالب : غربي بكاي

عنوان الرسالة : الاقتصاد اللغوي في القرآن الكريم – دراسة دلالية –

الأستاذ المشرف : أ. د. أحمد عرابي

ملخص الرسالة بالإنجليزية Abstract in English:

Quran a book of legislation with the provisions and laws governing human life, and outlines the way a book language and about; the words and the vocabulary and structures money do without him one, in which evidence of grammar and rhetoric and argument, and the news and stories of the United immemorial, and their relics and Oukaúahm and their days and an interactive exchange, ... And the medicine, wisdom, proverbs and geometry and algebra, in which the assets of the Trades and names of machinery such as sewing, carpentry, construction, weaving, farming, fishing, navigation and drafting, writing, and buying and selling ....

One aspect of miracles in the Download Aziz is included it excelled in the methods of rhetoric statement There are many books that talk about the abundance of the word, and accuracy of meaning, and versatility of his style, and overwhelmed by the varieties and colors of rhetoric and argument, and there is an important aspect of the eloquence of the Qur'an: the economy of language , I did not find who wrote it or summarized by copyright, and in which he stated fraction was sparse in the wombs of mothers wrote rhetoric and interpretation, grammar, and I wanted to forming the Dispersion, and Asper Oguarh and questioned Mkamenh, and explained his concept, and show the manifestations, mechanisms and usefulness.

Came subject of research marked by B: "The economy of language in the Koran - Study Guidelines - and the problem posed is: What is the meaning of economy of language? What does it do? Is economize in language or in speech? Is it possible for all the varieties of human economy in the language or is it more individual ? What are the manifestations and mechanisms in the Koran?

To answer these questions followed the descriptive and analytical approach; because the subject needs to introduce some terminology and concepts, has traced the statement in the Quran verses of the economy of language as a result of factors audio or morphological or grammatical or rhetorical help of including dispersed in the books of interpretation and rhetoric, and then stood on the evidence of analysis and debate, due to the lack of intake, and the Ur way, and the lack of studies in this subject, you do not intervene adequately analyzed some of the issues, but suffice for what the scholars of

language and interpretation for fear of slippage in the book of Allah, in verse, and in the launch of the rule.

Required and the nature of the research and article to be in the introduction, preamble and sections, each section contains two chapters, and epilogue, and indexes.

Vttrguet in the preface to the concept of communication and basic elements of Kalmrsl and the consignee and a channel of communication and others, and the conditions to be provided in each of these items until the connection is good and clear.

Also reported that the tongues may differ in the expression of ideas and meanings; some of which tend to elaborate and detail, some of which prefer the economy to speak, and move away from what is no point in mentioning or not it takes place of the modern.

The first chapter devoted to the definition of the term economy of language to the Arabs, old and modern, and his terms are synonymous, ie, when Western scholars of linguistics, and showed its relationship to language, and offered examples of it, and the necessary conditions and controls.

Of an asset to the economy of language and economy of speech, which shows from which to speak more and more economical than language; as an individual and social language.

And concluded that the economy of language penetrates into the speaker system and includes all levels of voice and the morphological and semantic and grammar.

The conversation was in the second quarter for the economy of language-level voice, began when the economy of language and appropriate voice, then the manifestation of harmony voice in the Koran and from which the similarity between letters in words and structures, with a representation of her verses from the Quran stating the reasons for impact and vulnerability among the characters of buildings, then talked about the hamza and undergo to achieve and when you alleviate the grammarians and readers, and showed the mitigation and citizen investigation, citing the words in all that Arab scholars, and some readings.

And then touched to a number of aspects of the economy of language in the Koran, including: Tilt and toning and special characters and slurring and Alaqlab and enforced and followed, and the functions shown and Results.

Chapter III: talked the economy of language on the semantic level, and was initially shared with the multifunctionality of words and modes of expression, and it carries different connotations are templates ready to build out several buildings, and there are several mechanisms that can be used to diversify the significance, including the suspension, and the rotation formulas morphological, and general words, and dissemination of private or the allocation of the year.

Then moved to the language versions and vary in use, and found that there are words frequently parroted and spin on the tongues, and there are words of less use, and began in this movements, and letters and then words, and eventually showed that the reason for this is: lightness and weight and the ease and difficulty, Vaharkat, letters, words and light on the tongue more common than others.

The origin to an economy of language in the readings, His mother told him, and showed the benefit of multiple readings, and what emerges from this diversity of multiple meaning of the verse one, and utilized the provisions of jurisprudence, and concluded by Chapter imaging technical in the Qur'an, and presentation of events and facts spokesman reported.

Chapter IV grabbed the economy of language-level synthetic, and began to talk in which the role of movements to express to clarify the meaning, and that in a speech as the keys that led locks the closed, and grammatical rules developed by the grammarians are all oriented towards reducing the pronunciation, and away as possible from all is difficult or hard and heavy on the tongue, and if the conflict between the general rules with taste Arab; it is to reverse to the other, then moved to talk about the ratio, and the deletion and its causes and conditions and Jamalith technical and rhetorical, and then touched to the

brevity and types: outline short and concise Delete.
Conclude the chapter by reference and silence, with an indication of their role in clarifying the meaning and Tglath, and provide the time and effort.